الزمن الأمريكي: من نيويورك إلى كابول

كلامٌ في السياسية

محمَّد حسنين هيكل

المصرية للنشر * العربي والدولي

..هذه فصول كتبتها ما بين خريف ٢٠٠١ وشتاء ٢٠٠٢، وكلها عن الزمن الأمريكي، بمعنى نشأة الولايات المتحدة الأمريكية وصعودها الاقتصادي الباهر أواخر القرن التاسع عشر ثم عبورها للمحيط عائدة إلى العالم القديم، تفرض على الدنيا زمانها وفيه تقدمها وقوتها وهيمنتها.

وكذلك فإن القرن العشرين أصبح قرناً أمريكياً مصداقاً لمقولة "والتر ليبمان" أهم كاتب ومحلل سياسي عرفته الولايات المتحدة الأمريكية.

والبشرية تعيش اليوم بدايات قرن هو الحادي والعشرون بعد ميلاد المسيح والكل يسأل نفسه: هل يكون القرن الحادي والعشرين أمريكياً أيضاً؟

ومجمل الشواهد على الساحة الدولية الآن تقول بذلك، لكن عاصفة التقدم الإنساني وقوة اندفاعها الهائلة لا تسمح لأحد بالتنبؤ عن "جو المستقبل" ولا تسمح بمدى للرؤية يتجاوز بالسنين عدد أصابع يد واحد، على ذلك فالأغلب — وتلك ليست مجازفة بالظن تتجاوز وسائل الرصد — فإن الثلث الأول من القرن الحادي والعشرين أمريكي أيضاً، ومعنى ذلك أن الإمبراطورية الأمريكية شبه يقين في المستقبل حتى خط الأفق المرئي وبعده أيضاً.

وهنا يصبح مهماً أن يحاول كل من يقدر — على قراءة "الزمن الأمريكي" حتى على سطح السحب العابرة، أو فوق كتل الضباب المتراكمة.

وتلك قراءة بأبجدية المجهول على سماء غائمة!

محمد حسنين هيكل

إعادة اكتشاف أمريكا

١ـــ أمريكا عند النظرة الأولى عبر المحيط:

هذه هي المرة التاسعة والعشرون التي أعبرُ فيها المحيط قاصداً العالم الجديد، وهو لم يعُد الآن جديداً، وإن ظلَّ ـــ بعد ستَّة قرون ـــ في حاجة إلى الاكتشاف أو إعادة الاكتشاف حتى يمكن فهمه، لأن أمريكا الآن لم تعد فقط تلك القارة المليئة بالفرص، أو المعبَّأة بالقوة، أو المصممة على مشروع يرث الإمبراطوريات القديمة ـــ وإنما لأن الإمبراطورية الأمريكية أصبحت ظاهرة غير مسبوقة في قصة الإنسانية، فهي حاضرة في كل قارة من قارات الدنيا ـــ ضاغطة على كل إقليم ـــ محشورة في كل بلد ـــ مندسَّة في كل بيت ـــ وتلك أحوال تدعو بالتأكيد إلى القلق لأن العالم لم يعرف من قبل دولة "متداخلة"، إلى هذا الحد في حية ومستقبل غيرها من الدول. وقد عرف العالم من قبل دولا "متدخِّلة" لكن التداخل" الأمريكي في حياة البشرية مع بداية القرن الواحد والعشرين "الألفية الثالثة الميلادية" ـــ تجربة طارئة تستوجب "القلق" ـــ وتستدعي التنبه ـــ في محاولة للفهم هي الآن "ضرورية" وعاجلة!.

....

....

ومن المصادفات أن هذا العبور التاسع والعشرين للمحيط إلى أمريكا توافق بالنسبة لي مع موعد العبور الأول، وبفارق خمسين سنة بالضبط ـــ فقد كانت أول سفرة قصدت فيها "العالم الجديد" سنة ١٩٥١ ـــ والآن ٢٠٠١ ـــ نصف قرن بالضبط!

وفي ذلك الزمن قبل خمسين سنة ـــ بدت لي الولايات المتحدة الأمريكية قوة طالعة في أعقاب الحرب العالمية الثانية، توشك أن تدخل الساحة الدولية لاعباً كبيراً ـــ لكنه لم يخطر ببالي في ذلك الوقت أن الولايات المتحدة ـــ بعد خمسين سنة ـــ سوف تصبح اللاعب الرئيسي ـــ وربما الوحيد حتى إشعار لاحق ـــ وأن تأثيرها على الدنيا، وعلى المنطقة التي تعنيني أكثر من غيرها في هذه الدنيا، سوف يبلغ هذا المدى الذي نراه، ونحس به ، ونتأثر منه إلى هذه الدرجة.

وعندما قصدت أول مرة إلى أمريكا كانت الرحلة من القاهرة إلى نيويورك تستغرق ستّاً وثلاثين ساعة في الجو، من القاهرة إلى أثينا محطة ـــ ومن أثينا إلى روما محطة ثانية ـــ ومن روما إلى لندن محطة ثالثة ـــ ومن لندن إلى مطار "جاندر" في إيرلندا محطة رابعة ـــ ومن "جاندر" ألى "ريكيجافيك" في أيسلندا محطة خامسة ـــ ومن "ريكيجافيك" ينزلق الخط الملاحي بالطائرة إلى "جرينلاند"، ومنها على شواطئ "ماينز" وحتى نيويورك ـــ وكذلك كانت هناك دائماً ضرورة لقضاء ليلة مبيت في منتصف الطريق، والغالب في باريس أو لندن.

أي أنها ــ بالطيران، ومحطات الوقوف، وليلة المبيت ــ ثلاثة أيام إلى نيويورك ــ ومع ذلك بدت تلك أيامها معجزة من المعجزات، قياساً على ما كان قبلا، وما ظل حتى الحرب العالمية الثانية، حين كان السفر بالبواخر أربعة أسابيع ــ شهر كامل على أقل تقدير ــ من الإسكندرية إلى نيويورك!

وربما أن طول المسافات على هذا النحو ــ حتى بالطائرة ثلاثة أيام ــ كان يوحي بأن أمريكا بعيدة، لكن الزمن راح يتلاشى بإيقاع تضطرب له الحواس، فقد عبرت المحيط في أوائل الثمانينات خمس مرات بطائرة "الكونكورد" في وقت لا يزيد على ثلاثة ساعات واثنتي عشرة دقيقة كل مرة، مخترقاً خمس مناطق زمنية في هذه الساعات الثلاث وبضع دقائق، ثم توقَّفتُ عن استعمال "الكونكورد" قانعاً بالنفاثات العادية تعبر المحيط في ست ساعات: ساعة أو أكثر قليلاً لكل منطقة زمنية، وهو عبء وجدته أخف على التوازن البدني والنفسي!

وكنت منذ أواخر الثمانينات وحتى أواخر التسعينات قد امتنعت عن السفر إلى أمريكا، لأن زيارتها أصبحت بالنسبة لي ــ على الأقل ــ عبئاً على الأعصاب تتزايد وطأته، فضلاً عن أنه لم يعد هناك إلحاح على ضرورته. وفي وقت من الأوقات كان أي مصري أو عربي مهتم بالسياسة يذهب إلى واشنطن ووراءه سند سياسي قوي ــ حتى ولو كان السند نوعاً من الأساطير (والأساطير حقائق سياسية إذا قبلها المعنيون بها، ومع ذلك فإن فكرة وحركة القومية العربية لم تكن أسطورة) ــ وكذلك فقد كان في مقدور أي مهتم بالسياسة ــ مصرياً كان أو عربياً ــ أن يقصد إلى نيويورك أو واشنطن معززاً بنوع من المصداقية فيما يقول به أو يحاور أو حتى يتفاوض عليه. لكن الصورة راحت تتغير بما جرى للعالم العربي وفيه، والنتيجة أن الأوضاع العربية في الولايات المتحدة أصبحت مكشوفة ــ بل وعارية. وكان المزعج أن السياسة العربية نفسها هي التي تكفّلت أولاً بنَزع سلاحها، ثم تطوعت ثانياً بنَزع ملابسها ــ ثم إنها ــ ثالثاً فرطت في ثقتها بنفسها وما يلازم هذه الثقة من عزة الكبرياء.

وهكذا أصبحت أجد عبور المحيط في ثلاثة أيام أو ثلاث ساعات عبئاً معنوياً ونفسياً لا حاجة لي به. وتوقفت عن السفر إلى أمريكا. ورغم أن "فرانك ويزنر" سفير الولايات المتحدة الأسبق في مصر لم يكف عن تذكيري بين وقت وآخر أن "الولايات المتحدة أكبر وأخطر من أن يقاطعها أحد" ــ فقد ظللت لأكثر من عشر سنوات مكتفياً بالشاطئ الشرقي للمحيط الأطلسي ــ لا أفكر في غربه!

ثم كان أن وجدت نفسي أخيراً ــ ولأسباب طارئة ــ عابراً للمحيط ثلاث مرات متوالية، عائداً مرة أخرى وأخرى وأخرى إلى أمريكا مسلِّماً مع "فرانك ويزنر" بأن "الولايات المتحدة أكبر وأخطر من أن يقاطعها أحد".

****

وهذه المرة الأخيرة ــ وهي العبور التاسع والعشرون إلى أمريكا ــ خطر ببالي أن ذلك البلد الذي لا يستطيع ــ لحسن الحظ، أو لسوء الحظ ــ أن يقاطعه أحد يحتاج إلى استكشاف جديد بعد مرور خمسين سنة على أول عبور إليه سنة ١٩٥١.

....

....

[والشاهد أن إعادة استكشاف الأشياء والأفكار والظروف ــ وحتى الأمزجة ــ عملية ضرورية لا بد أن يقوم بها الناس ما بين الوقت والآخر ــ نوعاً من الحساب والمراجعة والتثبت بالحذف والإضافة حيال أزمنة متغيرة ــ وإلا فإن هؤلاء قد يتنبَّهون ذات يوم وإذا الحقائق قد غافلَتْهم وسافرت إلى المستقبل، وتركتهم حيث توقَّفوا بظن ــ أو وهم ــ أنهم "أدركوا" و"تيقنوا" بما لم تعد بعده زيادة لمستزيد.]

……………………

وربما اعترفت أنني في ذلك العبور الأول للمحيط ــ السفرة الأولى للولايات المتحدة الأمريكية ــ سنة ١٩٥١ ــ لم أرتِّب نفسي بما فيه الكفاية لإعادة اكتشاف العالم الجديد!

○ وعلى نحو ما فقد تأثرتُ بالصورة الشائعة وقتها عن الولايات المتحدة الأمريكية، وانطباعها أن أمريكا بلد فادح الغنى، وهو غنى مفاجئ لم تروضه ثقافة متأصلة، ونتيجة لذلك فإن هذا البلد قوة هائلة لكنها ساذجة ــ لم تصل إليها خبرة وحكمة القارات القديمة. وكذلك فهو بلد سهل وبلا عقد كما تعبَّر عنه أفلام "هوليوود" ــ على عهد براءتها الأولى، فهم جميعاً رجال على رسم النجوم أمثال "كلارك جيبل" و"روبرت تيلور" و"جاري كوبر"، وهن نساء على رسم "جريتا جاربو" و"نورما شيرر" و"بيتي دافيز"، وأما الأطفال فكلهم "ميكي روني" (صبي مرح) ــ أو (شيرلي تمبل) (طفلة جميلة).

وبرغم هذه الصورة البرَّاقة فقد كان هناك كلام كثير خصوصاً في أوروبا مؤداه أن المخفي يختلف عن المعلن، وربما من هنا أنني تلك السفرة الأولى إلى الولايات المتحدة ــ قبل نصف قرن ــ وضعت في حقيبتي عدة مراجع لا بد أنها كانت تشير إلى شكوك ساورتني عن العلاقة بين المخفي والمعلن في الشأن الأمريكي.

وأتذكر أن المرجع الرئيسي الذي رحتُ أطالع فيه طول سفرتي الأولى عبر المحيط ــ كتابٌ ذاع شأنه وقتها للكاتب الإنجليزي الشهير "دوجلاس ريد" وكان عنوانه "بعيداً وواسعاً" far and Wide. وما زلت أذكر فصل البداية في الكتاب، وملخصه ما لاحظه "ريد" من أن "كل الأمريكيين يجرون أو يهرولون، واستنتاجه أن بعضهم يحاول الهرب من ماض يخاف أن يلحقه ــ وبعضهم الآخر يحاول الإمساك بفرصة يخاف أن لا يلحقها!"

وعندما أراجع ما نشرته عن تلك السفرة الأولى إلى أمريكا ــ في مجلة "آخر ساعة" ــ وكنت أرأس تحريرها في ذلك الوقت ــ فإني أستطيع الآن أن أتمثل الصورة التي رأيت عليها أمريكا وقتئذ:

○ كتبت تحقيقاً عن الرأسمالية الكبيرة التي تحكم أمريكا، تكرر فيه استشهادي بكتاب "ستين عائلة تحكم أمريكا". وكان ذلك كتاباً أوصاني بقراءته الدكتور "محمود فوزي" مندوب مصر في مجلس الأمن "وقد أصبح الدكتور "فوزي" فيما بعد وزيراً للخارجية، ورئيساً للوزراء، ونائباً لرئيس الجمهورية".

○ وتحقيقاً ثانياً عن "التمييز العنصري" ضد السود في أمريكا، وقد بنيته على زيارة قمت بها إلى الجنوب الأمريكي، وإلى ولاية "لويزيانا" حتى عاصمتها "نيو أورليانز".

○ ثم تحقيقاً ثالثاً وأخيراً عن "الجريمة المنظمة في أمريكا"، وكان موضوعه ذلك الدور الذي تقوم بـه عصـابات "المافيا" في الحياة الأمريكية: في الاقتصادي والمال ــ وفي السياسة بما فيها انتخابات الرئاسة والكونجرس بمجلسيه ــ وحتى في مجالات الفنون بما فيها عاصمة السينما في "هوليوود".

ومع أن تلك كانت ــ وما زالت ــ عناصر مهمة في الحياة الأمريكية، فإنني فيما بعد أدركت أنهـا جـزء مـن الحقيقة الأمريكية، وليست كلها، وأن التركيز عليها وحدها ــ في تلك السفرة الأولى إلى أمريكا ــ كان قصـوراً ــ لعل بعضه جموح شباب!

***

وربما أن جزءاً من هذا الجموح في ذلك الوقت ــ يرجع في بعض منه إلى تأثير صديق كبير كان بالنسـبة لـي أيامها مزيجاً من "مرشد ومعلَّم"، وأقصد الدكتور "محمود عزمي"، وهو واحد من أهمَّ العقول المصرية المفكرة فـي العشرينات والثلاثينات من ذلك القرن العشرين، وكان رائداً من رواد الكتابة الصحفية المتعمقة في قضايا الشـرعية والديمقراطية والتجديد. وكان منذ عاد من بعثته إلى "السوربون" (في باريس) لتدريس القانون في الجامعة المصرية الوليدة (ذلك الوقت) ــ قد انجذب إلى الحياة العامة، وشارك في الحوار النشيط الذي دار طوال العشـرينات حـول الخلافة، والدستور، وحقوق المرأة.. وغيرها.

وكنت قد تعرّفت على الدكتور "محمود عزمي" أواخر الأربعينات، وأصبحت مدعواً كل يوم خميس إذا كنت فـي مصر إلى بيته ــ في حدائق القبة ــ حيث كان يعيش مع زوجته الروسية. وكان بيتهما حافلاً بثلاثة مواضع للجمال قريبة إلى العقل والقلب: كتب التراث العالمي ــ والموسيقى الكلاسيكية ــ وتلك الساعات المليئة بالتأمل والسـكينة أمام مدفأة تتحاور فيها ألسنة النار في ليالي الشتاء الباردة.

ثم كان أن لقيت الدكتور "محمود عزمي" في اليوم التالي لوصولي إلى نيويورك (سنة ١٩٥١) وهو وقتها عضـو في الوفد المصري لدى الأمم المتحدة ــ ثم وجدته ناقداً إلى درجة النقمة على أمريكا وكل ما فيها، والسبب "كـذلك عرفت منه ثم فَهِمت أكثر فيما بعد" أنه رغم عضويته في الوفد المصري إلى الأمم المتحدة ــ رفضـت السـلطات الأمريكية طلب تأشيرة دخول لزوجته "لأنها روسية ــ شيوعية ــ وكانت تلك ــ سنة ١٩٥١ ــ سطوة السـناتور "مكارثي" الشهير ــ الذي نسبت إليه فترة "المكارثية"، وهي اتهام ومطاردة كل شبهة في تحرر أو يسار، واعتبارها انتماء للشيوعية يستوجب البتر والتطهير".

ولم تكن "بوشكا" "كما كان الدكتور "عزمي" يدلِّل زوجته" شيوعية ــ بل على العكس فقد كانت في الواقع روسـية بيضاء من أسرة هاجرت إلى باريس بعد "الثورة البلشفية"، والتقت بزوجها وهي تدرس القـانون ــ مثلـه ــ فـي "السوربون".

"والغريب أن القصر الملكي ــ من أيام الملك "فؤاد" وحتى أيام ابنه الملك "فاروق" ــ كان يعتبر "بوشكا" شيوعية ــ وكذلك فإن الدكتور "عزمي" وجد سقفاً على فرصه في الحياة السياسية المصرية لم يستطع تجاوزه".

لكن "المكارثية" السائدة والحاكمة في أمريكا وقتها "وكذلك قصور الشرق الملكية" لم تفرق بين أن تكون "بوشكا" روسية أو "بلشفية" ـ فقد كانت الواحدة موصولة بالأخرى زمن الاتحاد السوفيتي.

وعند وصولي إلى نيويورك عرفت أن الدكتور "محمود عزمي" يسكن فندق "الباربازون بلازا" المطل على "سنترال بارك". واتصلت به، والتقينا. وفي لقائنا مشينا من فندقه في الشارع السابع إلى ميدان "التيمس" الشهير، وطوال الطريق كان الدكتور "عزمي" ساخطاً على كل ما يرى!

وأتذكر عند وصولنا إلى الميدان الشهير أن الدكتور "محمود عزمي" توقف أمام محل لربطات العنق وقال ما مؤدّاه "أن واجهة المحل وهي تعرض العشرات من ربطات العنق صورة ناطقة بالذوق الأمريكي ـ في تعبيره المباشر عن حال الثقافة الأمريكية".

وفي ذلك الوقت كانت ربطات العنق الأمريكية صاخبة في الألوان والأشكال والرسوم إلى درجة تثير الاندهاش، وما هو أكثر منه أحياناً. وفي تلك الوقفة أمام محل ربطات العنق في ميدان "التيمس" كان الدكتور "عزمي" يشير إلى ربطة عنق بالذات صفراء اللون، في وسطها رسم عين سوداء فقأها دبُّوس حاد فاسال بطولها نقطاً حمراء كأنها قطرات دم. ثم مضى يقول بمزيج من السخرية والاشمئزاز: "تفضّل يا سيدي ـ هذه هي القيم الجمالية للحضارة الجديدة التي يتعين علينا أن نتعامل معها". ثم يضيف الدكتور "عزمي" بلهجته المشهورة وقتها: "ها الله ها الله يا سيدي على الحضارة الجديدة"!

***

ومن الواضح لي ـ بعد زمن طويل ـ أن الدكتور "محمود عزمي" كان له تأثير من نوع ما على نظرتي إلى الولايات المتحدة ـ ذلك أنني بعد أسبوع في نيويورك قصدت إلى "ديترويْت" لرؤية تلك القلعة الصناعية الكبرى "للسيارات"، وكان من حظى بتوصية من الوفد المصري الدائم إلى الأمم المتحدة ـ أنني وجدت نفسي ضيفاً على مائدة غداء مع "هنري فورد" "الثاني"، وهو وقتها رئيس مجلس إدارة شركة "فورد" للسيارات. ويومها كنا خمسة ضيوف على مائدته من جنسيات مختلفة.

ومساء نفس اليوم كتبت من "ديترويت" خطاباً إلى الدكتور "عزمي" في نيويورك" أصف له وقائع الغداء مع "هنري فورد" "الثاني" قائلاً له:

"أنت في نيويورك تشكو مما تراه حولك من تعبيرات الثقافة الأمريكية ـ فما بالك بما هو موجود هنا في الداخل الأمريكي وما عشته بنفسي اليوم في "ديترويت" على مائدة "هنري فورد".

تصور ثلاث ملاحظات قالها الرجل في طرف نصف ساعة ـ وتأمل معانيها "الحضارية!":

- جلسنا مع الرجل بضع دقائق قبل الغداء، ثم دعانا إلى المائدة بقوله: "أظن أننا في حاجة إلى التزود بالوقود"!

- كان الطبق الأول على المائدة حساء "كونسوميه" ساخناً جداً، وأراد مضيفنا أن يشرب بسرعة، وكان لا بد من تبريد الحساء، وهكذا أخذ "فورد" من وعاء في منتصف المائدة قطعة ثلج وضعها في طبق الحساء قائلاً: "هذا أحسن". وراح يشرب.

- وحين فرغنا من الغداء والقهوة، وحان وقت انصرافنا، أشار لنا أن الحمام موجود إذا رأى أحدنا أن يغسل يديه أو أراد شيئاً آخر، لكن إشارته إلى الحمام وردت بأسلوب "جلف" لأنه قال لنا: "إن عادم الطاقة لا بد أن يجد لنفسه مخرجاً!"

ثم قلت للدكتور "عزمي" في نفس الخطاب: "تصور كل هذا الفساد في الذوق والتعبير في نصف ساعة"!

***

هكذا كانت نظرتي الأولى على الولايات المتحدة الأمريكية.

وأحسب ــ بأثر رجعي ــ أنها كانت نظرة مشوبة إما بنوع من العجلة سارعت إلى اتخاذ موقف دون أن يكون لديها ما يكفي من المعرفة ــ أو أنها كانت منحازة مبكراً متأثرة في ذلك بدوافع غير موضوعية. لكنه في تلك الأيام كان يطمئنني أن شعوراً من الحساسية إزاء الأمريكان يتسع ــ حتى في أوروبا ــ في أعقاب الحرب العالمية الثانية. وكان في إنجلترا على سبيل المثال تعبير ذائع يقول "إن العيب في الأمريكان.. أن لديهم أكثر من اللازم من الطعام ــ وأكثر من اللازم في الملبس ــ وأكثر من اللازم في الجنس ــ وأكثر من اللازم في وجودهم هنا" "أي في إنجلترا، وفي أوروبا بعموم".

وكان ذلك يقال في إنجلترا وفي أوروبا، وكان الرد الأمريكي عليه أنه الحقد والحسد لأن أوروبا التي ظنت نفسها ــ بضرائب الدم وتكاليف الدمار ــ صانعة النصر في الحرب العالمية الثانية ــ عرَفت بعد انتهاء المعارك أن الموارد الأمريكية هي صانعة النصر الحقيقي، ثم إن الولايات المتحدة خرجت من وسط العاصفة مالكة لأهم ثروات العالم: نصف ذهبه في خزائنها دخل قلعة "فورث نوكس"، وثلاثة أرباع بترولة امتياز تمسك عقوده في يدها، ومائة في المائة من قوته النووية في ترسانتها.

وكذلك فهو الحقد والحسد من عالم قديم ــ نحو عالم جديد.

ولم تكن أكثر المواقع حساسية تجاه الأمريكان أنهم الأغنى، أو الأقوى، أو الأوفر غذاء وكساء ــ وإنما كان موضع الوجع الحقيقي أن تواجدهم وظهورهم "هنا" "في أوروبا خصوصاً" ــ بدا وجوداً جاء ليقيم ويبقى!

وهنا كان الأمر يختلف هذه المرة في المجيء الأمريكي الأول إلى أوروبا أثناء الحرب العالمية الأولى.

فأمريكا التي شاركت في تلك الحرب ــ وادعت أيضاً أن مواردها صنعت النصر ــ لم تلبث أن سحبت قواتها عبر المحيط من حيث أتت، ولعله إحساسها أن الإمبراطوريات الأوروبية التقليدية "بريطانيا وفرنسا" ما زالت متماسكة بما فيه الكفاية ــ وبالتالي فإزاحتها صعبة ــ وإرثها مؤجلاً بعد!

وأما هذه المرة، بعد الحرب العالمية الثانية ــ فإن القوات الأمريكية التي شاركت في الحرب لم تعد من حيث أتت، بل بقيت في أوروبا، وكانت الإشارات واضحة، وأوّلها أن أمريكا أصبحت على يقين من أن الإمبراطوريات الأوروبية التقليدية لم تعد تستطيع أن تحافظ على أمن دولي أو استقرار.

وفوق ذلك، وهو الأخطر، فإن الإمبراطوريات الأوروبية التقليدية نفسها ــ ذلك الوقت ــ راودها خوف من انسحاب أمريكي يعود إلى الشاطئ الغربي للمحيط الأطلسي، ويتركها وحيدة في القارة الأوروبية أمام جحافل

الجيوش الروسية التي زحفت من الشرق إلى ألمانيا في المعركة الأخيرة ضد "هتلر". وهذه الجحافل الروسية لم تجيء إلى الغرب إعصار نار فقط، وإنما هي تحمل وراء إعصار النار نظرية اجتماعية لها تلك "اللحظة التاريخية" فعل حريق ــ وهي الشيوعية!

هكذا كانت أمريكا تريد أن تبقى في أوروبا ــ ولم تكن تدارى فيما تريد.

ثم إن أوروبا بدورها كانت تخشى أن تبتعد أمريكا كما فعلت مرة من قبل. وعلى أي حال فقد كانت لدى الإمبراطوريات الأوروبية بقايا ثقة بالنفس جعلتها تتصور أن زمانها فيه عمر ــ وأنها ما زالت قوى كبرى مهابة وليست إرثاً ضخماً يجري حصره استعداداً لإجراءات نقل ملكيته!

....

....

وهكذا فإن لقائي الأول السريع مع الولايات المتحدة أخذه جموح الشباب ــ وتأثر أيضاً بما شاع وقتها في أوروبا ــ ومنها إلى غيرها في العالم ــ ثم إنه استعار في بعض مواقفه نظَّارة صديق!

على أن التجارب تعلِّم الناس أن الحقيقة أعقد من نظرة أولى ــ وأكبر من انطباع يشيع في زمن بعينه، له أحواله ومناخه.. وأخطر من مأثورات تنتشر حتى وإن كان فيها الكثير من الصدق، والحكمة المختزلة.

٢ــ حوارات طويلة مع السياسة الأمريكية:

لم يكد يمر عام واحد منذ عبرت المحيط غرباً لأول مرة ــ سائحاً أكثر منى دارساً، ومتفرجاً أكثر منى مشغولاً ــ حتى وجدت نفسي طرفاً نشيطاً في جدل سياسي طويل ومعقد مع السياسة الأمريكية.

ففي يوليو سنة ١٩٥٢ ــ بعد عام واحد بالضبط من النظرة الأولى على أمريكا ــ قامت الثورة في مصر، وكان الخصم الخارجي الطبيعي لهذه الثورة هو بريطانيا "التي تحتل مصر"، وفرنسا "التي تحتل شمال أفريقيا". وفي عملية الفرز الضرورية للأوضاع الدولية ــ ذلك الوقت ــ فقد بدا أنه إذا أراد النظام الجديد في مصر طرفاً عالمياً كبيراً يوازن القوى الإمبراطورية المتمسكة بمواقعها ــ فليس أمامه غير برلين: الولايات المتحدة الأمريكية وهي منافس ظاهر يطلب إرث الإمبراطوريات القديمة ــ والاتحاد السوفيتي وهو عدو زاحف يطلب نفس الشيء وإن بوسائل مختلفة.

وكان البديل السوفيتي في ذلك الوقت مستبعداً لأسباب كثيرة ــ عقائدية وسياسية وثقافية وحتى جغرافية ــ ومن ثم كان البديل الأمريكي هو الخيار المعقول، وربما زكاه أن حساسية الإمبراطورية القديمة تجاه الولايات المتحدة بدت عاملاً مساعداً، أو يمكن أن يكون مساعداً.

وبصداقة خاصة مع "جمال عبد الناصر" نشأت وتوثقت عراها تلك الأيام "وما زالت" ــ وجدت نفسي في صميم سياساته، خصوصاً وهي وقتها "ومازالت" شواغل الوطن وهمومه!

ثم كان أن حضرت محاولته الأولى في مقاربة أمريكا وتشجيعها على دور أقبلت هي أيضاً عليه بحقائق الأشياء في الشرق الأوسط، وكان الأمل ــ تغذيه تصورات مثالية عن "دولة كبرى" لم تتورط بعد في سياسات إمبراطورية

ـ أن الولايات المتحدة أقرب من غيرها إلى فهم تطلعات الشعوب العربية "والآسيوية والأفريقية" ــ والإحساس بأشواقها المشروعة إلى الحرية في عالم يجري بناؤه الآن على أساس مبادئ وميثاق الأمم المتحدة.

وكذلك حضرت لقاءات "جمال عبد الناصر" "وعدد من أعضاء مجلس قيادة الثورة وقتها" مع السفير الأمريكي في مصر تلك الأيام "جيفرسون كافري". وكان "كافري" "الذي عرفته قبلها بظروف العمل الصحفي" ــ واجهة لا تعبر بدقة عن الشخصية الأمريكية، فالرجل أصلاً من عنصر "أنجلوساكسوني" ــ تمتلك أسرته أرضاً شاسعة في الجنوب الأمريكي من قبل الحرب الأهلية، وكان عمله الطويل سفيراً لبلاده في باريس قد جعله ــ إلى جانب أصل "أنجلوساكسوني" ــ أقرب إلى "جنتلمان" من اسكتلندا منه إلى راعي بقر من تكساس ــ أو من لويزيانا!

وفي تلك الأيام "سبتمبر ١٩٥٢" زار مصر نائب وزير الدفاع الأمريكي "ويليام فوستر"، وكان ذلك أعلى مستوى بعثت به الولايات المتحدة إلى مصر في حينه. وتصادف مجيئه مع بداية المفاوضات المصرية ــ البريطانية في طلب الجلاء عن مصر، وكان ذلك شاغل الوطنية المصرية الأول والأكبر. ومع الرغبة المشتركة "مصرية وأمريكية" في إقامة علاقات ود من نوع جديد ومستوى أرقى ــ فإن مصر سألت، وكان السؤال على عشاء أقيم لنائب وزير الدفاع الأمريكي عن إمكانية شراء سلاح أمريكي للجيش المصري. وبدا الزائر في رده مستعداً لقبول الطلب، وفي بعض تعليقاته متحمساً. ومع أن السفير "كافري" الذي كان اللقاء على العشاء في بيته ــ بدا متحفِّظاً ــ فإن الحضور جميعاً، وأولهم "جمال عبد الناصر"، اعتبروا أن "حماسة" نائب وزير الدفاع الأمريكي هي الجواب، وأن ما بدا من تحفظ السفير الأمريكي هو جملة اعتراضية داعيها التحوّط الدبلوماسي الزائد لدى البيروقراطية في أي بلد في العالم!

وكان "كافري" ــ كما أظهرت التجارب ــ على حق. وكان على حق أكثر من مرة:

ــ مرة لأنه كان يعرف مسبقاً أن كلمة نائب وزير الدفاع لا تمثل ارتباطاً أكيداً لحكومته "لأنه يتكلم اجتماعياً على عشاء في بيت سفير لبلاده بعد أن احتسى كأساً من الويسكي، وشدّ أنفاساً من سيجار فاخر ــ كذلك كان تعبير "كافري" بالنص فيما بعد".

ــ ومرة ثانية لأن فترة سبتمبر ١٩٥٢ والشهور التالية لها فترة انتخابات رئاسة أمريكية، والإدارة القائمة التي يمثلها "ويليام فوستر" الضيف الزائر ــ وهي إدارة الرئيس "هاري ترومان" ــ لم يبق لها في السلطة غير ثلاثة شهور انتقالية، والكل واثق مسبقاً أن الجنرال "دوايت أيزنهاور" هو الفائز ــ أي الرئيس القادم ــ بعد الانتخابات في نوفمبر ١٩٥٢.

ــ ومرة ثالثة لأن "كافري" كان يعلم أن الولايات المتحدة لن تتطوع لمصر بأي شيء مقدماً ــ دفعة على الحساب ــ خصوصاً من السلاح. فهي في تقديره "وهو صحيح" تفضل أن تتفاوض وتساوم مع حليفها البريطاني "بصرف النظر عن الهواجس والشكوك" ــ ثم إن الولايات المتحدة إذا أعطت شيئاً لمصر فلن تعطيها سلاحاً يمكن أن يستخدم ضد إسرائيل.

ومرة رابعة لأن "كافري" وهو يعرف سياسية بلاده متأكد أنها لن تعطي إلا بقدر ما تأخذ أولاً ــ فإذا كانت مصر تريد شيئاً فعليها أن تدفع مقدم ثمنه، ولأن أمريكا لا تبحث عن "عربون" مالي من مصر وإنما تبحث عن "عربون" سياسي وإستراتيجي ــ إذن فليست هناك صفقة محتملة في القريب العاجل ــ وربما بعده لأن مصر المطالبة بجلاء الإنجليز "الإمبراطورية القديمة" عنها ليست على استعداد لأن تدفع "عرابين" سياسية وإستراتيجية.

ــ وكان "كافري" على حق ــ مرة خامسة وأخيرة "وذلك شيء لم أعرفه منه إلا بعد اعتزاله الخدمة بسنوات طويلة، وكان قد ذهب ليعيش آخر أيامه ويموت ويدفن في فرنسا" ــ لأنه كان على يقين بأن الولايات المتحدة لن تساعد أي بلد عربي إلا إذا وقع اتفاقية صلح نهائي مع إسرائيل!!

....

لكن "جمال عبد الناصر" أيامها ــ وبعد ثلاثة شهور من الثورة ــ كان أميل إلى تصديق "ويليام فوستر" نائب وزير الدفاع، ولعله حسن النية في السياسة الأمريكية وقتها ــ أو لعلها أمانيه غلبت دلالة موقف "كافري" ــ الذي بدا تحفظه دون شرح أسبابه ــ ثم آثر الصمت حتى انتهى اللقاء، ثم ظهر ذلك وكأنه الأدب الدبلوماسي، بما معناه أن السفير الأمريكي كما تقتضي اللياقة ألزم نفسه بالحدود الفاصلة بين السياسة والدبلوماسية!

ونتيجة لتصديق "ويليام فوستر" استجاب "جمال عبد الناصر" لدعوة وجهتها وزارة الدفاع الأمريكية إلى وفد مصري يزور المنشآت العسكرية في الولايات المتحدة الأمريكية ــ وقد اعتبرها "جمال عبد الناصر" مقدمة تمهد لمفاوضات. وكان أن سافرت بعثة مصرية لهذا الغرض رأسها "قائد الجناح" الطيار "علي صبري" "وكان وقتها مسئولاً في المكتب العسكري لــ "جمال عبد الناصر".

ثم حدث أن "جمال عبد الناصر" طلب مني أن أسافر إلى الولايات المتحدة، بعيداً عن الوفد العسكري، وظنه أنني أستطيع المساعدة على إنجاح مهمة الوفد بصداقات يعرف أنها قائمة بيني وبين عدد من الصحفيين الأمريكيين البارزين وقتها، وكان معظمهم ممن عرفت وزاملت في مهام عديدة عندما كنا جميعاً مراسلين لصحفنا في حروب "البلقان" "الحرب الأهلية في اليونان وما حولها" ــ وفي معارك فلسطين "قبل قيام الدولة اليهودية وبعده" ــ وفي أحداث الثورة الإيرانية "معركة "مصدَّق" وتأميم البترول الإيراني" ــ وفي أزمة الشرق الأوسط "الانقلابات والاغتيالات في سوريا وغيرها" ــ وفي صراعات الشرق الأقصى "كوريا ــ والهند الصينية ــ وفيتنام الأولى ضد فرنسا" ــ وفي غيرها من شواغل تلك الأيام.

وهكذا عبرت المحيط غرباً للمرة الثانية إلى أمريكا، وفي هذه المرة لم أكن زائراً أو متفرجاً، وإنما كنت في مهمة عمل تداخلت فيها السياسة مع الصحافة فقد وجدتها ــ أيضاً ــ فرصة مناسبة لتغطية معركة الرئاسة في مرحلتها النهائية الحاسمة بين الجنرال "دوايت أيزنهاور" عن الحزب الجمهوري ــ وبين منافسه "أدلاي ستيفنسون" عن الحزب الديمقراطي.

وفي ذلك الوقت، وفي إطار هذه المهمة التي تداخلت فيها السياسة مع الصحافة ــ اقتربت من بعض دوائر صنع القرار الرسمي في أمريكا، وضمنها قيادات الحزبين الكبيرين المتنافسين في انتخابات الرئاسة، وعدد من الرجال

النافذين في الإدارة القديمة "ترومان" ونظرائهم القادمين مع الإدارة الجديدة "أيزنهاور" ـ السفراء الكبار في وزارة الخارجية ـ وكذلك مع الجنرالات الأهم في وزارة الدفاع".

ولم يكن من المصادفات أنني وجدت موعداً تحدد لي مع مدير برامج المساعدات الأمريكية العسكرية "وهو وقتها الجنرال "أولمستيد" ـ فالذين قاموا على ترتيب جزء من برنامج اتصالاتي السياسية كانوا بغير شك يعرفون ما فيه الكفاية عن الأسباب المختلفة لقدومي إلى واشنطن.

....

وباختصار فقد كانت تلك الزيارة إطلالة أكثر تدقيقاً وأشد تأنياً في النظر إلى القوة الأمريكية الخارجة إلى المسئولية العالمية الأوسع.

والحاصل أنني عدت ـ عبر المحيط ـ أقل تفاؤلاً مما ذهبت، وعلي شبه يقين بأن مهمة بعثة شراء السلاح في واشنطن "قائد الجناح "علي صبري". ـ مهمة صعبة ـ إن لم تكن مستحيلة ـ وكانت أسبابي وقد تحدثت بها مع "جمال عبد الناصر" مضيفاً إلى رأيي شواهد ما استخلصته، ومنها:

١ـ إن الولايات المتحدة لديها مشروع "حلف عسكري" يقوم في المنطقة بعد جلاء القوات الإمبراطورية "البريطانية والفرنسية" منها. وهناك تلازم بين العمليتين خطوة بخطوة ـ الخروج الأوروبي والدخول الأمريكي. "وذلك سمعته من الجنرال "أولمستيد" وهو يحدثني عن خطة لدى الولايات المتحدة لإقامة "حلف اسلامي" يملأ فراغ المنطقة العسكري بعد جلاء الإمبراطوريات القديمة عنها ـ ثم يكون منه عنصر جذب لعشرات الملايين من المسلمين يعيشون وراء "الستار الحديدي" ـ داخل الاتحاد السوفيتي والصين."

٢ـ إن الولايات المتحدة لن تبيع لمصر سلاحاً تستطيع به محاربة الإنجليز إذا تعطلت مفاوضات الجلاء من منطقة قناة السويس. "وذلك سمعته من الجنرال "جود باستر"، وهو من أركان حرب الرئيس الجمهوري الجديد الجنرال "دوايت إيزنهاور"، وتفصيله أن رئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرشل" "وقتها" اتصل بـ "إيزنهاور" تليفونياً ليقول "إن الحكومة البريطانية تعرف بوجود وفد عسكري مصري في أمريكا يسعى لشراء سلاح، وأن هذا الوفد "يظن أنه يستند إلى وعد رسمي أمريكي"، وأنه ـ أي "تشرشل" ـ لا يتصور أن صديقه الجنرال "أيزنهاور"، وهو القائد العلى لقوات الحلفاء في معركة تحرير أوروبا، يرضى أن يعطى للمصرين سلاحاً يقتلون به جنوداً حاربوا تحت إمرته "إمرة "أيزنهاور" في الحرب المقدسة ضد النازية والفاشية.

وختام ما سمعته من الجنرال "جودباستر" أن "أيزنهاور" تأثر ـ وتعهد لـ "تشرشل" بأنه لن يعطي المصريين طلقة رصاص "على فرض أنه كان في النية أصلاً إعطاء شيء!"

٣ـ إن الولايات المتحدة سوف تحاول تحقيق صلح بين العرب وإسرائيل كمقدمة لمشروعاتها المقبلة في الشرق الأوسط ـ وأنها إذا لم تستطع "بالإقناع" تحقيق هذا الصلح، فسوف تجازف لتحقيقه "بالفرض" مهما اقتضى ذلك من زمن أو من جهد. "وذلك سمعته من "جون أندرسون" ـ وهو واحد من أقرب المعاونين إلى "أيزنهاور" وقد أصبح وزير خزانته ـ وملخصه "أن أيزنهاور قاد حلفاً كبيراً لكل المعسكر الغربي، وهو بتفكيره لا يعرف علاقة مع بلد

واحد، وإنما يعرف علاقة مع أقاليم كاملة "لأننا في عالم جديد لا يعترف بالحدود التقليدية للسيادات الوطنيـــة". وإذا كنا ذلك "فإنك تستطيع أن تدرك أننا لا نريد صراعات داخلية في قلب هذه الأقاليم. وهـــذا يعنـــي أن الصـــراعات الصغيرة يجب أن ترتب نفسها للصراع الأكبر مع الشيوعية الدولية، وتنسى "خناقاتها" المحلية من نوع "الخناقة" بين العرب وإسرائيل ــ وهذا هو شكل المستقبل!"

وقد رويت ذلك كله وأكثر منه لــ "جمال عبد الناصر" عندما حكيت له قصة تجربتي الأمريكية الثانية. والحقيقـــة أنه لم يكن مفاجأً بما قلته، فقد وجدتُه بعد أن غبت عنه قرابة شهرين أو أقل تفاؤلاً، والظاهر أن متابعتـــه لمهمـــة البعثة العسكرية "علي صبري" إلى الولايات المتحدة جعلته أكثر حذراً في "توقعاته" الأمريكية!

**

ومن أوائل الخمسينات وحتى أوائل الثمانينات من القرن العشرين عبرت المحيط غرباً إلى امريكا أربعاً وعشرين مرة، وشاركت في حوارات ومناقشات بلا نهاية "وبلا نتيجة" مع إدارات أمريكية عديدة ومع رجالها مـــن الساســـة ومن العسكريين ــ في البيت الأبيض وإداراته، وفي الكونجرس بمجلسيه، وفي وزارتي الخارجية والـــدفاع، وفـــي هيئة أركان الحرب المشتركة ــ بل وكذلك في وكالة المخابرات المركزية الأمريكية.

وبسرعة واختصار فقد قابلت وتحدثت مع الرئيس "دوايت أيزنهاور" وأبرز أركان إدارته وهو وزيـــر خارجيتـــه "جون فوستر دالاس" ــ وفيما بعد قابلت وتحدثت مع الرئيس "جون كنيدي" وأبرز أركان إدارته، وكانوا مجموعـــة من أكفأ وألمع ما شهد البيت الأبيض، وبينهم وزير الخارجية "دين راسك"، ومستشار الأمن القومي "مـــاك جـــورج باندي"، ووزير الدفاع "روبرت ماكنمارا"، إلى جانب رجال أحاطوا بالرئيس زمانها وأشهرهم المؤرخ الكبير "آرثر شليزنجر" و"إدوارد سورنسون" و"بيير سالنجر" ــ ولم تتح لي الفرصة لمقابلة الرَّجل الذي خلف "جون كنيدي" بعـــد اغتياله، وهو الرئيس "ليندون جونسون"، لكني قابلت أقرب الناس إليه، وبينهم "والت روســـتو" مستشـــاره للأمـــن القومي، وشقيقه "جين روستو" الذي بقى قوة محركة في وزارة الخارجية الأمريكية مع "دين راسك" الذي واصل مع "جونسون" ما أبدأه مع "كنيدي" ــ ثم قابلت "واستضفت في بيتي في القاهرة" الرئيس "ريتشارد نيكسون"، وتحاورت طويلاً معه ومع أركان إدارته، وأهمهم مستشاره للأمن القومي "هنري كيسنجر"، ووزير خارجيتـــه الأول "ويليـــام روجرز" ــ ولم تتح لي الفرصة أن أقابل الرئيس "فورد" الذي خلف "نيكسون" بعد فضيحة "ووترجيت"، لكن إدارته ظلَّت في الواقع هي إدارة "نيكسون" حتى خسر معركة الانتخابات سنة ١٩٧٦ ــ وقابلت وتحاورت مـــع الـــرئيس "جيمي كارتر"، وكبار مساعديه وبينهم مستشاره للأمن القومي "زبجنيو برجينسكي"، ووزير خارجيتـــه "ســـايروس فانس" ــ ولم تتح لي الفرصة أن أقابل الرئيس "رونالد ريجان" ــ لكني لقيت وحاورت أهم أقطاب إدارته وضمنهم "ألكسندر هيج" مستشاره للأمن القومي، و"جورج شولتز" وزير خارجيته.

وفي تلك الفترة كذلك "ما بين أوائل الخمسينات إلى أواخر الثمانينات" قابلت وتحاورت مع غير هؤلاء كثيرين في أمريكا من المفكرين والأدباء "من "كنيث جالبرايت" إلى "نورمان ميلر" ــ ومن رجال الأعمال إلى نجوم هوليـــوود

"من دافيد روكفللر" إلى لاناتيرنر" ــ ومن مسئولي عوالم الأسرار إلى ملوك الإعلام "من "الآن دالاس" أشهر مدير لوكالة المخابرات المركزية ــ إلى "كاترين جراهام" صاحبة مجموعة صحف "واشنطن بوست".

ولقد أضفت إلى ذلك كله قراءات لها بداية وليست لها نهاية، ثم إنها تشعبت بعيداً وواسعاً "على حد تعبير "دوجلاس ريد" في كتابه الشهير".

وبناءً عليه كله فقد أستطيع القول بأنني اقتربت وعاينت وخالطت بنفسي عقل القوة الأمريكية وقلبها، ومع ذلك فقط ظل يراودني إحساس بأن ما عرفته عن الولايات المتحدة ليس كافياً ــ على الأقل ليس كافياً لكي يفسر لي طبيعة السياسة الأمريكية، ومطالبها، ودوافعها، وأساليبها.

ولقد ظننت أن التجربة المباشرة في التعامل مع القوة الأمريكية حسنت معرفتي بحقيقتها، لكني مع ذلك ظللت على يقين بأن ما أعرفه ليس كافياً.

بمعنى أن عبوري الأول للمحيط سنة ١٩٥١ ترك عليّ انطباعاً ــ جاء قاصراً.

ثم إن عبوري الثاني للمحيط سنة ١٩٥٢ ــ ترك لديّ إحساساً بخيبة الأمل.

وتلى ذلك من سنة ١٩٥٣ إلى سنة ١٩٨٦ أربعة وعشرون عبوراً للمحيط إلى الغرب ــ أضافت إليّ بغير شك حصيلتها. لكنه بقي يراودني على نحو أو آخر إحساس بأن ما أعرفه عن أمريكا ما زال دون المطلوب.

ولقد ظننت في بعض الأحيان أنني توصلت بطول الدرس وتتابع التجارب إلى مجموعة من المفاتيح تصورتها مهمة لفهم أمريكا!

وإلى حد ما فقد يكون لهذا الظن بعض ما يبرره.

٣ــ هل تكفى هذه المفاتيح لفهم أمريكا؟

أظنني توصلت بالتجربة والمعاينة، وبالقراءة والدرس، إلى "دستة" مفاتيح حسبتها مطلوبة لفتح بوابات أمريكا، والدخول منها، والبحث وراءها عن الأشياء والأحوال، بما قد يسمح بفهم أو برؤية تعزز فعلاً أو تسند ردَّ الفعل!

ومع أن الظن قد يكون إثماً، فإنني أجازف بعرض المفاتيح التي توصلت إليها ــ تاركاً الحكم لغيري ــ أعلم وأقدر.

*المفتاح الأول:

إن الولايات المتحدة بلد محظوظ: لديه كثير من الجغرافيا وقليل من التاريخ. ومعنى ذلك أن لديه غنى في الموارد بلا حدود، وخفة في أثقال التاريخ وحمولاته لم يتمتع بها غيره، وذلك منحه اطمئناناً إلى وفرة مادية طائلة ــ ثم إنه أعفاه من وساوس تاريخية ينوء بها عديد من الأوطان أو البلدان.

والذاكرة الوطنية للشعوب في بعض الأحيان عبء بمقدار ما هي حافز ــ لكن الهجرة إلى أمريكا كانت مشروطة بالتخلي عن القديم والبدء من جديد لمن يبغون الفرص الطموحة.

وإذا اعتبر هذا الحال فقراً في الإرث أو التراث ــ فإنه كان في نفس اللحظة عوناً على مواجهة المستقبل مفرغاً من العقد والمسئوليات مما يخلفه الإرث أو التراث.

وفي حين أن شعوباً أخرى أرهقتها تجارب القرون "من أول التاريخ" فإن الشعب الأمريكي بدأ مسيرته في الواقع منذ القرن السابع عشر الميلادي، وبالتالي فقط كان أكثر شباباً وأكثر نشاطاً من غيره، فهو في بداية العمر، وعنفوان الصبا "في حين كان غيره في آسيا قرب الشيخوخة ــ وفي أوروبا قرب الكهولة".

وفي حين أن كل الحقائق لها بدايات ومقدمات في فكر عامة الشعوب ــ فإنه فيما يخض الشعب الأمريكي ــ كل الحقائق تبدأ الآن. هنا والآن.

....

[وذلك يذكرني بليلة من الليالي "ليلة ٧ نوفمبر ١٩٧٣ ــ أي بعد اسبوعين اثنين من توقُّف معارك حرب أكتوبر" ــ وتلك ليلة ظلت فيها مؤرقاً حتى الصباح أفكر في وقائع لقاء تم في المساء بين "هنري كيسنجر" وبيني ــ وفي بادأني "كيسنجر" ــ بقوله:

ــ "أريد أن أسمع منك كل ما تريد قوله لي عن الأزمة الحالية في الشرق الأوسط، لكن لي شرطين:

أولاً: لا تحدَّثني عن التاريخ. حدثني عن الواقع الراهن هذه اللحظة ــ لأننا من هنا نبدأ.

وثانياً: حدثني عن مصر وحدها، ولا تقل لي شيئاً عما تسمونه أنتم "الأمة العربية" ــ أعرف أن هناك شعباً في مصر ــ هذه حقيقة ــ ولكن أن هناك أمة عربية فذلك ادِّعاء تقولون به، وهو لم يثبت لي، وبالتالي فلست مستَعداً له!"

[وكان ذلك سبب الأرق ــ ومعه الدهشة ــ لأن ذلك الرجل الذي كان دارساً وأستاذاً للتاريخ ــ لم يعتبر التاريخ لأي شيء. وإنما اعتبر اللحظة الراهنة بداية كل شيء!]

ومع أن ذلك بدا لي مستغرباً، فإنني كنت على يقين أن ذلك الطلب صدر منه عن قناعة لديه بأن "التاريخ بدأ اليوم"!

ومع أني حاولت أن أشرح له أن تلك البداية تلغى الحقوق ــ بل وتهدر القانون. فقط كان منطقه "إننا إذا كنا نريد التعامل مع الماضي فسوف نظل في الماضي، وإذا أردنا المستقبل فأول المطلوب منا أن ننسى" ــ "وبالطبع فقد كان ذلك منطق التجربة الأمريكية أصلاً وأساساً!"]

....

*المفتاح الثاني:

إن الولايات المتحدة لم تنشأ كوطن، وإنما نشأت كموطن. ولم تبدأ كدولة، وإنما بدأ كملجأ. أي أن الولايات المتحدة في واقع الأمر بدأت ونشأ كفضاء مفتوح لكل من يقدر على عبور المحيط أو يضطر لعبوره وإن تنوعت الأسباب: كان هناك المهاجرون والأول من المغامرين ــ ثم لحقهم المنفيّون ممن كنت دول أوروبا راغبة في

التخلص منهم لأسباب سياسية أو أمنية ــ ثم كان هناك الهاربون من الاضطهاد العنصري أو الديني ــ ثم كان هناك الباحثون عن الثروة في بلد تكشف أن موارده بلا حدود من الأرض إلى الماء ــ ومن الفضة إلى الذهب!
ومنذ تمت رحلة "كريستوفر كولمبس" الأولى ــ ثم الثانية ــ كانت الأخبار في العالم القديم عن العالم الجديد أسطورية. فتلك هي "أرض الميعاد" الحقيقة تتسع لكل من يشاء، وفيها ما يحتاج إليه وأكثر، ثم إنها أرض بلا ملوك ــ ولا كنيسة ــ ولا إقطاع ــ ولا قانون ــ ولا بوليس وإنما هي فضاء مفتوح لأي قادر على عبور المحيط، وعلى التعامل مع الحدود القابلة للاتساع والتمدد كل يوم.

....

[وربما أنه من هنا يمكن فهم استعداد السياسة الأمريكية في هذه اللحظة أن تتقدم لأي مشكلة بمقترحات غير محكومة بثوابت، وبمنطق أنه لا ملوك ــ ولا كنيسة ــ ولا إقطاع ــ ولا قانون ــ ولا بوليس ــ وإنما هو فضاء مفتوح!
وكذلك يتوصل رئيس ذكي مثل "بيل كلينتون" إلى أنه من "صالح العرب" أن يتركوا القدس لإسرائيل ــ وإذا كان العرب والمسلمون على تصميمهم بأن "القدس عربية" فإنه في مقدورهم تغيير اسم قرية قريبة "وراء التل" ــ هي "أبو ديس" ــ لتسمى "القدس" ــ وميزتها أنها على بعد كيلو مترات قليلة من القدس الأصلية أمام التل. ثم يضيف إنهم فعلوا كثيراً في أمريكا، فهناك مدن كثيرة في أمريكا اسمها "القدس"، وهناك مدن اسمها "القاهرة" ــ "والإسكندرية" ــ و"بيروت"!]

....

***المفتاح الثالث:**

إن الفضاء المفتوح لا يقبل باي عوائق من أي نوع، سواء في ذلك الطبيعة أو حتى سكانها الأصليون، ذلك أن الطبيعة لا بد لها أن تتسع بما يوافق طموح القادمين بحثاً عن الفرصة، ثم إن السكان الأصليين عليهم أن ينزاحوا وإلا فهم تذكرة دائمة للقادمين الجدد بأن هناك حقوقاً سابقة تعترض حقوقهم اللاحقة، وذلك خلط مادي ومعنوي كبير يجب تسويته ــ وبكل وسيلة متاحة!
وهكذا فإنه بعد النزول الأول على الشواطئ الشرقية للقارة ــ شواطئ الأطلسي عبر أوروبا ــ فإن النفاذ إلى الداخل أصبح معلقاً بما يستطيع الجواد أن يرمح فيه ويستحوذ عليه ويضمّه. ثم إن الأمن في الداخل أصبح مرهوناً بما يستطيع المسدّس أن يسيطر عليه من الفضاء المفتوح، ويخليه ويضمنه.
وكذلك فإنه اذا كانت الغابات والأحراش عائقاً، فإن الغابات والأحراش عليها أن تزول ــ وإذا كان الهنود الحمر وراء التلال والجبال ملاكاً ــ على نحو ما ــ للأرض، فإن هؤلاء الهنود الحمر يتعين أن يختفوا ــ وجوداً وظلاً.

....

....

[وهنا يمكن فهم الرؤية الأمريكية لقضية فلسطين، فالمستوطن اليهودي ليس فقط مهاجراً إلى أرض جديدة، وإنما هو كذلك وبقوة الجواد والمسدس "المجنزرة والمدفع الرشاش هذه المرة" عائد إلى ارض يملك عليها امتيازاً من

قديم "وهذه حجة إضافية يزيد عليها أنه اذا كانت الغابات والأحراش في القارة الأمريكية قابلة للإزالة ـ فإن "الخلاء"! الفلسطيني من باب أولى لا بد من تجهيزه للاستيطان، ثم إن "الفلسطيني" الأصلي "! ـ شأنه شأن الهندي الأحمر ـ عليه أن يختفي وجوداً وظلاً ـ ولم لا؟ إذا لم يكن للحق الأزلي اعتباره قانوني، وإذا لم يكن للحقائق الحية على الأرض قبل المستوطن اليهودي "وقبل المهاجر الأمريكي" اعتبار إنساني وأخلاقي!]

....

....

***المفتاح الرابع:**

إنه إذا كان مطلوباً أخلاء القضاء المفتوح من أي عوائق ـ ومن أي دعاوي سابقة على الادعاء بملكيته بصرف النظر عن أية حقوق سابقة تاريخية، أو إنسانية، أو أخلاقية، أو قانونية ـ فإن السبيل إلى ذلك هو القوة، وقوة السلاح، وقوة السلاح وحدها.

وعندما تتجرد قوة السلاح من كوابح المبادئ والقيم والثقافة ـ مع غياب كافة أنواع الشرعية ـ فإن السلاح يطيح ـ بدون مقدمات، وبغير ضوابط ـ وبالتالي تكون الكلمة الأولى في أي لقاء هي تصويب المسدس، والكلمة الأخيرة هي الضغط على الزناد، وكذلك تتحول القوة في حد ذاتها إلى مصدر للمشروعية، وبها وليس بغيرها يتحول "الإغتصاب" إلى "حيازة" وتتحول "الحيازة" إلى "ملكية" تسن لنفسها قوانين جديدة تتعامل بها الأوضاع المستجدة في تنظيم علاقات الغلبة والسيطرة.

وكان ذلك ما حدث طوال قرنين من الزمان، فقط كان على أرض أمريكا الشمالية ـ وديانها وسهولها ومروجها وجبالها ـ ما يقدر عدده بخمسين مليوناً من الهنود الحمر عندما ظهرت "سانتا ماريا" ـــ سفينة "كريستوفر كولمبوس" ـ تتقدم سفينتين وراءها. ثم ظلت أمريكا الشمالية تسمع طلقات الرصاص، وتلمح من بعيد دخانه، وترى على الأرض بقع دمه، وحين هدأت الضجة تبين أن ذلك الشعب النبيل الذي رفض أن يستسلم للنازلين على شواطئه والزاحفين على أرضه لم يعد باقياً منه غير مليونين أو ثلاثة.

....

....

[وهنا يمكن فهم المنطلق الذي تحاورت به السيدة "مادلين أولبرايت" وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة في مقابلة تليفزيونية "مايو سنة ١٩٩٨":

سئلت "أولبرايت" عن استقالة اثنين من مفوضي الأمم المتحدة مسئولين عن تنسيق برامجها في العراق، وهما "دنيس هاليداي" و"هانزفون سبونيك" ـ كلاهما قدم استقالته لأنه لم يستطع أن يحمل على ضميره وزر وفاة نصف مليون طفل عراقي راحوا ضحية نقص الغذاء والدواء بسبب الحصار الذي تفرضه الولايات المتحدة "باسم الإمم المتحدة" على العراق؟

وردّت "أولبرايت" قائلة للسائل بالحرف: "ربما أنه ثمن غال كما تقول، لكننا نرى أن الهدف الذي نطلبه يساوي ذلك الثمن وأكثر منه"!!]

....

*المفتاح الخامس:

إن الضمير الأمريكي كان يتعين عليه أن يجد مسوغات معنوية ونفسية تبرر له جوانب العنف والقسوة في مغامرته التي بدأها على الشواطئ الأمريكية، ومنها إلى الداخل والوسط، وحتى أقصى الغرب، وهنا تأسس فكر راح يستكمل ويستوفي مطالبه وضروراته حتى تحول إلى مدرسة بأكملها.

وكانت بداية التأسيس من عناصر المهاجرين بسبب الاضطهاد الديني، ومن المفارقات أنه من عندهم ظهرت "نظرية المنفعة" في طبعتها الأمريكية، وفي سياقها الأساسي وخلاصتها:

- إن الله لم يخلق هذه الأرض وما عليها عبثاً، وإنما خلقها لبشر سواهم على مثاله.
- وإذا كان ذلك فإن هؤلاء البشر ــ على مثلا الأله ــ مكلفون بما ينفع الأرض ويحقق عليها كلمة خالقهم.
- وإذا كان نفع الأرض هو هدف البشر فإن الأقدر منهم على النفع هو الأحق بالقيام عليه.
- وإذا كانت هذه الأرض في حوزة الهنود الحمر منذ نشأة الحياة، ولم يقوموا بحقها ــ فإن مشيئة الله تتحقق بأن يحل محلهم من هو أقدر منهم.

وكذلك ظهرت أخلاقيات وقوانين وقواعد "نظرية المنفعة" الأمريكية، ومشى فقهها من بداياته ! ــ إلى نهاياته على أساس انه اذا كان ما هو نافع مطلوباً ــ فإن ما هو نافع بدوره مشروع مهما كانت وسائله ــ وكذلك ينبغي أن يستقر القانون وتصاغ مواده.

....

....

[وهنا يمكن فهم ما يراه العرب وينسبونه أحياناً إلى بلادة في شعور الرأي العام الغربي تجاه اغتصاب فلسطين.

فقد نجحت اسرائيل أن ترسخ لديهم ــ على عكس الحقيقة ــ صورة مؤداها أن فلسطين كانت صحراء جرداء قبل أن ينزل عليها الخصب الصهيوني.

ومالك الأرض الحقيقي ــ والقانوني ــ ليس مالك صك الملكية، وإنما القادر على الأرض أكفأ ــ والممسك بها أقوى ــ ذلك أن الصك ورقة ــ وأما الحق فهو القوة.

وهذه نقطة مركزية تستحق فهماً عربياً أعمق، فالعدل حلم الضعفاء ــ لكن القانون يكتبه الأقوياء.

وغير ذلك الادِّعاء].

....

*المفتاح السادس:

إن كل شيء في أمريكا سهل وميسر، فذلك الوطن الأمريكي الذي أعفى نفسه من أعباء التاريخ القديم، والشرائع السابقة، والتقلصات والتقلبات الدينية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، والحروب والثورات التي صهرت قارات العالم القديم منذ فجر الوعي الإنساني ــ وجد نفسه في وضع لم يتح لوطن من قبل:

-قارة بكامل مواردها فضاءاً مفتوحاً، وقد استطاع المهاجرون أن يملئوا "فراغهاً"، وأن يستولوا على الأرض وما فوقها.

ــ وهؤلاء المهاجرون استطاعوا في قرنين اثنين تأسيس موطن ــ تحول إلى وطن ــ له ثروته المادية، وله فكره المتحرر من القيود، وله طرائقه في الإنتاج والحياة، وله قوانينه ــ بل وله أخلاقه.

-ثم إن هذا الوطن التفت إلى يمينه من خريطة العالم فوجد أوروبا إلى الشرق من الأطلنطي وقد وصلت إلى عصر النهضة، وفاضت فيها الفلسفات والعلوم، والآداب والفنون، والمعارف والثقافية، ومعها تكنولوجيا من نوع مذهل يحل فيه البخار محل عضلات الناس من الأحرار كانوا أو من العبيد "وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت هناك في أوروبا نبوءات مبكرة عن طاقة الكهرباء "وهي سحر قادر على كل شيء!"

ولم يرهق المجتمع الأمريكي نفسه في إعادة اختراع الأشياء!

نظر إلى أوروبا ونقل، وذهب إلى أوروبا واشترى، وعاين ما وجد أمامه واختار ما رآه نافعاً ــ مفيداً ــ أو حلواً. وكان له ما أراد بغير موانع. ولم تكن هناك على الفن والفكر ــ من "شكسبير" و"دانتي" إلى "روسو" و"مونتيسكيو" ــ حقوق ملكية فكرية ــ ولا كانت هناك على موسيقى "بتهوفن" أو "موزار" أو "باخ" أو "فيفالدي" أو غيرهم حقوق أداء علني ــ وكانت كل المخترعات من قوة البخار المحركة إلى قوة العدسات المبصرة، ومن المدافع بعيدة المدى إلى القطارات المسافرة فوق قضبانها حيث تمتد ــ معروضة لمن يشاء في السوق دون شروط تعجيزية من نوع ما تواجهه الدول النامية الآن "وأوله أن تدفع من اللحم الحي ضرائب كل شيء تريد أن تأخذه من العالم، حتى الكتاب، والفكرة، والنغم".

وهكذا أخذت أمريكا من العالم القديم كل ما أرادته دون معاناة أو ألم ــ دون حقوق أو رسوم.

....

....

[وكذلك يمكن فهم تعود الأمريكان على طلب الأشياء ــ مادية ومعنوية، من حقوق الثروات الطبيعية إلى حقوق السيادة الوطنية ــ بلا عناء ــ مقابل ثمن نقدي يدفع، ثم يتم شحن البضاعة!

وذلك بالضبط ــ على سبيل المثال ــ ما جرى في صفقة شراء الرئيس الصربي السابق "سلوبودان ميلوسوفيتش"، وكانت الصفقة بيعاً وشراء ــ تسليماً وتسلّماً ــ قيمها بليون دولار. والغريب أن الولايات المتحدة رتَّبت دفعها قسمة مع آخرين:

445 مليون دولار يدفعها الاتحاد الأوروبي.

200 مليون دولار يدفعها أطراف دوليون مختلفون منهم سويسرا واليابان.

150 مليون دولار يدفعها البنك الدولي.

وأما الولايات المتحدة الأمريكية نفسها فقد كان نصيبها النقدي في الصفقة ١٨٢ مليون دولار ــ لكن الصفقة جرت تحت إشرافها وإدارتها!]

....

***المفتاح السابع:**

إن التجربة الأمريكية جاءت بسابقة مغايرة لما كان قبلها في التاريخ. فالعادة أن الأوطان تظهر مع ظهور الدول فيها، داخل رقعة محددة من الأرض لها أطراف وحدود وتضاريس طبيعية تحول موطن أي مجتمع إنساني إلى وعاء مستقل بذاته وصفاته ــ ومن ثم تمهد لظهور سلطة فيه ترسم حدود الدولة وتشهر قيامها.

في أمريكا اختلف الأمر. تأخرت الدولة كثيراً عن الظهور، وإن تناثرت على سطح القارة بؤر استيطان وعمران مكشوفة راحت حتى عصور متأخرة "القرن السابع عشر والثامن عشر" تدافع عن نفسها بوسائل ابتدعتها من إنشاء شركات إلى إنشاء ميليشيات. ولما كانت الهجرة إلى أمريكا مستجدة، والثروات وفيرة، فإن الدول الأوروبية تدافعت، وراح ملوكها يبسطون حمايتهم على مساحات تفوق حجم ممالكهم الأصلية، وكذلك كانت سيادتهم رمزية.

لكن المجتمعات الاستيطانية الجديدة في أمريكا رأت لنفسها مصالح مختلفة عن مصالح هؤلاء الذين رأوا الفراغ الناشئ عن وجود "دولة أمريكية" وتقدموا لملئه ــ وهنا ظهرت حركة الاستقلال الأمريكية يقودها "جورج واشنطن"، وكانت بدورها معركة سهلة، وذلك أن السيادات الملكية الأوروبية كانت رمزية، ثم إن المجتمعات الاستيطانية الجديدة في أمريكا كبرت واتصلت، واشتدت حاجتها إلى دولة وطنية تحفظ لها مصالحها المتميزة عن غيرها، وتكفل للجميع أمناً مشتركاً. وكذلك اتحدت الولايات، أو بعضها، في حرب لطلب الاستقلال ــ ثم تقاتلت الولايات مع بعضها في حرب لطلب الوحدة ــ ثم توصلت التجربة إلى شكل الدولة الاتحادية ــ يقوم عليها مركز قوى يملكه الجميع ــ وحقوق متساوية تمارسها الولايات دون وصاية من المركز. وفي ذلك كله كان الوطن الأمريكي يتوسع من الشرق إلى الغرب، والمدهش أن "الفتح" لم يجر بالسلاح في بعض الأحيان، وانما جرى بالشراء: جزيرة "مانهاتن" وعليها "نيويورك" جرى شراؤها مرتين "زعيم هندي أحمر باعها إلى شركة هولندية ــ وبعدها بعشرات السنين باعتها الشركة الهولندية إلى الولاية الأمريكية". ولاية كاليفورنيا" ــ صفقة بالبيع والشراء من اسبانيا "لويزيانا" صفقة مع فرنسا.

....

[كذلك عرفت التجربة السياسية الأمريكية نفوذاً يتوسع بالبيع والشراء، وبالخصم وبالتقسيط!

وربما هنا فإنه يمكن فهم ذلك الشعور الجازم في الكونجرس الأمريكي "بأننا اشترينا السلام في الشرق الأوسط بحمزة مساعدات أمريكية ملحقة باتفاقية كامب دافيد بين مصر وإسرائيل، واسمها الرسمي هو "جائزة السلام" ــ وقيمتها خمسة بلايين دولار سنوياً ــ تقسم بنسبة أكثر من ثلاثة لإسرائيل وأقل من اثنين لمصر ــ ومدة الجائزة عشرون سنة قابلة للتجديد "حتى يستقرب ويترسخ السلام!"]

....

***المفتاح الثامن:**

إن الدولة الأمريكية ظهرت في وقت احتدمت فيه الصراعات والثورات في أوروبا. فقد كان ذلك زمن قطع رقاب الملوك في إنجلترا وفي فرنسا ــ وزمن الحروب بين الإمبراطوريات التي اشتد غضبها ونقص دخلها بعد أن فقدت ممتلكاتها الأمريكية، وزادت عليها تكاليف السباق الاستعماري إلى آسيا وفيما بعد إلى أفريقيا.

وفي تلك اللحظة الحرجة من تاريخ الإمبراطوريات فإن زعيم وقائد الاستقلال الأمريكي: "جورج واشنطن"، قدم لوطنه وصيته الأهم وهي "الابتعاد تماماً عن صراعات القارة الأوروبية التي لا تعني أمريكا، ولا تهمها، ولا يصيبها منها إلا الضرر".

وكانت وجهة نظر "جورج واشنطن" ان الصراعات الأوروبية بحور دمٍ لها منابع دم بعيدة غائرة في الزمن، وذلك كله حدث قبل ان تولد أمريكا لكن حدوثه الآن يعطي لأمريكا ميزة لأن التهاء أوروبا في حروبها السياسية والدينية والاقتصادية والاستعمارية يكفل للدولة الأمريكية المستقلة فترة كافية تدعم فيها وحدتها بصهر عناصر الهجرة اليها "باللغة والثقافة الجديدة" حتى تذوب وتتوحد مصالحها، وذلك يمكنها من صنع وطن ودولة ــ بل وأمة إذا توصلت عملية الصهر دون تدخلات من الخارج.

وإذا كانت وصية "واشنطن" صحيحة، وقد كان كذلك في زمانها، فإن ابتعاد أمريكا عن الصراعات الأوروبية كان لها ملحق ضروري هو تصفية بقايا الجيوب الأوروبية في أمريكا الشمالية، وتخليص ولايات الإتحاد وما حولها من قبضة الإمبراطوريات البائدة ــ وهنا جاءت الحرب مع البرتغال ومع إسبانيا.

....

[ومن غرائب التاريخ المصري أن آخر ملوك المكسيك وهو الإمبراطور "ماكسيميليان" ــ طلب قوات تساعده في تمكين ملكه، وتطوع لمساعدته خديو مصر "سعيد" باشا، ثم "اسماعيل" باشا وكلاهما أرسل لـ "ماكسيميليان" حملة عسكرية مصرية تفاوتت التقديرات في شأنها ــ فمن التقدير يقول إنها عشرة آلاف جندي مصري، إلى تقدير يصل بهذا الرقم إلا أضعافه ــ وبالفعل فقد ذهب مجندون مصريون ــ فلاحون بالسخرة ــ بالألوف جيشاً مهدى بلا مقابل من خديو مصر إلى إمبراطور المكسيك ولم يظهر لهؤلاء الآلاف فيما بعد عدد ــ ولا أثر!]

....

وفي كل الأحوال فإن الدولة الأمريكية الناشئة تطبيقاً لوصية "جورج واشنطن" قامت بتصفية كل الجيوب الأوروبية في أمريكا الشمالية.

وأكثر من ذلك فأنها انتهزت فرصة الفوضى الأوروبية طوال القرن التاسع عشر ثم أعلنت إن خط المياه وسط المحيط هو حدود سلامتها وحمايتها من صراعات العالم القديم، وأصبح ذلك الخط وفقاً لـ "مبدأ مونرو" "١٨٢٣" هو خط الأمن الأمريكي.

....

[هكذا عرفت الولايات المتحدة ومارست مبكراً "حدود سيادة" على أرض القارة الأمريكية ــ ثم رسمت لنفسها "حدود أمن" وصلت إلى منتصف المحيط ــ وذلك ما أخذته اسرائيل فيما بعد ومارسته معتبرة أنه اذا كان خط

حدودها هو كل فلسطين، فإن خط أمنها واصل ــ طبقاً لــ "آرييل شارون" ــ إلــى إيــران وباكســتان وجنــوب السودان. وبالطبع فإن الولايات المتحدة تتفهم ــ بوعي التجربة، وحتى دون ضرورة الاعتراف العلني الآن!]

....

***المفتاح التاسع:**

إن الولايات المتحدة حين استكملت توسعها إلى الغرب وتملكت "كاليفورنيا" و"تكساس" ــ وجدت نفسها في موقــع فريد مؤدّاه إن المحيطات نفسها: الأطلسي شرقاً، والهادئ غرباً، ــ هي بذاتها حواجز الأمن الضامنة له.

فهذه المساحات الشاسعة من الماء، وهذه الجبال العالية من الموج، عصيّة على أي جيش غازٍ حتى بعــد ظهــور وتقدم الطيران. وفي أسوأ الأحول فإن أي جيش غاز لا يستطيع أن ينقض على أمريكا مفاجأة، كما تفعل الجيــوش الألمانية مع فرنسا مثلاً أو مع روسيا.

هكذا ظهر في التاريخ لأول مرة وطن تضمن الطبيعة ذاتها أمنه وتعفيه من أي تهديد خارجي، وكان ذلك حــدثاً في الفكر الاستراتيجي مستجدّاً بالكامل، لم يخطر على بال "فرعــون" مثــل "رمســيس" الثــاني، ولا غــاز مثــل "الإسكندر"، ولا إمبراطور مثل "نابليون"، ولا مفكر عسكري مثل "كلاوزفيتز".

وطن ضخم غني بموارده، فادح في ثرواته ــ ومع ذلك فهو غير معرض لتهديد من أي نوع (حتى ظهر عصر الصواريخ في أواخر القرن العشرين).

....

[وربما إنه يمكن فهم مشروع الدفاع الاستراتيجي بالصواريخ المضادة ــ وهو المشروع الذي تقوم الدنيا وتقعــد الآن تصدياً له ــ فهماً أعمق إذا جرى النظر إليه على أساس أنه استمرار الإستراتيجية "عازل" المحيطين "الأطلسي والهادئ" ــ وهو "العازل" الحامي للأمن الأمريكي. فمشروع الصواريخ المضادة للصواريخ يكفل إلا ينفذ في سماء المحيطين تهديد ــ صاروخي ــ يصل إلى الولايات المتحدة. وكان ذلك ــ من وجهة نظر السياســة الأمريكيــة ــ أفضل، لأنه يقفل الباب على سباق في الأسلحة النووية تبارت فيه دول كثيرة وفّرت لنفسها إمكانياته. ومن المنطقة إنه إذا استطاع طرف إلغاء سلاح طرف آخر فإنه يضمن النصر. وبما ان الولايات المتحدة سابقة ــ بتجربة النجوم أيام "ريجان" ــ فإن الصورايخ المضادة للصواريخ تكفل لها موقع القلعة المنيعة لا يصل اليها تهديد. هذا مع الأخذ في الحساب "وتلك نقطة جديرة بالاعتبار" أن الصواريخ المضادة للصواريخ كفيلة بإلغاء فاعليــة كــل الترســانات النووية التي تملكها ــ ولا تملك غيرها الآن ــ روسيا ــ وتلك الترسانات التي تملكها بلاد كانت تنتمي إلى الاتحاد السوفيتي سابقاً مثل أوكرانيا ــ وفوق ذلك تلك الترسانات التي تملكها دول صــديقة فــي الغــرب الآن "بريطانيــا وفرنسا" ــ وذلك من باب الاحتياط ليوم تتغير فيه الأجواء وتختلف ــ وكله جائز!

وهكذا فإن الولايات المتحدة في دفاعها عن نفسها لا تتسابق مع طرف، وإنما هي تمنع كل الأطراف مرة واحدة!]

....

***المفتاح العاشر:**

إن قوة الولايات المتحدة ــ المجتمع والدولة ــ عندما نمت وزادت وتراكمت، أصبح عليها أن تخرج من عزلتها وأن تتوسع بالمصالح والنفوذ إمبراطورياً، وتلك طبائع الأشياء بعد قوة الأشياء.

لكنه كان لافتاً أن أمريكا شاركت في الحربين العالميتين الأولى والثانية بغير نظرية أمن!

وكانت تلك أول إمبراطورية في التاريخ لديها نظرية مصالح ــ وليس نظرية أمن ــ ذلك أنه في غياب "التهديد" لا يوجد مطلب "أمن".

وعلى سبيل المثال فإنه خلال حربين عالميتين، لم تكن الولايات المتحدة الأمريكية في أي وقت معرضة لغزو، ولا كانت مدينة من مدنها مكشوفة أمام طيران مغير.

وفي اوروبا مثلاً ضربت كل العواصم، بل واحتل معظمها: باريس ــ روما ــ اثينا ــ فيينا ــ وارسو ــ براج ــ برلين ــ وفوقها نصف موسكو على الأقل. ونفس الشيء عواصم آسيا، وفي مقدمتها طوكيو وبكين وسنغافورة.

لكن نيويورك وبوسطن وواشنطن وشيكاجو ولوس أنجلوس وسان فرانسيسكو ونيو أورليانز ظلت طوال سنوات الحرب تمارس حياتها العادية، ولا يشغلها خطرا أو مظنّة خطر. يلفت النظر أكثر في غلبة "نظرية مصلحة" وغياب "نظرية أمن" أن الولايات المتحدة الأمريكية اتخذت قرارها بدخول الحربين العالميتين بناءً على حسابات هادئة باردة تجري تقديراتها من بعيد، وتدقق وتختار لحظتها المناسبة، وحين تكون الضرائب أقل والفوائد أكثر.

○ في الحرب العالمية الأولى ظلت الولايات المتحدة تتابع ما يجري على المسرح الأوروبي ــ ثم قررت الدخول سنة ١٩١٧ ــ وكانت نهاية الحرب سنة ١٩١٨.

○ وفي الحرب العالمية الثانية ظلت الولايات المتحدة تنتظر حتى بعثر "هتلر" جيوشه في القارة الأوروبية وشمال أفريقيا، وأكثر من ذلك تورط في بحر الثلج الروسي بغزوه للاتحاد السوفيتي أول أغسطس سنة ١٩٤١. وبعد خمسة شهور، وعلى استحياء بعد الغارة اليابانية الشهيرة على الأسطول الأمريكي في "بيرل هاربور" ــ دخلت أمريكا الحرب العالمية الثانية يوم ٧ ديسمبر ١٩٤١ ــ وكانت هزيمة جيوش المحور في ذلك الوقت محققة ــ شبه مضمونة تقريباً.

....

[وكان دخول الولايات المتحدة إلى حرب إرث الإمبراطوريات القديمة تطبيقاً رائعاً لإستراتيجية كان يمارسها القرصان الشهير الكابتن "مورجان" "في القرن السابع عشر" ــ وكان الكابتن "مورجان" يرى أن "القرصان العظيم" هو ذلك الذي يهاجم "القراصنة الصغار" العائدين بغنائمهم من مهاجمة السفن المتناثرة في البحار، أو الراجعين بعد الغارات على الموانئ المصدرة للذهب في البحر الكاريبي. كان رأيه ترك "القراصنة الصغار" يقومون بالعمل القذر، ثم الاستفراد بهم وهم محملون إلى الحافة بالغنائم. وكذلك فعلت الولايات المتحدة. فهي لم تذهب لتستولي على المستعمرات واحدة بعد واحدة، وإنما انتظرت لترث الإمبراطوريات. كذلك استراتيجية الكابتن "مورجان" "وهو الأصل والأساس في عائلة "مورجان" المهاجرة من مقاطعة "ويلز" الإنجليزية، والتي ملكت ولا تزال بعضاً من أكبر البنوك والمؤسسات المالية الأمريكية".]

....

***المفتاح الحادي عشر:**

إنه إذا لم تكن للولايات المتحدة "نظرية أمن قومي" لغياب تهديد يمس الوطن حدوداً وعمقاً ــ كما هو شأن أوطان العالم ودوله ــ وإذا كانت للولايات المتحدة "نظرية مصالح قومية" فقط ــ فإن هذه مقدمة تترتب عليها نتيجة شديدة الأهمية، بعيدة الأثر، وتلك هي غياب "الوطنية" بالمعنى المتعارف عليه في أوطان أخرى وتواريخ مختلفة. ذلك أن حيوية الوطنية في بلد من البلدان في أي مكان وزمان هي نتيجة لتهديد مباشر يمس هويته أو أرضه أو استقلاله. أي أن التهديد أو احتمال التهديد هو الذي يخلق ردّه الفعل والمقاومة، وتلك شرارة الوطنية. وأما إذا كانت المشكلة طلب المصلحة، وليس رد التهديد ــ فإن المصلحة لها دواع وحوافز ومحرّكات من نوع مختلف لا يعرف الصمود إلى النفس الأخير ــ ولا الاستعداد للتضحية ــ ولا القبول بالشهادة.

وربما أن ذلك هو التفسير المقنع للحقائق الظاهرة ــ والمؤثرة ــ على السياسة الأمريكية، خلافاً لدول كبرى وإمبراطوريات سبقت في التاريخ.

ــ الشعور بالطمأنينة، والرغبة في متابعة صراعات الآخرين أو حتى إدارتها من بعد.

ــ الدخول في المعارك عندما تميل الموازين إلى الرجحان، ويفوت وقت التضحيات الكبرى، ويحين وقت تقسيم الغنائم الكبيرة.

ــ التردد في مواجهة الموت لأن الدفاع عن المصالح ــ خلافاً للدفاع عن الأوطان ــ لا يعرف الصمود والتضحية والقبول بالشهادة ــ لأنه إذا كانت المسألة مصالح فالكل يريد أن يعيش حتى تتحقق المصالح، وليس لديه استعداد دون حافز يسابق به إلى الموت ثم يفوز غيره بالجائزة.

....

....

[ولعل ذلك يفسر عقدة فيتنام حتى الآن في الولايات المتحدة. ومن المفارقات أنها الحرب الوحيدة الفكرية، أو المبدئية، أو العقائدية ــ التي دخلتها الولايات المتحدة الأمريكية في تاريخها وخسرتها ــ لأنها نوع من الحروب لا تعرفه أمريكا ولا تمارسه، وهي من الأصل لم تؤمن به لأن الظروف لم تلجئها إلى هذا الإيمان!

ثم إن ذلك أيضاً هو التفسير المعقول لكون شاب متهرب من خدمة العلم، وهو "بيل كلينتون"، أصبح رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية رغم أن تهربه من الخدمة كان معروفاً ومشهوداً!]

....

....

***المفتاح الثاني عشر:**

إنه ذا كان ذلك كله صحيحاً ــ وهو كذلك في الغالب ــ إذن فإن "نظرية المصالح" لا بد أن تجد لها في ممارسة الصراعات وسائل أخرى لا تحتاج إلى الصمود ــ ولا تنتظر التضحية ــ ولا تلاقي الشهادة.

ومعنى ذلك أن عليها أن تمارس صراعاتها أو حروبها بوسائل مبتكرة، أهمها أن تكون المعارك عن بعد، وأن يتحقق النصر بغير دم أمريكي، لأن الدم الأمريكي قد يسيل ــ إذا سال ــ دفاعاً عن وطن وليس دفاعاً عن مصلحة! "وهنا فسوف يكون السؤال باستمرار: أي مصلحة؟ ثم مصلحة من؟ وأين الغنيمة في النهاية؟"

هكذا ظهرت ومورست استراتيجية "مصالح أمريكية" راحت ترسم خططها، وتجري تحركاتها خطوة بعد خطوة!

○ وكانت البداية الافتتاحية للإستراتيجية العالمية للولايات المتحدة سفناً تستكشف الشواطئ حاملة منتجاتاً وسلعاً "عبر الأطلسي نحو شمال أفريقيا على طول شاطئها من الدار البيضاء إلى الإسكندرية من أواخر القرن الثامن عشر".

○ والخطوة الثانية بعثات تبشيرية تنادي بنقاء ديني لا تؤثر عليه صراعات الكنائس والملوك في أوروبا "تواصلت هذه البعثات التبشيرية الأمريكية طوال القرن التاسع عشر ــ من أعماق الصين إلى أعماق صعيد مصر".

○ بعد البعثات التبشيرية، وامتداداً لها، بعثات تعليمية "وكذلك ظهرت طوال القرن العشرين جامعات أمريكية يستحق بعضها الاعتراف له ــ مهما كانت الأسباب الداعية إليه ــ بأن نتائجه ساعدت على كثير من التنوير ــ خصوصاً في بيروت والقاهرة".

○ بتدبير ــ أو من غير تدبير ــ إعلام قوى خصوصاً بالصور، وبالذات بعد ظهور السينما، ينقل إلى الدنيا نوعاً آخر من الحياة الجذابة، وأصبحت قلعته "هوليوود".

○ نداء مستمر إلى أكبر عقول العالم في كل التخصصات لكي تذهب إلى إمريكا، بغواية أنه هناك وليس هنا يوجد المجال الحقيقي لهذه العقول لتعمل وتبدع وتطل على العالم من أوسع نوافذه، وتعود إليه من أوسع أبوابه "وتلك حرب استنزاف تأخذ من بقية العالم قدراته الخلاّقة".

○ مخابرات لم يعرف العالم مثيلاً لوسائلها ومواردها، لأن المطلوب منها أن تلمح أي عائق يعترض المصالح الأمريكية ــ ثم تتكفل بالقضاء عليه "بالانقلابات من الداخل" قبل أن يستفحل ضرره. والمخابرات الأمريكية لا تنشط ضد العدو فقط ــ بل ضد الصديق مع العدو "وكانت العملية "إيشلون" ــ ولا تزال ــ تركِّز همها للتجسس على أسواق لندن وباريس وبرلين ــ فأسرار الشركات في هذه العواصم أكثر أهمية من أسرار الحكومات".

○ العمل على تطوير أسلحة متقدمة تدخل للقتال إذا فرضته الظروف ــ على أن يكون القتال من بعيد ــ ثم يدور ويحقق كامل أهدافه بغير دم أمريكي قدر ما هو ممكن.

○ وفى تطوير هذه الأسلحة المتقدمة ــ بعيدة المدى ــ فإن الإمكانيات الأمريكية تقدر على تحقيق سبق تتقطع أنفاس الآخرين دونه ثم لا يبلغونه، ويكتشفون بعد فوات الأوان أنه كان سباقاً إلى الإفلاس.

○ وفي أثناء ذلك كله وخلاله ــ وقبله وبعده ــ سيطرة على الموارد الرئيسية للعالم كله عن طريق شبكة مصالح معقدة تتولى حماية الموارد البحرية ــ وتأمين الأجواء ــ وتكفل وجود محطات محلية ومأمونة لتقويم على حماية

المصالح "شرطة إقليمية" وهي محطات يمكن تزويدها بالسلاح وبالمال وبالخبرة دون داعٍ لوجود أمريكي مباشر في ساحات الصراع "وإسرائيل هي النموذج الأشهر".

○ ترويج لأسلوب حياة معين هو أسلوب الحياة الأمريكية، وإذا كانت أمريكا لم تنتج ثقافة تصاحب القوة وتثبتها، فإنها تستطيع أن تغري العالم بأسلوب ابتدعته، والمنطق فيه أنه "إذا تصرف الناس على مثالك في حياتهم، واستعملوا مفرداتك في خطابهم ــ إذن فقد قبلوا رسالتك طواعية" ــ وذلك أكفأ أنواع التأثير ــ وبعد ذلك فهي الحركة السريعة، والطعام السريع، والصور السريعة، وحتى الملابس السريعة توضع وتخلع في طرفة عين!

**

وكانت تلك المفاتيح ــ دستة مفاتيح ــ حصيلة نصف قرن تقريباً ــ تكرر فيه عبور المحيط أربعة وعشرين مرة، ولعلها أفادت من حقيقة أن العالم العربي كان الساحة الأهم لمطالب الإستراتيجية الأمريكية ــ ومع ذلك ظل وحتى النهاية يظهر لي، وكان ما لدى محصور كله في مجال التوصيف لم ينفذ بعد في مجال التحليل.

فهي إذن معرفة ناقصة مهما كانت مساحة الزمن الذي توفر لها، ومهما بلغت درجة الجهد الذي بذل فيها، وضمنه عبور المحيط أربعاً وعشرين مرة، وكلام، وحوارات، واتصالات "ومفاوضات في بعض المرات".

4ــ مشاهد الهجرة الإمبراطورية:

عبوران للمحيط في البداية للاستكشاف، اربعة وعشرون فيما بعد، ثم عبور لثلاث مرات حكمتها مقولة أنه "لا أحد يستطيع مقاطعة أمريكا". والمجموع كله تسعة وعشرون عبوراً.

وهذه المرة الأخيرة ــ نهاية الربيع وبداية الصيف في سنة ٢٠٠١ ــ وقد وقعت بالمصادفة البحتة على كتاب لفت نظري عنوانه ــ وراجعت فهرسه، وأخذته معي، ومررت على فصوله في ساعة، ثم توافرت على قراءته تفصيلاً وتدقيقاً في بضع ساعات، وكان شعوري أن الكتاب يطرح على قارئه طريقة معينة في تحليل أمريكا ــ وليس مجرد توصيفها، مع وجود تداخل بالطبع بين التحليل والتوصيف.

وتوافق وصول الكتاب إليّ مع لحظة تزايد فيها إحساسي بأن هذا البلد يحتاج ألى من يغوص فيه عمقاً ليبحث عن البذور والجذور، وينظر في التركيب النفسي لهذه القوة الجديدة التي نمت تحت سمع الدنيا وبصرها، ولم تكن مثل غيرها من القوى التي نشأت في أعماق الماضي، وقرونه الغابرة التي تباعد عنها الزمن، بحيث شحبت الوقائع وخفتت الأصوات.

وكانت الإمبراطورية الأمريكية ظاهرة مختلفة ــ فقد نشأت تحت سمع وبصر عالم دخل عصر النهضة بكل وسائله وأدواته المعرفية، وتحت متابعة ورقابة القوى الإمبراطورية التي تحكمت اقتصادياً وسياسياً من معقلها الأوروبي ــ في قارات العالم القديم، وخصوصاً آسيا وافريقيا ــ ومع ذلك فإن المسعى الإمبراطوري الأمريكي استطاع أن يغافل الجميع ويسبق، ويأخذ من الإمبراطوريات القديمة ما عندها ويضيف عليه، ويتملك ويحتكر في سنوات. وبينما كانت الإمبراطوريات القديمة ما زالت تتوهم أن مقادير العالم في يدها ــ إذا أمريكا فجأة وفي أقل

من نصف قرن "وتلك طرفة عين في التاريخ" تزيح الجميع وتسيطر، حتى وإن جاءت سيطرتها قليلة الحكمة، ثقيلة اليد، لا تدرك أن الإمبراطورية فن، وأن القوة وحدها حماقة!

....

والشاهد أن الكتاب الذي تحدَّث عنه عنوانه يمكن ترجمته بـ "العملاق"، أو بـ "المارد"، أو بـ "الطود"، واي وصف غير ذلك يفيد معنى زيادة الحجم، مترافقة مع زيادة القوة، والعنوان هو Colossus ـ وقد صدر سنة ٢٠٠١ في نيويورك، وهو في ٥٠٦ صفحات على ٣٨ فصلاً، وشارك في وضعه أكثر من ثلاثين مؤلفاً، قام بعضهم على كتابة أكثر من فصل فيه، وقصدُهم أن يكون نظرة بالعمق على نشأة الدولة والقوة الأمريكية. ومن جانبي فقد أحسست طوال قراءة الكتاب أنني أمام عملية تحليل نفسي دقيق ـ مضيء وكاشف للتجربة الأمريكية. واللافت للنظر في فصول الكتاب أن مؤلفيه على اختلاف مواضع اهتمامهم توافقوا فيما بينهم على أسلوب يستخدم التوثيق الاجتماعي الذي تكمن أهميته في خلوه من الأسرار والخبايا، وفي أنه يرجع إلى مصادر أتيحت لكل الناس، ولم يتوقفوا طويلاً عندها لأنها من مشاهد حياة كل يوم، وفي ذلك ينسى الكثيرون أن مشاهد حياة كل يوم هي المسودّة الأولى للتاريخ بأكثر من الأوراق المحفوظة في الخزائن تحت الأقفال والأختام!

والمشاهد التي توقف أمامها المؤلفون كثيرة، وكلها أشبه ما تكون بطبقات، فوقها طبقات، وتحتها طبقات، وتكاد كل واحدة منها أن تكون قناعاً ينزاح فتسفر وراءه لمحة من وجه الحقيقة التي صنعت التركيبة النفسية للقوة الأهم في التاريخ وفي الدنيا:

***مشهد:**

إن المهاجرين الأول إلى أمريكا أذهلهم ما وجدوه من ثراء مكدس لا يخطر على البال، وأبلغ تصوير لذهول المهاجرين الأول يرد في حوار مشهد مسرحي لرواية عرضت ـ سنة ١٦٠٥ ـ في لندن على "المسرح الشرقي"، وعنوانها فرجينيا: فردوس العالم الفريد" ـ والإشارة واضحة إلى أقاليم "ولاية" فرجينيا، وكانت من أول مواطن الهجرة إلى أمريكا، وأصبحت أشهرها، والسبب كما يرد في سياق المسرحية يظهر في حوار بين اثنين من أبطالها، أحدهما كان اسمه "سكابتريست" والثاني "سيجال" ـ والحوار يجري على النحو التالي:

"سكابتريست: ولكن قل لي يا كابتن.. هل الكنوز وفيرة على هذا النحو هناك كما سمعت؟

سيجال: اسمعني أقول لك. الذهب هناك أكثر من النحاس هنا. الذهب بالأكوام حيثما نظرت. كل الأواني من الذهب. كل شيء .. كل شيء مصنوع من الذهب حتى سلاسل الأسرى. وأما المجوهرات فهي منثورة حيثما أدرت البصر، حتى على ملابس الأطفال هناك، مرصعة بياقوت وزمرد يخطف بصرك إذا التفت إليهم!"

***مشهد:**

يكتشف المهاجرون الأول ــ حتى في فيرجينيا ــ أن الموارد الطبيعية لها قيمة تستطيع إنتاج ثراء يفوق كل ما يلمع من ذهب سلاسل الأسرى، وياقوت وزمرد ملابس الأطفال ــ ثم إن الجهد المطلوب لتحقيق هذا الثراء بسيط، وان كان يحتاج بسرعة إلى رأس مال يتمثل في أدوات للزراعة، وللبناء، ولتمهيد الطرق، وكلها لا بد أن تجيء من الشاطئ الآخر للمحيط. وذلك ممكن لأن الذين سمعوا عن موارد العالم الجديد مستعدون للاستثمار فيها، لكنهم لبعد المسافات يريدون ضمانات، وأول الضمانات تنظيم مضمون لحركة أموالهم، يصون لهم حقهم في الأصل وأرباحه ــ ويضبط محدودية خسائرهم إذا وقعت. وهنا يظهر سنة ١٦٠٧ إطار الشركة المساهمة ــ شركة "فرجينيا" يديرها من بعيد مفوضون عن ملاكها، ويكون عليهم نوع من نظام يتابع، ويتأكد أن الأرباح واصلة، وأن الخسائر محدودة، لأن كل مساهم لا يلتزم بما هو أكثر من نصيبه في رأس المال.

ويقول كاتب هذا الفصل من الكتاب: "إن من يريد أن يفهم أمريكا عليه أن يدرس بعناية فكرة الشركة المساهمة المحدودة". ثم يضيف: "إن بداية الولايات المتحدة الحقيقية كانت شركات من نوع شركة "فرجينيا". وكان رأس مال شركة "فرجينيا" مائة ألف جنيه إسترليني "بقيمة نقود ذلك الزمان"، وكان احد المساهمين البارزين فيها السير "فرانسيس بيكون" (الوزير الشهير في عصر الملكة "إليزابيث" الأولى، وخلفها الملك "جيمس").

وكان أهم ما قامت به الشركة شق طرق واصلة إلى مختلف أنحاء "فرجينيا"، وقد فرضت الشركة رسوم مرور يدفعها المسافرون عليها في كل مرة يستفيدون منها، وكان ذلك اختراعاً جديداً في أداء الخدمات يستوفي ثمنها أولاً بأول من لحظة إنشائها." "وكانت تلك بداية مشروعات الطرق الكبرى، يدفع تكاليفها المستفيدون منها كلما سافروا عليها!".

وخلال مائة سنة كانت الشركة هي الولاية والولاية هي الشركة: شركة "فيرجينيا".

***مشهد:**

يتنبّه الهنود الحمر من سكان أمريكا الأصليين إلى أن المهاجرين البيض الذين نزلوا على شواطئهم لم يعد يكفيهم ما امتدت إليه أيديهم من ذهب وجواهر "وما خطفوه من بنات ونساء!" ــ وإنما هم الآن ينصبون خياماً على الأرض، ويدقون ويحفرون، وقد جاءوا بآلات وبذور ــ وإذن فهي إقامة وليست زيارة. ويورد "جاك بيتي"،وهو محرر كتاب "العملاق"، واحداً من تقارير شركة "فرجينيا" مكتوباً سنة ١٦٢٤، ومرسلاً إلى جمعية المساهمين بها في لندن، وفيه بالنص:

"إن الخلاص من الهنود الحمر أرخص بكثير من أية محاولة لتمدينه. فهم همج، برابرة، عراة، متفرقون جماعات في مواطن مختلفة، وهذا يجعل تمدينهم صعباً، لكن النصر عليهم سهل. وإذا كانت محاولة تمدينهم سوف تأخذ وقتاً طويلاً، فإن إبادتهم تختصره، ووسائلنا إلى النصر عليهم كثيرة: بالقوة بالمفاجأة، بالتجويع، بحرق المحاصيل، بتدمير القوارب والبيوت، بتمزيق شباك الصيد، وفي المرحلة الأخيرة المطاردة بالجياد السريعة والكلاب المدربة التي تخيفهم لأنها تنهش جسدهم العاري."

***مشهد:**

في خطاب بتاريخ سنة ١٦٣٣ يظهر في تقارير الحكومة البريطانية خطاب يفرق بين أنواع من المهاجرين، بالتحديد هؤلاء الذين هاجروا إلى "فرجينيا"، وهؤلاء ــ طبقاً للخطاب ــ مهاجرون هدفهم الربح بأية وسيلة. لكن هناك مهاجرين من نوع آخر ظهروا في "نيو إنجلند"، وكلهم عائلات هاجرت هرباً من الاضطهاد الديني معظمهم من أتباع "كالفين"، وقد جاءوا من سويسرا وهولندا واسكتلندا وغيرها حيث انتشرت دعوة التطهر الديني والنقاء. وهؤلاء المتدينون أنشأوا شركات تجارية، ولكنها شركات "أخلاقية" يؤمن المساهمون فيها بـ "رضا الله"، ويعتبرون زيادة أرباح استثماراهم شاهدهم على "رضا الله" عنهم. وقد أسس هؤلاء "الأخلاقيون" منطقاً ــ شبه عقيدة ينظمون به أعمالهم، ويديرون شركاتهم في "نيو إنجلند"، وخلاصة منطقهم طبقاً لخطبة شهيرة لراعي كنيستهم "توماس شبرد" أنه لا بد من ضفاف للماء وإلا علا سيله وأغرق الجميع". و"الضفاف كما يراها "شبرد" هي أن يعمل البشر جادين على رفع مستوى أنفسهم بما يلقى "رضا الله" ــ ووسيلتهم إلى ذلك هي العمل بـ "اخلاص مسيحي" على زيادة الثروة، وتوسيع الملكية، وإعلاء بناء البيوت. و"رضا الله" عن المخلصين له يتمثل بالضبط في تحقيق هذه الأهداف، أي في "الطوفان" بكثرة "المال والأرض والعقار" ــ ولا بد أن "يتذكر المؤمنون" أن "زيادة النجاح" مرهونة بـ "زيادة الإيمان"، وبالتالي فإن "الدين ثراء"، و"الثراء دين"، والاثنين معاً "ضفاف الماء حتى لا يسيل ويغرق الجميع"!

وفي "فرجينيا" وفي "نيوإنجلند" تكبر الشركات، وتتراكم الثروات، وتظهر الحاجة إلى توكيلات على الشواطئ تتعامل مع أوروبا في الاستيراد والتصدير، ثم تقوم شركات أخرى على صناعة التخزين لأن الملاحة مواسم،والزراعة مواسم. وظهرت في أمريكا بدايات أسر فعلت كل شيء حتى تغتني، وفي حين أن بعض طالبي الغنى طارد الثراء جهاراً نهاراً بالسلاح، فإن بعضهم استدعاه جهاراً نهاراً ــ ! ــ بالصلاة!

*** مشهد:**

لكن الشركات "الولايات" التي تعمل من الشاطئ الشرقي للولايات المتحدة حيث نزلت أولى موجات الهجرة واستقرت، ومضت تزرع وتتاجر، وتغتني وتراكم الثروة ــ راحت تواجه مشكلة تحجم نشاطها بالرغم منها، وهي مشكلة اليد العاملة. ذلك أنه حتى قرابة سنة ١٧٠٠ ــ لم يزد عدد المهاجرين من اوروبا عبر المحيط عن ربع مليون مهاجر، وكلهم يريد المال والأرض والعقار، وليس فيهم أحد يريد أن يكون أجيراً، وإلا فلماذا ركب جبال الموج وجاء إلى أرض الميعاد.

الى جانب ذلك فإن سكان البلاد الأصليين من الهنود الحمر "وممن تتم عملية إبادتهم لأنهم همج لا يصلحون للتمدين ولا للتدين" ــ ليسوا على استعداد للعمل، ولا لخدمة هؤلاء الذين انقضوا عليهم مع أمواج المحيط.

والحل العملي الذي يطرح نفسه هو الإتيان عن أي طريق بيد عاملة. تشتغل ولا تشارك. وتقبل بالقليل ولا تنتظر زيادة. والحل هو "العبودية" أي عضلات تعمل بطعامها وليس أكثر، وطاعة تقبل الأمر لأنها لقنت تحت الأسر

درس الطاعة بالسلاسل والسياط. وكذلك قامت في أمريكا شركات "شركات مساهمة أيضاً" نشاطها "تجارة العبيـد". ويورد "جيمس هيدجز" الذي قام على كتابة الفصل الخاص بـ "التجارة في الأرواح" كما سماها ــ مجموعــة مــن أوراق إحدى الشركات المساهمة في هذا المجال، وقد ركز فيها على سجلات سفينة الشحن "سالي" وقبطانها "أيسيك هوبكنز".

وفي سجلات السفينة "سالي" توجيه من الملاك "نيكولاس وبراد ــ شركة مساهمة" يقول للقبطان: "إننا نثــق فيــك وفي إخلاصك لنا، وخدمتك لمصالحنا، ونحن نفوضك بأن تذهب إلى شواطئ أفريقيا "شاطئ غينيا" وتشحن سفينتك بمن تستطيع أن تجلبهم من العبيد "بالوسائل" التي تراها، وأنت مخول أن تبيع وتشتري منهم كما تشاء فــي طريــق رحلتك إلى أمريكا عندما تتوقف في جزيرة "باربادوس". ونذكِّرك طبقاً للعقد بأن حصتك هي ٤ عبيد لك مقابل كــل ١٠٠ عبد للشركة، مضافاً إلى هذا نسبة ٥% من ربح الحمولة عندما يتم بيعها. ونريد أن نذكرك بأن السرعة فــي هذه التجارة مطلوبة لأن الحاجة إلى اليد العاملة ماسة!"

وضمن سجلات "سالي" يوميات قبطانها "هوبكنز"، وهو يكتبها بالتفصيل لتكون في علم المساهمين عندما يتحاسب معهم على حصيلة أرباح رحلته:

"قدَّمت لشيخ القبيلة "جالون" من "مشروب" الروم مقابل "عبدة ــ فتاة"!

- دفعت ٧ جنيهات لشراء صبي.

- اشتريت ٥ عبيد صالحين للعمل هذا اليوم بعد الظهر مقابل بصل وسكر وروم للجلاب.

- حمولتنا الآن ١٩٦ عبداً. ــ واحدة من العبيد شنقت نفسها.

- ثلاثة عبيد قفزوا إلى البحر ولم نستطع إنقاذهم من الغرق، وقررنا حبس الباقين في العنبر الأسفل للسفينة "وكنا نخصصه لبقرتين معنا" ــ وربطنا الأسرى بالحبال.

- الحمولة الآن كاملة العدد وزيادة! وسوف نبدأ رحلة العودة نحو الكاريبي غداً.

[وفي سجلات "فرجينيا" و"نيوإنجلند" و"ماساشوستس" في ذلك الوقت "أول القرن الثامن عشر" أربعمائة شركة فــي تجارة العبيد تملك حوالي ١٢٠٠ سفينة ــ غير مئات الشركات ومئات السفن تعمل في أوروبا.]

***مشهد:**

سنة ١٨٠٠، ومع بداية القرن التاسع عشر ــ أي بعد قرن كامل من تأسيس الشركات المساهمة المتــاجرة فــي العبيد ــ سواء تلك التي عملت من أمريكا ــ أو التي تعاملت معها من أوروبا ومن شواطئ أفريقيا ــ وصل عــدد العبيد الذين حملتهم السفن عبر المحيط إلى ثلاثين مليوناً من البشر ــ من الأرواح ــ هذا غير عدد غير معــروف ــ بالملايين ــ ماتوا في السفن وألقيت جثثهم في المحيط طعاماً للحيتان. وينقل كاتب الفصل الخاص بالعبيــد فــي كتاب "العملاق" ــ عن كتاب آخر سبقه ــ صفحة كاملة وجدها أكثر دقة وأمانة في التعبير، والكتاب السابق عنوانه "دور العبودية في نمو مستعمرة "ولاية" نيوإنجلند: محركات النمو". وفي الصفحة "٢٥٤" يرد ما يلي بالنص:

"سنة ١٧٧٠ كانت مستعمرة "ولاية" نيو إنجلند أغنى مناطق أمريكا. وقد كانت بالفعل قصة نجاح رائع، وطاقة في الإنتاج لا مثيل لها. وكان محرك النمو هو العبيد الذين كانوا العنصر الفاعل على الأرض وفي المصانع، والترس الدوار في عجلة التجارة والتصدير إلى أوروبا وغيرها: كان العبيد هم أساس الزراعة، وعماد الصناعات القائمة عليها مثل السكر والتبغ، وغير ذلك من المنتجات الأخرى".

وتختم الصفحة المستعارة من كتاب سابق قائلة: "باختصار كانت العبودية هي المولد الأكبر للثروة الزراعية والصناعية والتجارية. وبرغم أن عدد تجار العبيد في "نيو إنجلند" لم يكن كبيراً، فإن كل التجارة بعموم اعتمدت إلى آخر حد على عبيدهم "عبيد هؤلاء التجار"."

ثم بدأت الأصوات ترتفع بـ "لا إنسانية تجارة العبيد" عندما ظهرت قوة البخار ـ بعدها وليس قبلها ـ فتلك طاقة أقوى من عضلات العبيد مئات المرات، ومحركاتها لا تحتاج إلى وجبات طعام أو حظائر نوم، أو حراسة ليل ونهار تضمن أن لا يهرب العبد أو ينتحر "وكانت نسبة الهرب أو الانتحار أعلى بين النساء منها بين الرجال".

ويبدو أنه في تلك الفترة ظهرت وانتشرت أدبيات واسعة تعارض تحرير العبيد أو تقييد "التجارة في الأرواح". وكانت الحجج الأكثر تردداً وتكراراً:

"ـ إن استعمال البخار ليس له أن ينهى دور العبيد في الانتاج، فهذه وسيلة، وتلك وسيلة وكلتا الوسيلتين تؤدى دوراً يتكامل ـ ولا يتعارض ـ مع الأخرى.

ـ وإذا أوقف التجار الأمريكيون تجارتهم في العبيد فإن غيرهم من جنسيات أخرى سوف يحصلون على الفائدة، والأرباح.

ـ والقيود على تجارة العبيد سوف تكون وبالاً على هذه "الأرواح" التي لا تعرف ماذا تفعل أو كيف تعيش إذا رفع "السيد" يده عن "التجارة" فيها.

ـ إن السلطات لا يصح لها أن تتدخل في حرية التجارة بأي شكل من الأشكال، لأن ذلك يتعارض مع الفكرة الرئيسية التي قامت عليها أمريكا، وهي الحرية ـ حتى من القانون "وضمن حجج المنطق أنه لا يصح لأحد أن ينسى أن ضيق أفق القانون كان مشكلة المشاكل في العالم القديم".

***مشهد:**

وبرغم وصية "واشنطن" لأمريكا أن تبتعد عن أوروبا ـ فإن أمريكا مع مطلع القرن التاسع عشر اقتربت لكي تكون أكبر مستفيد من مصائب أوروبا. وكانت تلك فترة الثورات الكبرى، وزمن حروب "نابليون" الطاحنة، ومسرح عمليات المطاردة البحرية والحصار حول القارة الأوروبية، لكن السفن الأمريكية شراعية ـ وبخارية فيما بعد ـ كانت لها ميزة "الحياد"، فهي بعيدة لا تطولها المعارك ولا إجراءات الحصار، والسفن التي تحمل الأعلام الأمريكية لا شأن لها بصراعات أوروبا التي كانت لدولها وشركاتها وأفرادها استثمارات واسعة في العالم الجديد تحرص عليها وتحاول إخراجها من دائرة النزاع والخطر. وفي هذه الحقبة من الاضطراب في أوروبا تمكنت التجارة

الأمريكية من السيطرة على الملاحة في المحيط الأطلسي، وبنت لنفسها فوق الموج سعة سفن تزيد عما تملكه بريطانيا أو فرنسا، وكان ذلك خروجاً كثيفاً إلى اعالي البحار ـ زادت معدلاته بعد شق قناة "بنما" لأن السفن الأمريكية أصبحت قادرة على الانتشار في المحيط الهادئ نفس قدرتها في المحيط الأطلسي.

وبذلك فإن المحيطات الحامية لأمريكا لم تعد مساحات شاسعة فقط، وإنما أصبحت أيضاً مناطق مأهولة ـ أمريكياً ـ لأن أساطيل أوروبا بقيت قريبة من شواطئها تمارس الحصار أو محصورة هي نفسها ـ بينما أصبح العلم الأمريكي في الأطلسي علم الملاءمة، تتحرك تحته البضائع بحرية، وتتوقاه أعمال المصادرة، لأن الكل يستفيد منه أو يحاول أن يستفيد!

***مشهد:**

وعندما جاءت قوة البخار ـ كان أول قادم بعدها هو القطار، وكان بناء السكك الحديدية في أمريكا. ويكتب "جاك بيتي" محرر كتاب "العملاق" أن مد خطوط السكك الحديدية كان هو "قاهر المسافات وموحد الأرجاء" على اتّساع قارة بأكملها.

كانت أمريكا منذ البداية كنزاً هائلاً ـ لكن حجمه كان مشكلة لأن النفاذ إلى عمقه كان يمشي بسرعة الحيوان، ومداه الأسرع هو سعة رئة الحصان ـ فلما جاء القطار البخاري على البر ومعه السفينة البخارية في النهر والبحيرة واستسلمت القارة بأكملها للاستغلال والاستثمار، للإنتاج وللتوزيع، وعندما لحق برق التلغراف بطاقة البخار تحولت القارة إلى شبكة اقتصادية ومالية واحدة مع حجم لم يعرف له في العالم مثيل، وذلك طبيعي لأنه لم يحدث من قبل أن انفتحت قارة كاملة بكل مواردها وكل طاقاتها على هذا النحو. وشاعت في تلك الأيام مقولة أن "صوت قطار السكة الحديد هو نبض القارة الأمريكية ـ يدق"!

وكان الفضاء الأمريكي أكبر مشجع ومناد لقوة البخار ـ وكان أن الميكنة بتفاعلها مع هذا الفضاء الأمريكي تمارس صنع معجزة في الإنتاج تجاوزت كل التوقعات.

ثم كانت الحرب الأهلية الأمريكية هي القبضة التي كسرت آخر الحواجز على أرض القارة، لأن الحرب الأهلية عبّأت قوى، وحلقت صناعات ضرورية مدنية وعسكرية، وضمنها ثورة في صناعة النسيج حتى يلبس الجنود في الصيف وفي الشتاء، وكانت الإضافة الأكبر في صناعة النسيج أن الأطفال أصبحوا عمالها ـ لأن الرجال كانوا في الحرب، والنساء في المزارع ـ خصوصاً مزارع القطن.

وحين سقطت آخر الحواجز في القارة بين الشمال "الصناعي" والجنوب "الزراعي" ـ وعاد الرجال من ميادين القتال ـ كانت الرأسمالية الأمريكية جاهزة لأداء دورها في سوق اتسع بما فاق الخيال، وساعدته ثروات راكمتها فرصة التجارة أثناء انشغال أوروبا بصراعاتها ـ وفرصة الصناعة التي اقتضتها ضغوط الحرب الأهلية ـ وفرصة الضرورات التي قضت أن يعمل كل السكان ـ حتى الأطفال.

***مشهد:**

كانت الرأسمالية الأمريكية من طراز مختلف عما عرفته أوروبا أو آسيا ــ فهذه رأسمالية جديدة، عاملة، ومقاتلة، بل وعدوانية، وليست رأسمالية إقطاعية ووراثية وعلى مشارف الانحلال. فالرأسمالية الأمريكية راكمت ثرواتها من أرض الهنود الحمر التي صادرتها وزرعتها، ومن جهد العبيد الذين جلبتهم ورفعت سوط الجلاد فوق ظهورهم، ومن تجارة المحيط التي سيطرت عليها في غفلة من أوروبا، ومن موارد قارة شاسعة وغنية وصلت خطوط السكك الحديدية إلى كل إرجائها طولاً وعرضاً، وجعلتها سوقاً واحدة ــ ثم إنها كانت رأسمالية لها "قلب من حديد" لم تؤثر عليه الثقافة ــ كما حدث في أوروبا ــ فلم يلن لصوت الموسيقى، ولم يتأثر بمسرح النهضة، ولم يجرب المتعة إلى درجة الانحلال في قصور وأسر أوروبا الحاكمة مثل آل "هابسبورج" وآل "رومانوف" وآل "بوربون".

وفي حين أن الرأسمالية الأوروبية الإقطاعية الوارثة قاومت انتشار التعليم ــ فإن أول ذكاء الرأسمالية الأمريكية إدراكها لأهمية التعليم بمنطق أن "أي عامل يتعلم له قدرة إنتاجية أكثر من عامل جاهل" ــ وكان المهم هو ماذا يتعلم؟!

وينقل واحد من مؤلفي كتاب "العملاق" صفحة من كتاب يدرسه تلاميذ المرحلة الابتدائية ضمن منهج بدأ تعميمه في ولاية "نيو إنجلند" سنة ١٨٣٣، والصفحة على شكل أسئلة وأجوبة تجري على النحو التالي:

"س: لنفرض أن الرأسمالي الذي يستثمر أمواله حقق أرباحاً كبيرة، فهل هذا يضر بالرجل العامل؟

ج: بالعكس.. ذلك يساعده على أن يدفع أجوراً أحسن لعماله.

س: ما هو الأفضل.. أن يدخر رجل غني أمواله ليستثمرها، أو يصرفها على هواه؟

ج: بالطبع يدخر ويستثمر.

س: هل يمكن أن تشعر بالأسف لأن رجلاً حقق أرباحاً طائلة؟

ج: بالعكس.. سوف أكون شديد السعادة.

س: ما الذي يحول رجلاً من عامل إلى رأسمالي؟

ج: أن يدخر".

وهكذا سؤال وجواب ملء صفحة، وملء كتاب بأكمله!

وهنا كانت أمريكا تقدم نموذجاً جديداً في "ترويض الوعي" يبدأه التعليم ــ ثم تجربة العمل ــ "وفيما بعد جاء دور الإعلام".

***مشهد:**

كانت الرأسمالية الأمريكية تنمو وتنمو، وكانت قدرتها على التنظيم خرافية لأن المجال أمامها مفتوح للتجديد والنمو، والاندماج في وحدات لها قوة ودول. وهكذا ظهرت دولة "روكفللر" تحت اسم "ستاندارد أويل"، وتمتلك

النصيب الأكبر من بترول أمريكا الشمالية، ثم راحت تنزل على أمريكا الجنوبية وتكاد تحول فنزويلا إلى مستعمرة لإمبراطورية "روكفللر" الذي كان شعاره "إن الله أعطاني ثروتي وليس من حق بشر أن يعترض على إرادة الله".

وفي فصل كتبه المؤرخ الإنجليزي الشهير "بول جونسون" ــ ضمن فصول كتاب "العملاق" بدأ "جونسون" كلامه قائلاً:

"هناك في تاريخ أمريكا نوعان من الآباء المؤسسين للولايات المتحدة:

ــ نوع من صانعي الاستقلال وكاتبي وثائق الدستور، قادوا محاولة تطوير "الشركة" إلى "دولة" "رجال مثل "ألكسندر هاملتون" ــ و"صمويل جونسون" ــ و"جيمس ماديسون" ــ و"بنيامين فرانكلين" ــ وغيرهم".

ــ ونوع ثان من "البارونات اللصوص"، قادوا الرأسمالية الأمريكية وحاولوا أن يحموا "الشركة" من طغيان "الدولة" "روكفللر"، ثم رجال مثل "فورد" و"فاندر بيلت" و"ديللون" و"راند".

ولم يكن تعبير "البارونات اللصوص" مجازاً بلاغياً، وإنما كان للتعبير أصلٌ في الحقيقة. ذلك أن الرأسمالية الأمريكية بنت قوتها الطالعة على عصر جديد تحققت كل اكتشافاته في أوروبا، وقد أخذت الرأسمالية الأمريكية هذه الاكتشافات وأخضعتها لفكرة التنظيم الذي لا يحده قيدٌ من عرف أو تقليد.

وذلك حدث للسيارة، وللطائرة، وللكهرباء، وللطاقة النووية، وللتليفون واللاسلكي، وللكومبيوتر، وللصواريخ ــ وحتى لمساحيق التجميل.

ومثلاً فإن أوروبا كانت هي التي بدأت صناعة السيارات، لكن تدافع العمّال في ورشة وانكفاءهم لإنهاء العمل كان يستغرق ثلاثة أيام لصنع سيارة واحدة ــ ثم توصَّل "هنري فورد" في التنظيم إلى فكرة خط التجميع: مسار واحد لهيكل السيارة يضيف إليه كل عامل يمر أمامه مسماراً واحداً أو صامولة واحدة ــ وتم اختصار مدة صنع سيارة واحدة من ثلاثة أيام إلى ثلاث ساعات، وخطوط التجميع صفوفاً ــ واحداً إلى جانب الآخر ــ والعمال لا يتزاحمون أو ينتظر بعضهم بعضاً، وإنما هم واقفون في أماكنهم وخط التجميع يمر أمامهم، ويؤدى كل واحد منهم حركته بسرعة. وكان ذلك فتحاً في وسائل الإنتاج وصل بأمريكا إلى أن تصبح الأقوى في العالم صناعياً وتجارياً.

وكانت الرأسمالية الأمريكية قد وضعت لنفسها هدفاً صاغه "جاك بيتي" في سؤال واحد:

"كيف يمكن تحويل ترف الرجل الغني ــ إلى حاجة يومية للرجل العادي؟"!

وقد كان: وذلك ما حدث للسيارة، وحدث للكهرباء، وحدث للتليفون، وحدث فيما بعد للتليفزيون، والغسالة الكهربائية، وجهاز تكييف الهواء، والكومبيوتر.

وكذلك أصبح الترف الذي خطر للأغنياء حلماً ــ سلعاً جاهزة تحت تصرف الأجراء.

وكان ذلك عالماً جديداً واعداً ــ وقاسياً في نفس الوقت ــ لأن السيطرة على هذه السوق المتسعة كل يوم تحتاج وسائل مختلفة. وينقل "جاك بيتي" نص خطاب بعث به المليونير الشهير "كورنيليوس فاندر بيلت" إلى منافس له، معتبراً أن ذلك الخطاب أبلغ تصوير وقع عليه لروح الرأسمالية الأمريكية "المتوحشة" "كذلك تعبيره".

والشاهد أن الخطاب نص شديد الاختصار موجه إلى شريك لـ فاندر بيلت" تحول إلى منافس له وأقام شركة مستقلة. والنص كما يلي موجه إلى مجلس إدارة الشركة المستقلة:

"السادة:

إنكم حاولتم خداعي. ولن أقاضيكم لأن إجراءات القانون تأخذ زمناً طويلاً، ولهذا فإني سوف "أخرب بيوتكم" I' ll ruin you .

المخلص: كورنيليون فاندر بيلت.

***مشهد:**

ومع ذلك فقد كانت الرأسمالية الأمريكية التي أكدت سطوتها في حاجة إلى ترتيبات تحمي الثروة: نظام سياسي قوي ــ ونظام قضائي أقوى ــ وقانون يسري على كل الناس "باستثناء الهنود الحمر الذي حوصروا في مستوطناتهم، وباستثناء العبيد الذين سقطت عنهم صكوك العبودية وذلك يكفيهم!"

كانت الحاجة إلى نوع من القانون ماسة في أمريكا منذ نشأتها، خصوصاً على الشواطئ الشرقية التي ظهرت عليها موانئ التجارة عبر المحيط ومخازن السلع "مستوردة أو جاهزة للتصدير". ثم إن المستثمرين الأوروبيين الذين أنشئوا الشركات المساهمة الأولى للتجارة، واعتمدوا فيها على المسئولية المحدودة وعلى الثقة بالمفوضين عبر المحيط ــ كانوا أيضاً في حاجة إلى حماية قانون.

وحتى المغامرون الذين بدءوا بالدخول إلى عمق القارة بحثاً عن الفرص الهائلة المعروضة في انتظارهم ــ كانوا في حاجة إلى وسائط اتصال وتأمين وتمويل يعطونها ما لديهم في مقابل أن تزودهم حيث كانوا بما يحتاجون إليه في حياتهم ــ حتى المسدسات وطلقات النار ــ وتلك علاقات تتطلب قدراً هائلاً من الثقة. وذلك ما أعطى سلطة غير محدودة لرجل الأمن الذي أطلقوا عليه لقب "شريف" "عن أصل عربي انتقل إلى أمريكا أيام الإسلام في الأندلس".

وفي الحقيقة فإن الحاجة قضت بإطارات متعددة للقانون ــ فالشواطئ والموانئ والمخازن تحتاج إلى أطر قانونية لها مواصفاتها ــ لكن الداخل الذي يغزو الأرض الجديدة ويتجّه غرباً يحتاج إلى أطر قانونية لها مواصفات معقدة ــ ثم إن المساحات الشاسعة المفتوحة كانت لها حياة تحتاج إلى أطر قانونية أوسع، وذلك جعل القانون الأمريكي عوالم متداخلة وليس عالماً واحداً كما هو الشأن في بلاد أخرى. وكان المكلفون بوضع أطر القوانين في أمريكا أحسن المشرعين وضعاً في التاريخ. وفي حين أن القوانين في أوروبا صاغتها احتكاكات طبقات من النبلاء، وطبقات من الإقطاعيين، وطبقات من البورجوازيين الكبار والمتوسطين والصغار، وطبقات من الفلاحين، وطبقات من العمال ــ فإن عملية وضع القوانين الأمريكية كان أمامها أن تطلع على التراث السياسي والقانوني بكل غناه

وخصوبته، وأن تستوعب، وأن تستوحي ما تشاء، وتصوغه من جديد على أحوالها، وتفصله تفصيلاً محكماً على مصالح وعلاقات أمامها على مساحة قارة جديدة.

***مشهد:**

لكن "وحشية البارونات اللصوص" وجدت آخرين غير "فاندربيلت" لا يكفيهم القانون، ولا يحتاجون إلى خراب بيت خصومهم!

وبالفعل فإن الشركة الأمريكية للتليفون والتلغراف A T & T وجدت من يرفع ضدها عشرات القضايا لأن احتكارتها أصبحت عابرة لكل الولايات، وتهمتها أنها لا تريد أن تترك "لقمة لأحد". وأحسّت الشركة أن صورتها تتأثر، وقررت أن تحاول تغييرها "بمسحة ملائكية". يمكن إشاعتها بين الناس. وكان أن لجأت الشركة إلى مشتغل بالأعلان اسمه "آير" طالبة منه "أن يفعل لها شيئاً" ــ وكانت تلك سنة ١٩٠٨ بداية فن العلاقات العامة "في عصر الصناعة". واكتشف "آير" أن شركة التليفون والتلغراف الأمريكية تعرض خدماتها على الناس تحت حملة إعلانات تناديهم أن يأخذوا خدماتها "لأنهم لا يستطيعون الاستغناء عنها"! ــ وقرر أن البداية من هنا، فاختار لإعلانات الشركة شعارات جديدة تخاطب المستهلكين: "هدفنا أن نخدمك" ــ "روح الخدمة العامة دافعنا" ــ و"ولاؤنا تحت تصرفك" ــ "أنت شريك معنا".

وتغيرت صورة الشركة الأمريكية للتليفون والتلغراف.

وأصبحت العلاقات العامة من يومها "فناً قائماً بذاته"، وهو فنٌ أمريكي. وبلغ طغيان هذا الفن في تأثيره على الرأي العام الأمريكي حداً دعا كثيرين إلى التخوف من أن "البارونات اللصوص" سوف يفلت عيارهم. وذهب أحد أصدقاء الرئيس الأمريكي الأسبق "تيودور رزفلت" يلفت نظره إلى ضرورة عمل شيء، وكان ردُّ "الرئيس" بعبارة صارت مثلاً في التاريخ الأمريكي الحديث: "أنت تريديني أن أمارس الحب مع فيل"!

***مشهد:**

لم تكن وحشية الرأسمالية الأمريكية مظلمة ــ كما كان إقطاع القرون الوسطى في أوروبا.

وكذلك فإن الرأسمالية التي أدركت في بدايات القرن التاسع عشر أهمية التعليم على طريقة الاستثمار والأجور والادخار، ــ وصلت إلى أواخر القرن التاسع عشر وهي على يقين من أنه إذا أرادت أمريكا أن تخرج للعالم وتلعب دورها فيه فإنها في حاجة إلى تعليم من نوع جديد، وكان أن بعضاً من أهم مؤسسات التعليم الحديث جرى إنشاؤها، وأقيمت جامعات في الولايات المتحدة الأمريكية تحمل أسماء مؤسسيها القادرين على التمويل والدعم: "هارفارد" ــ "ييل" ــ "ستانفورد".. وغيرها.

وإلى جانب التعليم أدركت الرأسمالية حاجتها إلى المعرفة، فإذا مؤسسات الفكر والبحث الكبرى تلحق بالجامعات وهي الأخرى تحمل أسماء القادرين على التمويل والدعم: "روكفللر" ــ "فورد" ــ "راند".. وغيرها.

كانت أمريكا على وشك أن تنافس العالم في جامعات التعليم العالي ــ وكانت قد بدأت تسبقه بمؤسسات التفكير والبحث "وقد استطاعت هذه المؤسسات بالفعل أن تستوعب طاقة المثقفين الأمريكيين، وبدلاً من نزوعهم ألى "التغيير" ــ وتلك طبيعة المثقف ــ تم تجنيد فكرهم لصالح التقدم وليس لصالح التغيير في مفهوم الرأسمالية الأمريكية".

***مشهد:**

عندما عادت أمريكا خلال الحرب العالمية الثانية إلى أوروبا، وبقيت على أرضها تنتظر إرث إمبراطورياتها السابقة في آسيا وأفريقيا ــ كانت واثقة أن هناك حدوداً لمقاومة الآخرين، لأنهم جميعاً ينتظرون إشارتها ــ رغم حساسيتهم الشديدة من القوة الأمريكية التي بدت أمامهم طاغية ــ كانوا يحتاجون مساعدتها في مهمة إعادة تعمير ما خرّبته الحرب.

وأصرت أمريكا على أن تأخذ التنظيم الدولي الذي وقع عليه عبء إدارة العالم بعد النصر، وهو الأمم المتحدة، إلى عاصمتها المالية: نيويورك. وكان أن قام مبنى ومقر الأمم المتحدة على أرض تبرّعت بها أسرة "روكفللر" أشهر "البارونات اللصوص"!

ومع أن الاتحاد السوفيتي راح يشاغب في أروقة هذا التنظيم الدولي الجديد ــ فإن أمريكا تجنّبت أن تحاربه ــ وإنما تصرف رؤساؤها من "روزفلت" إلى "ريجان" بنفس منطق "فاندر بيلت": "حضرات السادة.. "لن أحاربكم لأن الحرب في الأزمنة النووية مخاطرة" ــ لكني سوف أستنْزف قواكم بسباق سلاح لا تستطيعون الخروج منه، ولا تستطيعون الوصول فيه إلى نهاية ــ وكذلك أخرب بيتكم!"

وكانت الفرصة مناسبة اقتصادياً لأمريكا ــ كما كانت مناسبة سياسياً. ويكتب "جاك بيتي" أن السياسة الأمريكية راحت تبشر وتدعو إلى "اقتصاد السوق" ــ ثم إن اقتصاد السوق" تحول إلى "مجتمع السوق" ــ ثم إن "مجتمع السوق" تحول إلى "عالم السوق".

و"عالم السوق" أو "سوق العالم" فيه ألف شركة عابرة للقارات تملك الرأسمالية الأمريكية الأغلبية فيها. وهذه الألف شركة تسيطر على أكثر من نصف اقتصاد العالم إنتاجاً وتوزيعها، خصوصاً في قطاعات حاكمة أهمها: المال، وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات والإعلام ــ وكلها متربعة على عروشها في أقمار صناعية سارية في كل أرجاء الفضاء، مطلة على الدنيا من علٍ ومن بعد!

**

كذلك أصبح القرن العشرون قرناً أمريكياً ــ وكذلك القرن الواحد والعشرون على الأرجح. وهنا تجئ أهمية تحليل أمريكا ــ كما كانت من قبل أهمية توصيف أمريكا.

والشاهد أن العالم عرف من قبل مستويات من الدُّول:

○ فهناك الدول: القوى Powers "بريطانيا ــ فرنسا ــ النمسا ــ روسيا ــ الدولة العثمانية ــ مثلاً ــ في وقت من الأوقات قبل الحرب العالمية الأولى".

○ وهناك الدول: القوى الكبرى Great Powers "بريطانيا ــ فرنسا ــ ألمانيا ــ إيطاليا ــ الاتحاد السوفيتي ــ مثلاً ــ في وقت من الأوقات قبل الحرب العالمية الثانية".

○ وهناك الدول: القوى الأعظم Super Powers "الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وحدهما في وقت من الأوقات زمن الحرب الباردة".

○ وهناك بعد ذلك كله "الدولة الكاسحة" ــ وتكل هي الترجمة الأقرب إلى معنى الوصف الذي يطلق الآن على الولايات المتحدة في تفردُّها بالقوة العالمية، وهو وصف. Hyper Power

والمشكلة الكبرى في القوة الكاسحة ــ الأمريكية بالذات ــ أنها ما زالت تجربة مفتوحة وكأن مرحلة الخلق الأولى لها لا تزال مستمرة، هنا فإن وصف القوة الكاسحة وما يتضمنه من الشعور بفعل مستمر ــ ينطبق بشكل مدهش على القوة الأمريكية ــ الإمبراطورية.

لكن الإمبراطورية دائماً، وبقوانين الحياة، علو ثم نزول، وتوهج ثم خفوت ــ والسبب ــ طبقاً لنظرية المؤرخ الأمريكي الكبير "بول كنيدي" ــ أن أعباء الإمبراطورية ــ راسخة أو كاسحة ــ تظل تتزايد حتى ينوء بحملها من أقبل عليها في البداية ــ وقد صدقت نظرية "كنيدي" على كل الإمبراطوريات في التاريخ. وبالفعل فإن الإمبراطورية الأمريكية التي كانت تعطى للاقتصاد العالمي ثلاثين في المائة من مدخوله سنة ١٩٦٠ ــ تراجعت بعد ثلاثين سنة، وإذا هي تنزل إلى ٢١% فقط ــ أي أن التفوق المطلق ــ أو النسبي ــ للإمبراطورية الأقوى لم يعد كما كان، وإنما تخلف سواء بالإرهاق، أو بجهد أكثر تصميماً من آخرين.

على أن الإمبراطورية الأمريكية الكاسحة تحاول هذه اللحظة أن تعوض الاقتصادي بالعسكري، وإذا كان نصيبها في القوة الاقتصادية العالمية قد تنازل، فإن سطوتها العسكرية غالبة. وأكبر الظن أن الخطر الحقيقي القادم على الدنيا هو اللحظة التي تحس فيها الإمبراطورية الكاسحة أنها مرغمة على التراجع ــ أمام قوة يمكن أن تسبق، أو تحالف قوى يستطيع أن يتصدى، لأنه ساعتها سوف تكون اللعبة الدولية شديدة الخشونة، بالغة العنف، لأن القوة الأمريكية ــ حتى هذه اللحظة ــ تعلمت كيف تكسب، ولم تتعلم كيف تخسر.

وما لم يحدث غير المنتظر وغير المتوقع، فإن هذه اللحظة موعدها على الأرجح بعد عشرين أو ثلاثين سنة، لكنه طوال هذه المدة وحتى هذا الموعد سوف تظل الإمبراطورية الكاسحة تمارس دورها بكل ما عندها ــ ظاهراً يراه الناس في حياتها ويقدرون على توصيفه، أو باطناً يدركه الناس من تحليل تجربتها ــ طبقة في النفس وفي الوعي، فوقها طبقة وتحتها طبقة ــ ويقدرون على تحليله.

**

وأخيراً فلا أعرف إذا كان ما حكيته عن الولايات المتحدة في مجال "التوصيف" ــ أو إذا كان ما عرضته من خلال كتاب "العملاق" في مجال "التحليل" ــ كلاهما يكفي لفهم الولايات المتحدة الأمريكية؟ ــ لكنها في كل الأحوال محاولة لاستثارة العقول.

ذلك أن فهم أمريكا، او محاولة فهمها، ضرورة حيوية "للتعامل" معها دون "خوف" يصنعه الجهل، ودون "خفَّة" يصنعها الوهم.

فالعداء لأمريكا ــ وهو أسهل المواقف ــ في هذه الأزمنة خطأ كبير لا تحتمل مخاطره، والوقوع في غرام أمريكا خطأ أكبر لا تحتمل خسائره.

ثم إنه ليس معقولاً أن تنتقل السياسة في العالم العربي من مباراة في العداء لأمريكا ــ إلى مباراة في الولاء لأمريكا، لأن حقائق الحياة أعقد من ذلك ــ وأيضاً ضروراتها!

تقرير رئاسي أمريكي

خريف خطر

مقدمة تقرير على مكتب الرئيس بوش الآن

هذا الحديث ليس نتيجة جهد صحفي مقصود، وإنما هو محصلة لقاءات وحوارات جرت في إطار شخصي مع زملاء وأصدقاء أثناء زيارة للولايات المتحدة عدت منها أخيراً. ولم يكن في نيتي أن أكتب عن هذه الزيارة شيئاً، لكنه خطر لي أثناء عبور المحيط ــ قرابة سبع ساعات في الطائرة ــ أن هذه الولايات المتحدة الأمريكية تستحق ــ أكثر من أي وقت مضى ــ نظرة على شخصيتها في محاولة لاستكشافها أو إعادة اكتشافها مرة أخرى. وبالفعل فقد حاولت إعادة النظر إلى أمريكا من جديد بعد نصف قرن على أول نظرة إليها عبر المحيط سنة ١٩٥١. وقد عرضت في العدد الماضي بعض الملاحظات والاستنتاجات مما توصلت إليه في محاولة فهم الشخصية الأمريكية، ولم أكن أريد أن أزيد.

ثم كان أنني ــ وبمحض مصادفة ــ أطلعت على تقرير عن سياسة أمريكا في الشرق الأوسط عرفت أنه الآن ــ هذه الأيام ــ على مكتب الرئيس الأمريكي "جورج بوش" ينتظر من الرئيس أن يقرأه، وينتظر على الهوامش علامات مما يخطه هذا الرئيس الجديد لأمريكا من ملاحظات على ما يقرأ، وهو معظم الأحيان ــ كما سمعت ــ علامات استفهام أو علامات تعجب يفهمها معاونوه الأقربون، وأولهم السيدة كونداليزا رايس "مستشار شئون الأمن القومي في البيت الأبيض" وتترجمها إيضاحات أو شروحات لرئيسها ــ وتلميذها ــ "جورج بوش" ــ تيسيراً عليه، وتهويناً للمشقة.

وكان الاطلاع على هذا التقرير المعروض الآن على الرئيس هو الذي استدعى إلى ذاكرتي تلك الأحاديث التي اعتبرتها شخصية مع زملاء وأصدقاء، على امتداد أسبوعين في أمريكا.
وفي ذلك التفاعل بين عين تقرأ وذاكرة تسترجع، راودني الظن بأن تلك المحاولة التي سبقت لاستكشاف الشخصية الأمريكية قابلة لأن تلحق بها زيادة تجرب أن تطل على القرار الأمريكي في الشرق الأوسط وتوجهاته في المرحلة القادمة. وذلك ــ في هذا الحديث ــ قصدى.
هــ.

1ــ الملاحة في بحار عاصفة!

على مكتب الرئيس جورج بوش الآن تقرير مفصل عن الخيارات السياسية المتاحة له ولإدارته في شأن أزمة الشرق الأوسط. وتلك "أزمة منطقة" تدهورت أحوالها بشكل أصبحت فيه مثل "كتلة صخر مهولة انكسرت من الجبل وراحت تتدحرج ــ ولا تزال عشوائياً على سفوحه، وهي توشك أن تنقض على الوديان والشطآن المحيطة بالجبل مهددة بدمار وخراب إلى درجة الكارثة.
وهذا الوصف لمنطقة الشرق الأوسط وأزمتها الحالية ليس من عندي، ولكن صاحبه هو "هنري كيسنجر" الذي لم يشارك في أعمال اللجنة الرئاسية التي وضعت التقرير، وكان يود لو انضم إليها لكن مستشاري الرئيس الأقربين اعترضوا برغم أن عدداً منهم سبق لهم العمل معه "وأولهم وزير الخارجية "كولين باول" الذي كان لعدة سنوات مساعداً خاصاً لكيسنجر". وكانت أسباب الاعتراض متنوعة، بينهما بداية "وذلك رأى "جورج بوش" الأب" أن "هنري سوف يظل باستمرار أسير لتجربته السابقة في المنطقة"، وتلك تجربة مضى زمنها لأن الظروف تغيرت. ثم "وذلك رأى "ديك تشيني" نائب الرئيس" فهناك خشية "أن هنري لن يعمل من أجل توسيع خيارات الرئيس، وإنما سوف يعمل لتوسيع نفوذه الشخصي، وتلك طبيعة "هنري" لا تتغير مهما تغيرت الظروف".
ولم تعتمد اللجنة الرئاسية توصيف "هنري كيسنجر" لأحوال الشرق الأوسط الراهنة بما فيها كتلة الصخر المهولة التي تهوى على سفوح الجبل وتهدد الوديان والشطآن، وإنما اختارت اللجنة وصفاً آخر عنونت به تقريرها الرئاسي، وهو عنوان لم يبتعد كثيراً عن أوصاف "هنري كيسنجر" لأحوال المنطقة، بل تابعه في استلهام تقلبات الطبيعة ومفاجآتها، فقد كان العنوان الذي اختارته مجموعة العمل الرئاسية لتقريرها هو "الملاحة في بحور مضطربة" Navigating Through Turbulence.
وهكذا، ففي حين رآى كيسنجر أن المنطقة صخرة هاوية من قمة جبل فإن المجموعة الرئاسية رأتها بحوراً مضطربة تتلاطم فيها العواصف!

**

والواقع أن تقرير "المجموعة الرئاسية" بشأن الشرق الأوسط وخيارات السياسة الأمريكية وسط هذه المنطقة "المضطربة" كان واحداً من خمسة تقارير تمثل قائمة أولويات السياسة الأمريكية من منظور الإدارة الحالية.

والتقارير الخمسة تعالج خيارات القرار الأمريكي في: شرق آسيا "الصين واليابان" ــ أوربا "حلف الأطلنطي والسوق الأوربية" ــ شبه القارة الهندية "الهند وباكستان وما حولهما" ــ الخليج "وهو في التقرير الأمريكي مواقع إنتاج النفط وضمنها العراق وإيران وشمالاً حتى القوقاز" ــ وأخيراً منطقة الشرق الأوسط "والمقصود بها أساساً هي ساحة الصراع العربي الإسرائيلي".

□

ويستحق الملاحظة أن هذه التقارير الرئاسية الخمسة ــ الأولويات الرئيسية للسياسة الأمريكية ــ لم تكن أول ما عرض على الرئيس بوش من مقترحات، وإنما كانت هناك قبل ذلك أوراق عمل أعدت على عجل في "فترة الريبة". التي لحقت بانتخابات الرئاسة الأمريكية الأخيرة! عندما ظهرت نتائجها تتأرجح بين "جورج بوش" و"آل جور" لأيام طالت إلى شهر وزيادة.

كانت "فترة الريبة" تلك مسألة غير معتادة في السياسة الأمريكية. فالمعتاد أن تظهر نتائجها الانتخابات، ويتحدد المرشح الفائز بالرئاسة، وتكون لديه فترة انتقالية مدتها ثلاثة شهور تقريباً، يختار فيها طاقم إدارته ويعهد إليه بخطوط حملته الانتخابية حتى يحولها إلى سياسات. بحيث إنه ــ منذ الأسبوع الأول من شهر نوفمبر حين تجري انتخابات الرئاسة وتعلن النتائج، وحتى الأسبوع الأخير من شهر يناير حين يؤدى الرئيس الجديد قسمه الدستوري بادئاً عهده ــ تكون العجلة مستعدة للدوران خصوصاً أن شخصية وكفاءة أي رئيس تقاس بإيقاع إدارته خلال المائة يوم الأولى من رئاسته، حتى تنتهي فترة السماح الممنوحة له في ظرف عام، ومن ثم يبدأ الحساب عسيرا ويشتد!

لكنه في حالة "جورج بوش" و"آل جور" وقع ما لم يكن معتاداً، لأن نتيجة الانتخابات تحولت إلى جدل وصل إلى القضاء: من محكمة إدارية محلية في ولاية فلوريدا وحتى المحكمة العليا في واشنطن. ومع الانشغال بالمعارك القانونية والسياسية والإعلامية بين الحزبين "الجمهوري والديمقراطي" والمرشحين "بوش وجور"، بدا كل شيء مؤجلاً بما فيه السياسات والخيارات والقرارات ــ وكذلك تشكيل طاقم الإدارة نفسه ــ فيما عدا قلة محددة من الأعوان الأقربين، ولم يكن في مقدور أحد منهم أكثر من التفكير في ترتيبات مؤقتة تسد ثغرة وتغطي فجوة ولا تزيد.

والحاصل أن المطلوب الأساسي في هذه الفترة كان نفسياً، ومخافة أن يقع في روع العالم ــ على حد تعبير تردد ساعتها ــ أن البيت الأبيض يوشك أن يصبح نوعاً من جدران ليس وراءها سكان". وفي الحقيقة، فإن الاتجاه الذي ساد وقتها هو النزوع إلى تحركات "تشاغل" وليس خطى "شغل" حقيقي مدروس وقابل للاستمرار أكثر من أسابيع قليلة.

وكان هناك إدراك مبكر لدى مجموعة المعاونين الأقرب إلى الرئيس بوش أن العالم كله سوف يتفهم حاجة الإدارة الجديدة إلى فسحة وقت، إلا منطقة واحدة تتملكها العصبية باستمرار، وتحرج الجميع ونفسها أيضاً وهي منطقة الشرق الأوسط. والسبب عندهم ــ وعند غيرهم أيضاً! ــ أن السياسات في هذه المنطقة معظمها سياسات شخصية، والأعصاب السياسية للأفراد عادة أكثر حساسية من الأعصاب السياسية لبلاد تدير أمورها مؤسسات وتحركها

إستراتيجيات لا تتعلق بـ "مخاوف وهواجس" أمراء ورؤساء يتصرفون مثل راكب دراجة عليه أن يتحرك طول الوقت، أو يسقط على الأرض إذا كف عن الحركة!

**

وكان من نتيجة ذلك أن إدارة بوش "القادمة" بعد فترة الريبة قررت مبكراً إرسال وزير الخارجية المرشح "كولين باول" بحيث تكون أولى مهامه في منصبه الجديد رسالة إلى أمراء ورؤساء الشرق الأوسط من ثلاثة بنود:

ـ لا داعي الآن للانسياق لضغوط الرأي العام العربي والتعجل بالتورط في مطالبات برفع الحصار عن العراق.

ـ لا داعي للانسياق لضغوط الراي العام العربي وتصعيد الأزمة مع إسرائيل بما يؤدى إلى "تخريب مساعي السلام".

ـ لا داعي للإسراع في زيارات عربية على مستوى القمة إلى واشنطن في الفترة المبكرة من عمل الإدارة.

وهكذا، فإن الإشارات الثلاثة التي حملها "كولين باول" إلى المنطقة كانت طلباً صريحاً لفسحة وقت تعوض ما ضاع أثناء فترة الريبة قبل أن تتأكد نتائج الانتخابات. وفيما يظهر، فإن أركان الإدارة الأمريكية الجديدة أقلقتهم بعض الأصداء التي وصلتهم من المنطقة بما فيها الترحيب بنجاح "جورج بوش" على أساس معرفة وصداقة قديمة تربط "آل بوش" ورجالهم بسياسيين وساسة في الشرق الأوسط، وبالذات من أيام حرب الخليج والتحالف الذي جرت الحرب تحت أعلامه. وكانت تلك الأصداء موضع حرج للرئيس الأمريكي الجديد وفريقه، لأن الصحافة الأمريكية أو بعض كتابها وجدوها فرصة للإشارة إلى الفوائد الشخصية الهائلة التي عادت على "آل بوش" ومساعديهم وأولهم "ديك تشيني" "وزير الدفاع في إدارة بوش الأب ـ ونائب الرئيس في إدارة بوش الابن"، وهي فوائد زادت وفاضت ودارت حولها أقاويل لا ضرورة لإعادة بعثها ونشرها الآن بعد أن كاد النسيان يطويها.

وهكذا، فإن الرسالة إلى المنطقة بطلب الانتظار كانت عاجلة لظروف طارئة ولدواع شخصية أيضاً، وقد حملها وزير الخارجية بكل الرقة والكياسة المتاحة لجنرال سابق ـ مع أنه خدم سنين طويلة في البيت الأبيض!

ومما يستلفت النظر أن نفس الرسالة عندما نقلت إلى السعودية وإلى بعض دول الخليج لم يكن المكلف بنقلها وزير الخارجية "كولين باول"، وإنما تركت المهمة لـ "بوش الأب" الذي شرح بنفسه في أحاديث تليفونية متعددة وطويلة "ظروف إدارة الإبن" ـ للأمير عبد الله ولي عهد السعودية ولاثنين أو ثلاثة غيره من أمراء الخليج، وقد تفهم الأمير عبد الله ظروف الأصدقاء وقدر حاجتهم إلى فسحة وقت.

وكان الاتصال بولي عهد السعودية وغيره من أمراء الخليج إشارة إلى "نية" و"قصد" كان مطلوباً من وقت مبكر صياغتهما كإستراتيجية وسياسة.

**

وعندما جاء وقت تحويل البرنامج الانتخابي للحزب الجمهوري، وتقديرات الرئيس المنتخب ومجموعة الرجال الأقوياء المقربين منه، انطلقت مجموعات العمل الرئاسية تسابق الوقت بتقاريرها حتى تلحق البيت الأبيض وساكنه الجديد.

وكان البيت الأبيض الجديد قد أعطى لكل مجموعات العمل الرئاسية توجيهاً عاماً تلقاه الجميع، لكنه أعطى للمجموعة المختصة بكل أولوية مزيداً من التفاصيل عن رؤية الرئيس وإدارته لمجال عملها في كل منطقة.

....

....

وكانت الخطوط الرئيسية في التوجيه العام الذي تلقته مجموعات العمل الرئاسية تعطى للجميع تصوراً متكاملاً. وكان الرجل الذي قام بالمهمة والإيضاح هو نائب الرئيس "ديك تشيني". وكان مؤدى التوجيه العام للجميع:

"1" إن الولايات المتحدة تجد نفسها الآن في وضع فريد لم يتح لأي قوة غالبة في التاريخ، فقد تمكنت من النصر في الحرب الباردة وانهار الاتحاد السوفيتي أمامها، كما أن الإمبراطورية السوفيتية تناثرت أجزاء وأشلاء متفرقة وأحياناً متخاصمة. وفي الوقت الحالي فإنه لم يعد هناك تحد للقوة الأمريكية، كما أن كل التحديات المحتملة مؤجلة الآن إلى سنين وحقب "الصين تحد محتمل لكن أمامه وقتاً طويلاً — واليابان تحد محتمل لكن الفرصة أفلتت منه، وسوف تظل فالتة إلا إذا استطاعت اليابان في المستقبل إنشاء علاقة خاصة من نوع يصعب التنبؤ به الآن مع الصين — كما أن أوربا الغربية تحد محتمل شريطة أن تتمكن من تحقيق وحدتها كاملة، وذلك الآن في مجال الأحلام".

يترتب عليه أن الولايات المتحدة الآن "متفوقة بمراحل"، وهذا التفوق مضمون في المستقبل المرئي، ومسئوليتها الحقيقية أن تعمل بكل الوسائل على الاحتفاظ به وتدعيمه، وتلك هي المهمة الأولى للسياسة الأمريكية وللقدرة الأمريكية في كل مجال.

والرأي السائد في الإدارة الجديدة أن الولايات المتحدة حققت "قيادتها المطلقة" للعالم في عهد "ريجان" و"بوش" لأنها استطاعت أن تمسك باللحظة التاريخية وتستعمل إمكاناتها المادية والمعنوية للحفاظ على مكاسبها وهو ما ينبغي للإدارة الجديدة أن تعود إليه وتحافظ عليه.

ويستعيد التوجيه إلى ذاكرة سامعيه أن الإمبراطورية البريطانية احتفظت بسيادتها على البحر الأبيض — وهو مركز الثقل في الإستراتيجية العالمية طوال القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين — بمجرد "تعويد" الآخرين على فكرة سيطرتها على البحار، في حين أنه على ساحة الواقع لم يكن لديها في البحر الأبيض طول هذه "القرون" غير تواجد عسكري محدود في إمكانياته عند مداخل البحر الأبيض ومخارجه في السويس وجبل طارق، ثم أسطول فوق مياه البحر يتكون من بارجة واحدة وست مدمرات فردت أعلامها ترفرف على الموج ما بين قبرص ومالطة. والولايات المتحدة في وضع أقوى عشرات المرات مما كانت عليه الإمبراطورية البريطانية، وكل ما يلزمها هو ترسيخ "عادة" الإقرار بوجودها في "كل مكان" وتأكيد هذا الوجود بحيث يصبح عنصراً مؤثراً على القرار في "أي مكان".

....

....

"2" إن الاقتصاد الأمريكي ما زال الأكثر حيوية والأقدر على التجدد، وتلك حقيقة تعكسها سيادة الدولار على غيره من العملات في أسواق العالم، ولا ينبغي أن يؤخذ ما حدث في أسواق المال ـ خصوصاً لشركات "التكنولوجيا الجديدة" التي انهارت قيمة أسهمها ـ دليلاً على "هشاشة" في القوة الاقتصادية الأمريكية، ذلك أن الطفرة التي حملت أسهم شركات التكنولوجيا الجديدة إلى ذروة السوق هي نوع من "الصرعات" التي تحدث من جراء التوقعات المبالغ فيها في مراحل التحول البارزة في قوى الإنتاج. والحقيقة أن هذه الطفرة من توابع اختراقات في تكنولوجيا المعلومات جعلت كثيرين يتصورون أن مجرد "وجود فكرة" جاهزة لقبول المخاطرة يخلق حالة يستطيع فيها الاستثمار أن يستغنى عن "رأس المال" وقد ثبت أن ذلك وهم مستحيل. والنتيجة أن "الطفرة" فرقعت مثل فقاعات الصابون وكانت عملية تصحيح لأوضاع السوق ضرورية وواجبة!

وفي حقيقة الأمر، فإن ما أخذته عملية "تصحيح الوهم" في الأسواق كان هو بالضبط ما جاء به "الاستسلام للوهم" من زيادات في حجم "التعاملات" خلقت إحساساً زائفاً بالرخاء عندما تضخمت. وخلقت إحساساً مبالغاً فيه بأزمة "الرأسمالية" عندما فرقعت. بينما الأكيد أن الرأسمالية الأمريكية هي "الآن في أقصى درجات قوتها وكل ما يلزمها هو: ترك الأسواق مفتوحة ومنع أي طرف من التدخل في حركتها".

والإدارة الديمقراطية السابقة "إدارة كلينتون" مسئولة إلى حد كبير عن "تشجيع الأوهام"، وهي لم تفعل ذلك في مجالات "المال" وحدها وإنما فعلته في مجالات كثيرة، وأهمها مجال "الأمن".

وفي حين أن إدارة جمهورية "ريجان وبوش الأب" هي التي أدارت بنجاح معركة سقوط الشيوعية والاتحاد السوفيتي، فإن إدارة ديمقراطية "كلينتون" عجزت عن استغلال فرصة هذا السقوط وتهاونت في ضرورات التفوق الأمريكي.

....

....

"3" إن الإدارة الجمهورية العائدة إلى موقع القرار عليها أن تستأنف خطط الدفاع الإستراتيجي كما تصورتها إدارات "ريجان" و"بوش" "الأب"، وأولها مواصلة برنامج حرب النجوم، والخطوة التالية فيها إنجاز شبكة الصواريخ المضادة للصواريخ لأن هذه الشبكة هي التي تعطى الولايات المتحدة درعاً وافية ضد المخاطر مهما كان مصدرها.

وإذا كان هناك من يتصور أن إستراتيجية الردع المتبادل القائمة على توازن في القوة النووية بين الدول التي تملك إمكاناتها لا تزال كافية فهؤلاء على خطأ كبير. لأن الردع النووي المتبادل كان إستراتيجية صالحة لمرحلة الحرب الباردة بين قوتين تملك كل منهما إمكانية تدمير القوة الأخرى سواء بضربة أولى من منصات إطلاق ثابتة "على البر" أو بضربة ثانية من منصات إطلاق متحركة "في الغواصات"، لكن الظروف الآن مختلفة. ومرجع الاختلاف أن القوى النووية في العالم تعددت بدخول الصين والهند وباكستان وكوريا الشمالية بترسانات نووية مؤثرة، وذلك يفرض على الولايات المتحدة إستراتيجية جديدة لا تردع طرفاً واحداً أو طرفين وإنما تواجه كل الأطراف "بما فيها أطراف هي اليوم صديقة". والسبيل إلى ذلك درع منيعة حول الولايات المتحدة "ثعبان يمنع ويبلع

كل ثعابين الخصوم قبل الوصول إلى الشواطئ والمدن ومواقع القوة الأمريكية" وبعدها يصبح الآخرون تماماً تحت رحمتها تتصرف إزاءهم كما تشاء. وذلك مهما كانت تكاليفه أرخص من أي سباق نـووي يعمـد علـي الـردع، خصوصاً وقد اتسع طابور الداخلين إلى مجال القوة النووية وهو طابور طويل يضم دولاً صغيرة و"مارقة" يرضيها أن تعتبر نفسها ندا للولايات المتحدة في إستراتيجية ردع متبادل!

....

....

"4" إن الإدارة الجمهورية الجديدة عليها ان تمارس دورها في الدفاع والتمكين للمصالح الأمريكية "بغير قيود" لا تستوجبها "الضرورات". و"الإدارة الأمريكية" وحدها هي الطرف الوحيد الذي يحق له توصيف المصالح الأمريكيـة دون اعتبار لأي ضغوط. وفي مجال العمل السياسي، فإن الإدارة تستطيع أن تمارس "دورها" داخل الأمم المتحـدة وفي الوقت نفسه تستطيع ممارسة "مسئوليتها" خارج الأمم المتحدة "بالذات في مناطق حساسـة بالنسـبة للمصـالح الأمريكية ومنها منطقة الشرق الأوسط".

وما حدث هو أن إدارة كلينتون سبق لها أن ورطت الولايات المتحدة في تعهدات بدعوى المحافظة علـى البيئـة "بروتوكول كيوتو"، أو بدعوى حرية المنافسة التجارية "اتفاقيات منظمة التجارة العالميـة"، وتلـك كلهـا وغيرهـا تنازلات أعطت العالم إشارات خاطئة مفادها أن الولايات المتحدة يمكن تطويعها أو يمكن ابتزازها. وقـد سـمحت إدارة كلينتون بذلك لأنها وضعت نفسها موضع الدفاع عندما فقدت "رئاستها" ذلك الأساس الضروري للمشـروعية الأخلاقية نتيجة لفضائح كلينتون الجنسية وأشهرها فضيحة "مونيكا لوينسكي". لكن الإدارة الجمهورية الجديدة ليست مكشوفة بحالة "عرى أخلاقي" من هذا النوع.

وهنا دخل على التوصية تحذير يطلب من الكل أن ينتبهوا إلى احتمال أن يتصور بعض الأطراف أن في مقدورهم ممارسة نوع من التطويع والابتزاز بظن أن الإدارة الجديدة وصلت إلى البيت الأبيض بأقل فـارق فـي أصـوات الناخبين في أي انتخابات سابقة "٣٠٠ صوت"، ووسط ضجة شديدة عن سلامة عملية الفـرز "أعيـدت عشـرات المرات يدوياً وآلياً". وكذلك يمكن أن يحل التطويع والابتزاز السياسي محل التطويع والابتزاز الأخلاقي. وهنا فـإن ضرورات القوة تفرض على الإدارة الجديدة أن تأخذ المبادرة في يدها، وأن تأخذها بشدة وبحزم لا يدع لأحد مجالاً للشك في أن القرارات الأمريكية تصدر عن شرعية مجروحة أو يمكن تجريحها!

....

....

"5" إن الإدارة الجديدة يتعين عليها أن تمارس سياساتها في العالم في إطار مناطق متصلة، وليس في إطار دول محددة. والحاصل أن أوضاع العالم كما برزت بعد الحرب العالمية الثانية وأثناء الحرب الباردة تكشف أن القضـايا المطروحة على الساحة الدولية تكشف عن "آفاق" وليس عن "حدود"، حتى وإن كانت الحدود شاسعة "شبه قارات".

وهنا، فإن الصين هي منطقة شرقي آسيا وليست بلداً واحداً عاصمته "بكين". والهند هي شبه القارة الهندية وليست "دلهي" ــ ومنطقة البحيرات هي وسط أفريقيا وليست "كينشاسا".

وحتى في حساب الأزمات المحلية فإن أزمة "كوسوفو" مثلاً هي أزمة منطقة "البلقان" كلها، وليست أزمة إقليم من بقايا يوجوسلافيا القديمة. ومشكلة العراق هي مستقبل منطقة الخليج العربي كله، وقضية الصراع العربي الإسرائيلي هي أمن شرق البحر الأبيض المتوسط، وليس السلطة الوطنية الضعيفة في غزة أو إسرائيل المستقوية في تل أبيب!

....

....

وهكذا، فإن السياسة الأمريكية عليها أن تتعامل مع "مناطق" وليس مع "مواقع"، لأن ذلك هو مدلول الخريطة السياسية ومقتضاها. وفي نفس الوقت، فإن التعامل مع مناطق يمكن السياسة الأمريكية من استيعاب وتفريغ ادعاءات "قوى محلية" تتصور نفسها قائمة على "أدوار إقليمية" في المناطق التي توجد فيها ومن ثم ترتب لنفسها امتيازات تطالب بها.

"6" إن الولايات المتحدة لا تستطيع أن تدعي لنفسها "رئاسة العالم" وإلا جلبت لنفسها مشكلات تستثير الحساسية أو تستدعي المنافسة أو تستفز الآخرين بغير لزوم لكن عليها في نفس الوقت أن تحتفظ لنفسها بالكلمة الأخيرة في أي موضوع.

وذلك يعني:

- إن الولايات المتحدة لا تقبل قسمة أو توزيعها في مسئولية القرار العالمي.
- ولا تقبل قيادة جماعية أو نوعاً من مجلس الإدارة مسئولاً بالتضامن حتى ولو كان لرئيسه صوتان أو حتى ثلاثة!
- ولحل هذه الإشكالية فإن المدخل إلى ما تريده واشنطن يكون التشاور مع الأطراف الدولية الكبيرة، كل على حدة، ومع كل طرف داخل المنطقة التي تتصل بأمنه المباشر أو مصالحه، دون ضرورة لإشراك كل الأطراف في كل المسائل، مع ملاحظة أن الوصول إلى توافق عام زيادة لا حاجة إليها وأفضل منها أن تحجز الولايات المتحدة لنفسها حق رؤية الأفق كاملاً وسلطة الحركة عليه بمفردها.

واتساقاً مع فكرة التشاور، تلاقي "بوش" مع "بوتين" وقرر "أنه نظر في عينه واكتشف أنه يستطيع الثقة به". وحتى بعد أن تكررت اللقاءات بين الرجلين في أكثر من مؤتمر "بينها مجموعة الثمانية في جنوا" كانت مستشارة الأمن للرئيس "بوش" وهي السيدة "كونداليزا رايس" في زيارة للكرملين قابلت فيها "بوتين" بعد عشرة أيام من اجتماعات جنوا وقالت "كونداليزا رايس" وهي على باب الكرملين: "إن الإتحاد السوفيتي "السابق" كان يمثل تهديداً للولايات المتحدة وأما روسيا فهي الآن صديق"!

وكانت تلك هي الخطوط العامة للتوجيهات التي أعطيت للمجموعات الرئاسية في كل المناطق ــ بما فيها المجموعة الرئاسية للشرق الأوسط!

**

وفيما يتعلق بالشرق الأوسط تدخلت السيدة "كونداليزا رايس" فطرحت نيابة عن رئيسها ثلاث ملاحظات:

- الأولى: إن أزمة الشرق الأوسط تحتاج فيما ثبت بالتجربة إلى "معجزة".
- والثانية: إن رؤساء أمريكيين سابقين اقتربوا من الأزمة ولم يأخذوا منها إلا "حرق أصابعهم".
- والثالثة: إن "جورج دبليو" ــ رئيس لا يعتبر نفسه صانع معجزات "تحول قطعة الحجر إلى رغيف خبز"، كذلك فهو لا يريد أن يحرق أصابعه!!

2 ــ من "كلينتون" إلى "بوش":

لم يخرج تقرير اللجنة الرئاسية عن الخيارات السياسية المتاحة للرئيس بوش في الشرق الأوسط فجأة إلى النور، ولم يطبخ هذا التقرير على عجل ليقدم للإدارة الجديدة على صينية أو على طبق فور طلبه.

وإنما كان للتقرير الرئاسي أساس أبعد من ذلك وأعمق، لأن قسماً كبيراً من أفراد المجموعة التي عكفت على إعداده كان لها سابق اهتمام بالمنطقة، ولذلك فإن معظم الجهد كان عملية تنسيق وتنظيم ومضاهاة وصقل. وفي الواقع، فإن الصورة النهائية للتقرير لم تكتمل إلا في شهر يونيه الأخير "٢٠٠١" عندما قام اثنان من المشاركين في إعداده بزيارة "اللحظة الأخيرة" للمنطقة حتى يجري تقديم التقرير وعليه "اللمسة الأخيرة".

كانت مجموعة العمل الأصيلة تضم قرابة أربعين وزيراً وسفيراً وخبيراً سبقت لهم الخدمة في إدارات جمهورية من قبل. وكانت للمجموعة الكبيرة لجنة إدارة ضيقة ضمت وزراء خارجية "بينهم "الكسندر هيج" من إدارة ريجان الأولى مثلاً"، ومستشاري أمن قومي "منهم "انتوني ليك" من إدارة ريجان الأولى أيضاً"، وسفراء عملوا في المنطقة "مثل "صمويل لويس" الذي خدم ثماني سنوات سفيراً في إسرائيل".

وقد تولت اللجنة ترتيب وتنسيق زيارات ولقاءات لأعضائها على اتساع عواصم الشرق الأوسط وذلك لإجراء حوارات "إستراتيجية معمقة" وهنا، فإن أحد عشر عضواً من أفراد مجموعة العمل قاموا بزيارة للمملكة العربية السعودية وللأردن ولإسرائيل وللضفة الغربية، وقابلوا مجتمعين أو فرادى كل من ظنوا أن لديه شيئاً مهما يسمعونه منه.

وعندما فرغت المجموعة من إعداد تقريرها وقد ركزت عليه طوال شهور الربيع ــ قررت إرسال اثنين من أعضائها هما "دافيد بروك" و"روبرت ساتلوف" في أوائل الصيف "يونية" إلى المنطقة لمهمة "النظرة الأخيرة" وإضافة "اللمسة الأخيرة"!

وأخيراً أكملت اللجنة تقريرها في ثمانين صفحة، ثم إنها وضعت فوقه تلخيصاً لمجمل ما فيه في حالة ما إذا لم يجد الرئيس وقتاً كافياً لقراءة ثمانين صفحة!

**

المدخل العام للتقرير يبدأ بعرض واسع يطرح على الرئيس بوش وكبار معاونيه صورة ما تغير في الأفق الإستراتيجي للمنطقة منذ ترك الجمهوريون رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية عند سقوط "بوش" "الأب" أمام كلينتون في انتخابات سنة ١٩٩٢.

ويحدد التقرير "أن آخر إدارة جمهورية ــ وهي إدارة "بوش" الأب ــ تركت منطقة الشرق الأوسط وقد تحققت فيها ثلاثة إنجازات كبيرة يمكن البناء فوقها:

□ الإنجاز الأول: هو فتح الطريق أمام سلام شامل في المنطقة، وذلك بمؤتمر مدريد سنة ١٩٩١ الذي قصدت إليه كل الدول العربية "راغبة وقادرة ومستعدة" لصنع السلام مع إسرائيل من خلال مفاوضات سياسية لها مساراتها المختلفة ومن خلال مؤتمرات للتعاون الإقليمي متنوعة في موضوعاتها لكن هدفها واحد! وهو أن توفر للكل نصيباً في "جوائز السلام"! وتشرك دول المنطقة دون تمييز في أجواء من التعاون تساهم فيه "تركيا" بالتحديد وبالاسم لأن "ذلك يحقق توازناً في القوى محكماً وفاعلاً".

وقد لحقت بمدريد اتفاقيات سلام بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية، وبين إسرائيل والمملكة الأردنية، وتلى ذلك أن "نصف دستة" من الدول الأعضاء في جامعة الدول العربية أقامت علاقات مع إسرائيل شملت السياسة والاقتصاد ومجالات أخرى في التعاون المشترك فيها الأمن وتبادل معلومات المخابرات!".

....

....

[لم يذكر التقرير أن التعاون في مجال تبادل معلومات المخابرات وصل إلى حد أن "الموساد" قدمت لبعض الدول العربية صور برقيات شفرية ملتقطة من شبكات دول عربية أخرى.. وقدمت لها أيضاً تسجيلات لمحادثات تليفونية جرت بين مسئولين عرب وفيها مايهم مسئولين عرباً آخرين تحرص عليهم إسرائيل ــ أكثر من ذلك فإن إسرائيل قدمت لإحدى الدول العربية محضراً لوقائع لقاء سرى جرى بين وزير الدفاع في دولة عربية ثانية ومدير المخابرات في دولة عربية ثالثة!].

....

□ الإنجاز الثاني: إن مطلباً إستراتيجياً شديد الأهمية تحقق بالكامل في الوقت الذي ترك فيه بوش الأب مكانه "بعد انتخابات الرئاسة ١٩٩٢" وذلك المطلب هو ضمان "أمن الخليج" وموارده البترولية الحيوية على نحو نموذجي حلم به كل رئيس أمريكي وعجز عن بلوغه ــ لكن "حرب الخليج الثانية" مكنت منه.

كان المطلب النموذجي لتحقيق أمن الخليج هو إجراء فصل كامل بين الداخل والساحل في العالم العربي، أي عزل "الخليج العربي" عن "الشام" "وفيه سوريا وفلسطين"، وكذلك عن مصر. وذلك يعني أن "شئون" البترول تنفصل عن "قضايا" الصراع العربي الإسرائيلي "بما يعني عملياً فك الارتباط بين دول مجلس التعاون الخليجي وبين بقية العالم العربي من دول جامعة الدول العربية".

وكان المطلوب بالدرجة الأولى من أطراف التحالف الذي خاض حرب الخليج إخراج العراق من الكويت، لكن ذلك الهدف استعمل مقدمة لها ما وراءها.

□ أوله أنه بهذا التحالف أصبح بعض العرب شركاء إستراتيجيين لإسرائيل حتى وإن لم يقصدوا، وكانت تلك الشراكة هي ما أقنع إسرائيل بالامتناع عن الرد على صواريخ عراقية طالت بعض مدنها "خلال ليالي القتال من منتصف يناير إلى أواخر فبراير ١٩٩١".

□ وثانيه هو تحصين أمن الخليج بصورة حاسمة، والتأكد من فصل "شئون البترول" عن "قضايا الصراع العربي الإسرائيلي" عندما تم نزول القوات الأمريكية وتمركزها في كل دول مجلس التعاون الخليجي دون أي اعتراض.

□ وثالثه وهو الأهم أن الرأي العام العربي "تعود" على وجود القوات الأمريكية على مياه الخليج وشطآنه وقواعده، ولم يعد في ذلك "بالعادة" ما يزعج أو يثير!

□ والإنجاز الثالث هو ما بدا من أن العالم العربي يقبل عموماً بأهم ظواهر "العولمة"، فقد أصبحت صيحة اقتصاد السوق هي اللازمة المسموعة في كل محفل عربي، ومعها جرت " إعادة هيكلة اقتصادية ومالية" قامت بها معظم الحكومات العربية أو اتجهت إليها، كما انفتحت شهية المستهلكين العرب لأنواع من السلع الاستهلاكية الغربية طلبتها ودفعت ثمنها مقبلة عليها وسعيدة بها، وتم ذلك دون مقاومة تذكر.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن الفضاء العربي وقع فيه كسر قبضة أي دولة عربية تتصور أنها تستطيع السيطرة أو التوجيه داخل بلد واحد. أو التأثير فيما هو أوسع. والسبب أن "الفضائيات العربية" الناطقة باللغة العربية فتحت الأجواء العربية لكل ريح من أي اتجاه.

....

....

[لم يتطرق التقرير الرئاسي إلى أكثر من ذلك في ذكر دور الفضائيات العربية في حساب القرار الأمريكي، لكني ناقشت وجهات نظر مختلفة عن هذا الدور أثناء زيارة أخيرة لأمريكا ــ وبينه:

إن الفضائيات العربية أنهت قدرة أي حدث يقع في العالم العربي ــ مهما كانت درجة خطورته ــ على تعبئة راى عام متماسك وقوى لأن هذه الفضائيات حولت الوعي العربي إلى ثقوب يتسرب منها بالليل ما يجيء بالنهار.

□ وأن هذه الفضائيات سببت حالة استغناء بمشاهدة الصور عن المشاركة بالفكر أو الفعل، والنتيجة أن "العربي" مدعو كل ليلة لكي يتفرج على "مسلسلات الأحوال العربية"، وعليه أن يجلس أمام الشاشة لأنه لا يستطيع القفز داخلها للمشاركة في هذه الأحوال.

□ وأن هذه الفضائيات ربطت المشاهد العربي إلى حكايات الماضي فانشغل بها لأنها وافقت نزعة الموروث الشعبي عنده إلى القصص والحكايا.

□ وأن هذه الفضائيات بتضارب القصص والحكايا استباحت بالأهواء ما وافق غرض كل قاص وحاك حتى فقد الرأي العام العربي على اختلاف توجهاته احترامه لأي مرجعية لهم، وأهم من ذلك تصوره لأي رؤية مستقبلية تجمع!

وفي المحصلة النهائية، فإن هذا المناخ الذي اختلط فيه كل شيء بكل شيء هيأ فرصة سانحة ولعلها مثالية لعملية هدر عقلي وننسى تغرق الإرادة العربية دائخة في دوامتها وذلك كان مطلبا عزيز القوى دولية عديدة وقد نالته أخيراً سواء بذكائها أو بغفلة غيرها!]

....

....

والمدهش أن التقرير بعد ذلك يلاحظ أنه "مع أن الاقتصاديات العربية على وجه العموم فشلت في الإفادة من الجانب الإيجابي للعولمة، لأنها عجزت عن زيادة نصيبها في التجارة العالمية ــ بل إن بعضها فقد شيئاً مما كان لديه ــ فإن رياح العولمة أشاعت في المنطقة جواً من المرونة "أو من الرخاوة" مفتوحاً للتأثير. وقد امتد بعض التأثير إلى مجالات الحريات الديمقراطية وحقوق الإنسان، لكن الحكومات العربية مع اختلاف "أشكالها وألوانها" استجمعت ما لديها من سلطة لتقاوم التيارات على هذه الجهة وتصدها!"

وكان ذلك هو المدخل العام لتقرير المجموعة الرئاسية الذي قرأه أو يقرؤه أو يوشك أن يقرأه الرئيس بوش الآن، أو على الأقل يطلع على ملخصه أو يسمع شرحاً له تقوم به "الأستاذة" كوندليزا رايس مستشاره للأمن القومي.

**

وينتقل التقرير من هذه الإنجازات التي تحققت أيام آخر إدارة جمهورية "بوش الأب" وهي كبيرة بأي معيار، إلى ما حدث تحت إدارة كلينتون التي تهاونت وتراخت فإذا هو الانحراف والانحدار على منعطفات خطرة، تهوي إلى البحور المضطربة. والتقرير يعد أربعة منعطفات حدث فيها الانحراف والسقوط.

-1" إن مسيرة السلام تعطلت أمام عراقيل واجهتها، أهمها ذلك الأنفجار الشعبي الفلسطيني الذي وقع في سبتمبر سنة ٢٠٠٠ ووصل إلى درجة من العنف المتبادل بين الفلسطينيين والإسرائيليين تحول إلى نوع من حرب العصابات. وأدى ذلك إلى ضياع "فكرة المفاوضات" و"منطق الحل الوسط"، وكانت تلك الفكرة وهذا المنطق "دعامتين رئيسيتين" في عملية بناء شرق أوسط جديد!"

-2" ترتب على ذلك أن موجة من المشاعر المعادية لأمريكا اجتاحت العالم العربي وما زالت أمواجها الداكنة بالكراهية تتدفق في عواصمه حتى تلك العواصم التي تعتبر الأقرب من السياسة الأمريكية مثل القاهرة والرياض ومسقط.

وكان أن "السلام الأمريكي Paxa Americana الذي طلع على المنطقة وشاع الظن بأنه تمكن من تثبيت قواعده ــ راح يتعرض لضغوط من الرأي العام العربي حتى أن نظما صديقة للولايات المتحدة اضطرت أن تحتفظ لنفسها "بمسافة أمان" تحميها من المشاعر المعادية لأمريكا حتى لا تصل إليها تأثيراتها في مواضع قاتلة!

ومثلاً، فقد اضطر وزير الخارجية المصري ــ في ذلك الوقت ــ إلى كيل المديح لحزب الله، كما أن وزير الدفاع السعودي هدد بفرض عقوبات على الشركات الأمريكية، ثم إن رئيس وزراء الأردن قاد وفداً موسعاً إلى بغداد في محاولة لإظهار التمرد على الرغبات الأمريكية.

ومع أن الولايات المتحدة تعودت مؤخراً أن تعطي لبعض أصدقائها في الشرق الأوسط "رخص سماح" إذا هاجموا سياستها خطابياً لإرضاء جماهيرهم ــ فإن هذه الأزدواجية لها آثارها الخطرة، وأولها أن يتحول "التظاهر" بالعداء لأمريكا بكثرة تكراره إلى سياسة ولو باللاوعي. وثانيها أن "الشارع العربي" قد يستعيد قدرته في الضغط على الحكومات المعتدلة مما يعرض هذه الحكومات لمخاطر حقيقية".

3"ــ ولقد كان أخطر المنعطفات التي تعثرت عندها "المسيرة" ــ أيام "كلينتون" ــ أن تحالف حرب الخليج أخذ يترنح، وأظهر الأعراض أن شعوراً عاماً ساد في العالم العربي مؤداه أن شعب العراق دفع ثمناً "لا يمكن قبوله أو الاستمرار في قبوله"، وبالتالي فإن تحالف حرب الخليج فقد الهدف المشترك الذي قام عليه في البداية. ثم إن السياسة الأمريكية حاولت أن تواصل التصرف تحت غطاء تفويضه حتى تتمكن من "احتواء النظام في العراق وتطويقه وإسقاطه".

وفي اللحظة الحالية فإنه يتبدى أن الولايات المتحدة في محاولتها لتحقيق مطلبها في العراق لم تعد تجد نصيراً لها إلا داخل حدود الكويت، وهذا وضع بالغ الخطورة خصوصاً إذا ترافقت معه ــ بسبب تدهور الأوضاع وتزايد العداء لأمريكا ــ عودة إلى نوع من الاتصال بين "شئون البترول" وقضايا الصراع العربي الإسرائيلي".

- 4"وفي تداعيات ذلك وغيره تسللت عائدة إلى المنطقة قوى كان الواضح ــ في أواخر عهد الإدارة الجمهورية السابقة "بوش الأب" ــ أنها خرجت من المنطقة إلى غير رجعة.

□ وأولى هذه القوى هي روسيا، وخطر عودتها إلى دور فاعل في الشرق الأوسط ظاهر على ناحيتين:

- من ناحية: فهي قادمة مع توريد أسلحة محظورة لبعض بلدان المنطقة التي يزداد فيها العداء للولايات المتحدة وبينها إيران والعراق وسوريا.

- وعلى الناحية الثانية: فإن روسيا تعرقل فرض نظام جديد للعقوبات على العراق يحل محل نظام سبق لأن النظام الجديد أذكى وهو قادر على إنقاذ الشعب العراقي وتصفية نظام الحكم في بغداد.

والمناخ السائد في المنطقة يعزز عودة روسيا ويمكنها من تسويق حججها من ناحية توريد السلاح وناحية عرقلة العقوبات".

"فمن ناحية توريد السلاح تدعي روسيا بأن لها علاقات وصداقات تقليدية في المنطقة لعب فيها السلاح دوراً كبيراً، مع أن واقع الأمر يقول إن الولايات المتحدة الأمريكية هي أكبر مورد سلاح في المنطقة ونصيبها في تجارته مقارناً بنصيب روسيا تسعة إلى واحد، مع العلم بأن الذين يشترون السلاح من أمريكا يدفعون مقدماً ونقداً وأما الذين يشترونه من روسيا فدفعهم مؤجل وهو بالتقسيط المريح!

وفيما يتعلق بالعقوبات الجديدة فإن روسيا قادرة على القول بأن النظام المقترح ليس ذكياً، لأنه لا الحكم الحالي في العراق ولا أي حكم غيره يحتمل ان تجيء به الظروف إلى ذلك البلد ـ يستطيع قبول الفكرة الرئيسية في هذا النظام وهي تقوم على نزع وجود الدولة أصلاً عن العراق لأن نظام العقوبات الذكية يبدأ من قرار يؤكد وضع كل عائدات العراق من النفط رهن تصرف الأمم المتحدة، هي تبيع وهي تحصل وهي تخصص وهي تعطي لمن تشاء بما في ذلك أي نصيب تخصصه للعراق: شعبه أو حكومته!

□ "وراء روسيا عادت الصين، بل هي الآن في موقف أقوى لأنها على علاقة تقليدية مع العالم العربي وعلى علاقة مستجدة ـ تتسع ـ مع إسرائيل، وهذا يعطي للصين مصداقية القيام بدور لاعب مهم في الشرق الأوسط يساعدها عليه أنها واحدة من الدول دائمة العضوية في مجلس الأمن.

□ لكن الجزء الخطر في نشاط الصين في المنطقة هو تلك العلاقات النامية والمتمددة دون صخب بين الصين وإيران".

□ "والقادم الثالث على طريق العودة، بعد روسيا والصين، هو أوربا، ومع أن أوربا حليف طبيعي للولايات المتحدة إلا أن أوربا في جزء من طموحها ومصالحها منافس للولايات المتحدة على موارد المنطقة وعلى أسواقها ، فإذا أضيف إلى ذلك ان بعض الدول الأوربية وبالذات فرنسا لها مشروعات مستقلة ولها أغراض خاصة بها، فإن عودة أوربا على هذا النحو إلى المنطقة هي في هذه الظروف ـ تفتح ثغرات يمكن للبعض استغلالها لتوسيع دائرة المناورة والحركة بما يساعد القوى المعادية للسياسة الأمريكية".

**

ويصل التقرير إلى نقطة حساسة حين يشير إلى أن الإدارة الديمقراطية السابقة أساءت التقدير، وأساءت التصرف بالأسلوب الذي اتبعه "الرئيس كلينتون" شخصياً حين تصور لنفسه مقدرة التصدي لأزمة الشرق الأوسط وساعده على هذا التصور أنه كان يبحث لنفسه عن مجال يعوض فيه بنجاح غير مسبوق فضيحة هي الأخرى غير مسبوقة..

والحقيقة ـ كما يرى التقرير ـ أن "بيل كلينتون" رأى الصعوبات والعقبات ومهاوي الهلاك التي وصلت إليها أحوال المنطقة. لكن "كلينتون" وقع في خطأ عمره عندما ظن أنه يستطيع تقليد رئيس ديمقراطي سبقه ـ "جيمي كارتر" "١٩٧٧" ـ بممارسة دبلوماسية شخصية على نحو ما قام به "كارتر" "مع "أنور السادات" و"مناحم بيجين" " في كامب ديفيد "سنة ١٩٧٨". وهنا يشير التقرير أن كلينتون نسى عدة فوارق كبيرة تتعلق بالحقائق وبالظروف وبالناس. بمعنى أن "جيمي كارتر". في تجربته ـ مارس الدبلوماسية الشخصية بين أهم دولتين في المنطقة: أكبر دولة عربية تاريخياً وهي مصر، وأقوى دولة عسكرياً في اللحظة الحالية وهي إسرائيل. وكذلك فإن "كارتر" مارس دبلوماسيته مع رجلين كلاهما وراءه سند من نوع ما. "فأنور السادات" وراءه "أمل سلام" يعقبه رخاء للشعب المصري ـ و"مناحم بيجين" وراءه" "أمل أمن" يترتب عليه تحقيق شرعية قانونية لدولة إسرائيل. وترافق ذلك مع ظاهرة أن الدبلوماسية الشخصية كانت بدعة مثيرة جديدة وبراقة في تلك الأيام قبل ربع قرن. أما الآن فإن الصورة

مختلفة ــ وأسوأ من ذلك أن كل المقولات التي بنى الأطراف عليها مقولاتهم تمت تجربتها. لأن السلام الذي طلبه "أنور السادات" لم يتحقق ــ والأمن الذي طلبه "مناحم بيجين" لا يزال معلقاً في الهواء.

لكن "بيل كلينتون" ــ على أيامه ــ، لم يدرس "الأحوال" ومتغيراتها بالعمق الكافي، وهكذا فإنه وهو رئيس الولايات المتحدة ــ وجد نفسه يتفاوض مع رؤساء مليشيات ومسئولين أمنيين في المخابرات والشرطة. وبالتالي فإنه على طريق طويل من "كامب دافيد" إلى "واي ريفر" إلى "شرم الشيخ" قام بعملية "بهدلة مهينة" لنفسه ولمنصبه ولبلاده ضيعت هيبة أكبر بلد في التاريخ وفي الدنيا، ومع ذلك لم يتوصل إلى نتيجة لأن "مجرد تورطه مع نوعية الناس" الذين "تفاوض" معهم، "ومجرد تنازله إلى التفاصيل التي رضى بالبحث فيها" ــ حوّل رئيس الولايات المتحدة في النهاية إلى رهينة يتحكم في نجاحها أو فشلها رجال قادمون من الظلام وعائدون إليه، وكلهم ممن لم يكن يجوز من الأصل أن يلقاهم رئيس الولايات المتحدة مهما كانت الظروف.

وللتذكرة فقد استعاد كاتبوا التقرير أن الولايات المتحدة كانت تجري اتصالاتها مع منظمة التحرير الفلسطينية أيام كانت منفية في تونس وذلك بواسطة سكرتير ثان في سفارتها هناك. وعندما استجابت المنظمة لكافة الطلبات الأمريكية ــ كافأتها الولايات المتحدة بقرار من وزير الخارجية "جورج شولتز" يسمح للسفير الأمريكي في تونس بلقاء مسئولين من المنظمة علنا وبصورة رسمية ــ واعتبرت المنظمة ذلك القرار في وقته "حلما تحقق".

وفي عهد "كلينتون" تنازلت هيبة الولايات المتحدة إلى حد أن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية قاد بنفسه عملية الاتصال، والتقى وتحادث وتفاوض، ورفع الكلفة بينه وبين عشرات من الرجال لم يعرفهم وناداهم جميعاً بأسماء الشهرة التي ظهروا بها في العمل السري "أبو كذا" و"أبو كذا"، وقد سهر مع بعضهم يتكلم حتى الصباح، ومع ذلك فقد خرجوا من أمامه دون أن يوقعوا على ما طلب منهم بل راوغوه ثم زاغوا منه.

ويرى واضعو التقرير الرئاسي ــ والأمر كذلك ــ أن الولايات المتحدة يجب أن تستعيد هيبتها، ثم إن أي مسئول فيها ــ وحتى تحت مستوى الرئيس ــ يجب أن يعود إلى سياسة التعامل عن بعد ومن علٍ.

....

....

[لم يتطرق التقرير الرئاسي إلى أسلوب كانت الولايات المتحدة الأمريكية وساساتها يتبعونه مع معارفهم وأصدقائهم من العرب ــ ولا يزالون ــ باستثناء كلينتون الذي تعامل بأسلوب مختلف ولكن بمضمون لم يختلف.

ومؤدى ذلك الأسلوب أنه "لا بد من وضع مسافة واضحة بين أي علاقات ألفة ومجاملة استعدادتها ظروف وعلاقات سابقة، وبين أوضاع مستجدة لها اعتباراتها، لأن كثيرين من العرب لديهم الاستعداد ــ ولاسبابهم ــ كي يخلطوا بين العام والخاص".

وفي ذاكرتي واقعة معبرة عن فرط تخوف بعض الساسة الأمريكيين من معارفهم العرب إلى درجة الفظاظة، وقد تابعت الواقعة بنفسي حين أصبح "جورج شولتز" وزيراً للخارجية في إدارة ريجان بعد خروج "الكسندر هيج".

أيامها كان "جورج شولتز" عضوا في مجلس إدارة شركة كونسوليدت العربية للمقاولات الذي يرأسه المليونير الفلسطيني "حسيب صبّاغ" وهو صاحب أكبر نصيب في الشركة، وكانت مكافأة "شولتز" مائة ألف دولار سنوياً عن ثلاثة اجتماعات يحضرها في السنة.

وبعد عدة أسابيع كان "حسيب صباغ" يرتب زيارة لأمريكا وخطر له وهو يرتّب برنامج سفره أن يطلب مقابلة صديقه وزميله السابق في مجلس إدارة شركته "جورج شولتز" فبعث إليه برسالة شخصية، وفي اليوم التالي تلقى "حسيب صباغ" رداً من سكرتيرة الوزير "شولتز" تحيطه علماً بأن الأوضاع تغيرت:

- صداقته الشخصية مع شولتز متوقفة طالما هو في منصبه.
- المرجو منه أن لا يتصل مباشرة بالوزير أو بمكتبه، ولا يطلب مواعيد معه لأن مجال نشاطه مما لا يشمله اهتمام الوزير حاليا.
- وإذا كان لديه ما يقوله، فإنه يستطيع أن يبعث به إلى مكتب وزير الخارجية كما يفعل أي مواطن في أي بلد في العالم].

....

....

3ـ افصل ما بين البترول وفلسطين!

صلب التقرير الرئاسي كلام صريح موجّه للرئيس "جورج بوش" يخاطبه مباشرة بـ: لا تفعل ذلك ـ وافعل ذاك، وتنبه هنا ـ وحاذر هناك.

وأول المنهي عنه بالتصريح والتلميح مسألتان:

○ المسألة الأولى خطاب للرئيس: لا تخلط في منطقة الشرق الأوسط ـ أو ما يسمى كذلك اصطلاحاً ـ بين "نطاقين استراتيجيين" لأنه لا بد أن يظل كلٌّ منهما مستقلا بذاته وبعيدا عن الآخر:

الخليج وما حوله ناحية ـ وفلسطين وما حولها ناحية أخرى "بمعنى ضرورة الفصل في سياساته ما بين إسرائيل وبين البترول"، والاعتبار أن الخليج قضية وفلسطين قضية أخرى والمزج بين الاثنين يخلق تفاعلات تنشأ عنها شحنات خطر يصعب تقديرها.

يضاف إلى ذلك أن الفصل بين النطاقين هو الضمان لإحكام السيطرة على إدارة كل واحد منهما في حدوده المعينة وفي إطار المحسوب.

○ والمسألة الثانية خطاب للرئيس أيضاً: لا تقع في الأخطاء التي وقع فيها "كلينتون" قبلك.. بمعنى أن عليك أن تحتفظ لنفسك بمسافة كافية تبعدك عن التناول المباشر لأزمات الشرق الأوسط وتحميك من التفاصيل وتحفظ للرئاسة مهابتها.

لكنه فيما يتعلق بقضية الخليج تستطيع أن تقترب أكثر بحكم حجم المصالح وخصوصية الأطراف التي تتعامل معها الولايات المتحدة.

[وهنا يظهر معنى الاتصال ـ الذي سبقت الإشارة إليه ـ بين بوش الأب وبين الأمير عبد الله ولي عهد السعودية مباشرة، ومن أثره أن الأمير عبد الله عرفَ مبكراً وتفهم أن الرئيس الجديد "الابن" ليس مستعداً بعد لموسم زيارات الربيع التي يتسابق إليها أمراء ورؤساء المنطقة على طرق السفر إلى واشنطن].

....

....

[وهكذا فإنه لم يكن في برنامج الأمير عبد الله زيارة لواشنطن تحدد موعدها ثم تأجل غضبا أو احتجاجاً، وإنما كان هناك من البداية وعلى مستوى البيت الأبيض اتفاق على موعد متفق عليه يحل لاحقاً إلى خريف قادم ٢٠٠١ أو ربيع ٢٠٠٢].

....

....

وتتضح هنا نتيجة واضحة لها مقدمات جلية ومؤداها أن التعامل مع النطاق الإستراتيجي للخليج وما حولها هو اختصاص يقوم عليه البيت الأبيض، لأن تفاعلات هذا النطاق ـ خصوصاً إذا غاب عنها تأثير نطاق فلسطين وما حوله ـ تفاعلات محكومة ومضبوطة. وليس من المحتم أن يقوم الرئيس بنفسه بالتعامل مع نطاق الخليج ـ

فالاحتفاظ له في كل الأحوال بمسافة عازلة مطلب قائم ودائم ـ وإنما يمكن من البيت الأبيض ـ من البيت الأبيض باستمرار ـ أن يقوم بالاتصال "ديك تشيني" نائب الرئيس، كما يمكن أن يساعد فيه وزير الدفاع "دونالد رمسفيلد" لأن قوات الخليج ـ وهي الضامن الأول والأخير لأمن الخليج ـ في دائرة اختصاصه وتحت سلطته المباشرة.

أما فيما يتعلق بالنطاق الإستراتيجي الآخر "وهو فلسطين وما حولها" فهو نطاق يستحسن التعامل معه من بعيد، وفي كل الأحوال من خارج البيت الأبيض أي من وزارة الخارجية أو إدارة المخابرات المركزية حسب ما تقتضيه الظروف. وعلى أرض الواقع فإن وزارة الخارجية لها سفير دائم مكلف بنقل الرسائل بين الأطراف، كما أن وكالة المخابرات المركزية قائمة على ترتيبات فاعلة ومؤثرة!

**

يدخل صلب التقرير بعد ذلك مباشرة مقترحاً على الرئيس توصيات يأخذ بها في سياساته وقراراته.

***التوصية الأولى:**

"عليك" أن تمنع نشوب حرب إقليمية في الشرق الأوسط.. وسائلك إلى ذلك على النحو التالي:

○ عليك أن تؤكد طول الوقت أهمية تحالفنا الإستراتيجي غير المكتوب مع إسرائيل وحتى يفهم الجميع بغير التباس أن القوة الأمريكية غالبة وأن إسرائيل "شريك" إستراتيجي لنا.

○ عليك أن تستغل وتستعمل الدول العربية المعتدلة "خصوصاً مصر والأردن والمغرب والسعودية" وذلك لتشجيع طرح مبادرات وعرض صيغ تبقى عملية التسوية مفتوحة طول الوقت.

○ عليك أن تواجه المعارضين لسياستنا الحاليين والمحتملين ـ بسياسية رادعة. وهنا فعليك أن تتأكد أن سوريا ـ تحت قيادة بشار الأسد ـ تدرك أن تشجيعها لعمليات حزب الله سوف تستثير ردود فعل ضرورية تعرض سوريا لضربات إسرائيلية موجعة.

وفي هذا المجال فإن عليك أيضاً إفهام بغداد بأن إقترابها أو تداخلها في الصراع العربي ـ الإسرائيلي لا يمكن السماح به. وأن الولايات المتحدة ترقب محاولات العراق لتخويف وابتزاز الأردن، كما لا يستطيع العراق أن ينتهز فرصة زيادة التوتر في فلسطين ويجرب القيام بعمليات تعزيز سلطته في مناطق الأكراد.

○ عليك أن تطلب وفوراً توقف أعمال العنف بين الفلسطينيين وإسرائيل وعليك أن تجعل الطرفين "!" يدركان دون التباس أن "الالتزام بمسيرة السلام" وهو وحده المبرر الذي يبقى الولايات المتحدة طرفاً فيها وإذا لم يتأكد ذلك فإن كل طرفه عليه أن يتحمل عواقب تهاونه "في طرف وقف العنف" وعقوبة تأخره في العودة إلى مائدة المفاوضات "بغير تضييع للوقت".

***التوصية الثانية:**

"عليك" أن تعيد تقييم تجربة المفاوضات بين الفلسطينيين والإسرائيليين بما في ذلك تجربة "أوسلو" حتى تتضح خطواتك نحو التسوية وتبين أمامك.. وسائلك إلى تحقيق ذلك على النحو التالي:

○ عليك أن تقرر ـ بعد استكشاف مواقف الإسرائيليين والفلسطينيين ـ إذا كانت الجهود التي بذلت في الأسابيع الأخيرة من إدارة كلينتون وتحت إشرافه تستطيع توفير أساس تقوم فوقه إضافات ترتفع به إلى المستوى اللازم ـ أم أن ذلك الجهد كان مضيعة للوقت وبالتالي تفض يدك منه ومن نتائجه.

○ عليك أن تقرر هدفاً لتدخل إدارتك في هذه الأزمة فإما أن تختار البحث عن حل دائم ـ أو تكتفي بسياسة خطوة خطوة مرة أخرى.

○ عليك أن تقوم بتحذير الطرفين من قيام أي منهما بعمل منفرد أو التهديد بعمل منفرد ولا بد أن يعرف الفلسطينيون دون أدنى شك أنك لن تقبل إعلان قيام دولة فلسطينية من طرف واحد ـ كما أنه لا بد أن يعرف الإسرائيليون أنك لن تقبل بعملية فصل كامل بين الشعبين.

○ عليك أن توضح أمام كل من الطرفين أن الولايات المتحدة ليست لها مصالح ملحة تريد ضمانها من توصل الطرفين إلى تسوية ـ وإذا تم فصل نطاق الخليج عن النطاق الفلسطيني الإسرائيلي ـ فإن مصالح الولايات المتحدة في التسوية النهائية بينهما محدودة وكل ما تريد الولايات المتحدة تحقيقه هو وضع نهاية للصراع تبقى الأماكن المقدسة هناك مفتوحة لأتباع كل الأديان. وليس لإدارتك أن تقدم أية "مقترحات أمريكية" لحل عقد مستعصية وإن كان بمقدورها أن تفعل ذلك بشرطين:

1 ـ أن يطلب الطرفان تدخلها بتقديم صيغة حل.

2 ـ وأن يتعهد كلاهما بقبول الصيغة التي تقدمها.

○ عليك إعلام الطرفين بكل الوسائل أن التفاوض هو مسئولية الأثنين وحدهما وأن إدارتك مع استعدادها لأن تتابع عملية التفاوض ليست مستعدة لأن تكون طرفاً فيها.

وفي كل الأحوال فإنك بهيبة الرئاسة لا تستطيع أن تتدخل في مثل هذه المفاوضات ومن الأفضل:

1 ـ ترك المهمة لوزارة الخارجية.

2 ـ تفعيل دور وكالة المخابرات المركزية.

3 ـ موقفك بصفة عامة: اقترب من الأزمة عند الضرورة ولكن لا تأخذها في أحضانك مهما كانت الظروف!

***التوصية الثالثة:**

تستطيع السماح لأطراف دولية غير الولايات المتحدة ببذل جهود لتخفيف حدة التوتر في الإقليم.. وسائلك إلى ذلك على النحو التالي

○ عليك أن تتعاون في هذا الصدد مع الأمم المتحدة والاتحاد الأوروبي ويكون طلبك من الجميع أن يعملوا بجد على استعادة الهدوء في الإقليم دون أن يتجاوز أي طرف من هذه الأطراف الدولية ويسمح لنفسه بالتدخل في عملية التفاوض المباشر.

○ عليك دفع الدول الإقليمية الموالية لك ـ وخصوصاً مصر وتركيا ـ للوصول إلى العالم العربي والعالم الإسلامي وتخفيف أية احتقانات تحصل سواء لدى الشعوب أو لدى القادة.

○ عليك أن تجعل مقاومة التحريض بين أولويات مطالبك، وهنا فإنه لا بد من التأثير ـ بأي طرق تراها ـ في الرأي العام العربي والإسلامي، ومن المهم تشجيع الحوار على كل المستويات بين الإسرائيليين وبين العرب والمسلمين.

○ عليك أن تعمل على استئناف المفاوضات المتعددة الأطراف؛ فمثل هذه المؤتمرات تساعد عملية السلام أو تخفف التركيز عليها "أي تنتقل من السياسة إلى الاقتصاد ومن لغة الإثارة إلى لغة المصالح".

○ عليك أن تتشاور مع الدول المنتجة للنفط لكي تقدم بعض المساعدات للاقتصاد الفلسطيني، ولفت نظرهم إلى أن ارتفاع أسعار البترول يجعل مثل هذه المساعدة بلا تكلفة زائدة، ثم إن مثل هذه المساعدة تستطيع تغطية انسحاب دول النفط سياسياً من تعقيدات الأزمة "في فلسطين".

***التوصية الرابعة:**

"عليك" أن تهتم بمثلث سوريا ـ لبنان ـ إسرائيل، وتشجيع عملية "تغيير" في سوريا ولبنان تفتح الباب لمفاوضات قد ترى أنك تستطيع توجيهها.. وسائلك إلى ذلك على النحو التالي:

○ عليك تقوية إمكانيات الردع الإسرائيلي لأن ذلك وحده هو ضمان تحجيم إمكانيات حزب الله في شن هجمات صاروخية على شمال إسرائيل. ومن المهم إبلاغ كل الأطراف باعتقادك أن إسرائيل تملك مشروعية الدفاع عن نفسها بالوسائل التي تقدرها ومن الضرورة أن تدرك سوريا ـ نقلاً عنك مباشرة ـ أنها سوف تصاب بأضرار جسيمة إذا سمحت بتحويل مواقع الحدود الإسرائيلية ـ اللبنانية إلى منطقة عمليات عسكرية. وهنا فلا تشجع إسرائيل على استهداف المدنيين عند قيامها بعمليات الردع العسكري.

○ عليك تأييد موقف السكرتير العام للأمم المتحدة في اعتبار أن الانسحاب الإسرائيلي من جنوب لبنان هو وفاء من جانبها بشروط قرار مجلس الأمن ٤٢٥. ولابد للبنان أن يعرف أنك تربط بين أي مساعدات أو استثمارات لإعادة إعمار لبنان بشرط انتشار الجيش اللبناني على الحدود مع إسرائيل والبدء في نفس الوقت بنزع سلاح حزب الله.

○ عليك استكشاف الفرص المتاحة في سوريا جرب إذا كان في مقدور الرئيس السوري بشار الأسد ان يقوم بجهد في تحسين علاقاته مع الولايات المتحدة. معيار قياسك لحسن نواياه هو الطريقة التي يتصرف بها إزاء لبنان وإزاء قضية الإرهاب "حزب الله!".

○ عليك ان تتحرك بنشاط أكثر في لبنان وذلك عن طريق تشجيع مطالبة اللبنانيين بحرية أكبر، وذلك لفك القبضة السورية عن الشئون اللبنانية، وتستطيع أن تقنع الحكومة اللبنانية بأن تأخرها في إرسال جيشها إلى حدودها الجنوبية ـ سوف يفرض عليك أن تعيد توجيه المساعدات الأمريكية للبنان.. لا تقدم مساعدات للجيش اللبناني.. وجه مساعداتك إلى دعم النواحي الإنسانية ومنها منظمات حقوق الإنسان والهيئات العلمية والمدنية وأي نشاط لمؤسسات المجتمع المدني في لبنان!

***التوصية الخامسة:**

○ عليك أن تمنع تواجد أسلحة متقدمة بما في ذلك أسلحة الدمار الشامل في ترسانات دول المنطقة، وعليك أن تحول دون انتشار هذه الأسلحة وبالتأكيد دون استخدامها.. وسائلك إلى ذلك على النحو التالي:

○ عليك إيجاد توافق دولي إقليمي على منع انتشار أسلحة الدمار الشامل، وليكن ذلك عن طريق التفاوض والتفتيش وغير ذلك من الوسائل الضرورية لبناء الثقة.

○ عليك أن تكون متأهباً للرد بقوة على أية مخالفة، ولا بد أن تكون مستعداً على سبيل المثال لاستخدام قوة عسكرية طاغية ضد العراق إذا حاول إعادة بناء ترسانته العسكرية. ومن الأفضل أن ترتب لمثل هذا الاحتمال عن طريق الأمم المتحدة ـ أو عن طريق تحالف حرب الخليج السابق، وإذا استحال ذلك فعليك أن تكون جاهزاً للعمل مع عدد قليل من الأصدقاء يدركون الخطر العراقي، ويتابعون خططه في مجالات الأسلحة الكيميائية والبيولوجية والنووية.

○ عليك ردع إيران عن امتلاك أية أسلحة متقدمة، والمهم في حالة إيران أن تكون إجراءاتك ضد القيادة الإيرانية وبدون تأثير على الشعب الإيراني "لأن إيران حليف قوى إذا سقط نظام الثورة الإسلامية".

○ عليك تشجيع فكرة إقامة نظام دفاعي صاروخي تقوم عليه الولايات المتحدة بالشراكة مع بعض الأطراف في المنطقة، ولتكن البداية بمجموعة دول مجلس التعاون الخليجي، وبعد ذلك تنضم الأردن ومصر وتركيا، وعندما تتهيأ الظروف تنضم إسرائيل. ولذلك فمن المهم تشجيع تركيا والأردن وغيرهما من الدول الصديقة في المنطقة على استعمال الصاروخ أرو" الذي تنتجه إسرائيل بالتعاون مع الولايات المتحدة".

***التوصية السادسة:**

عليك أن تبذل كل الجهود لمقاومة الإرهاب، فهذا هو الخطر الأكبر في المنطقة ذاتها ومنها إلى غيرها.. وسائلك إلى ذلك على النحو التالي:

○ عليك أن تدرس قصص النجاح التي شهدتها المنطقة في مجال مقاومة الإرهاب، وأهمها تجربة تركيا في التعامل مع حزب العمال الكردي، وتجربة مصر في التعامل مع الجماعة الإسلامية.

○ عليك أن تعمل على عزل ميدان العمليات الإرهابية وخطرها عن مجرى عملية السلام وتقلباتها، وعليك أن تجعل الأطراف ــ خصوصاً الأردن والسلطة الفلسطينية ــ يدركون أن السماح بصلة بين عمليات الإرهاب وعملية السلام سوف يكلفهم غالياً، وأول التكلفة أن يخسروا صداقة الولايات المتحدة.

○ عليك تشجيع أوسع لتعاون دولي وإقليمي ممكن لمواجهة خطر الإرهاب خصوصاً من شبكات التطرف الإسلامي. تدخل بدور نشيط في مقاومة الإرهاب بواسطة التنسيق بين أجهزة المخابرات، وشجع على تبادل المعلومات سرا لأن هناك دوائر في العالم العربي والإسلامي على استعداد للتعاون، لكنها لا تريد لأحد أن يسمع ما تقول أو يرى ما تفعل. لاحظ وجود مكامن للإرهاب في إيران وباكستان واليمن وأفغانستان. ولك أن تتذكر أن في أوروبا دولاً قادرة على مساعدتك في هذا المجال.

○ عليك تقدير وسائلك في العمل المباشر ضد الإرهاب دون أن تتردد لأي اعتبار، وعلى سبيل المثال فنحن نعرف أن بعض مدبري انفجار الخبر "في السعودية" موجودون في إيران. لا تتردد في إعلان عزمك على استخدام القوة ضد معاقل الإرهاب أينما كانت ــ وأعط لعزمك مصداقية فعلك!

***التوصية السابعة:**

عليك أن تكون مستعداً للقيام "بإجراءات نهائية" ضد القوى التي تهدد المصالح الأمريكية في المنطقة، وأولها العراق وإيران.. وسائلك إلى ذلك على النحو التالي:

○ عليك تشجيع التغيير في إيران وفي العراق، وعليك ان تلاحظ أن التغيير في إيران يمكن أن يتم بوسائل سياسية، وأما التغيير في العراق فلا يمكن أن يتم بوسائل سياسية؛ ومعنى ذلك أن التغيير في إيران يمكن أن يتم من الداخل، وأما التغيير في العراق فيقتضي دعماً من الخارج لثورة بالعنف أو انقلاب من الداخل. ولتسهيل التغيير في العراق وتقليلاً لتكاليف العنف الملازم له يستحسن إشغال صدام حسين وتشتيت انتباهه على أكثر من جبهة واحدة.

○ عليك تقدير ردود فعلك العسكري مبكراً إزاء أي تطور يحدث في العراق:

- في حالة قيام تمرد ضد النظام في بغداد.
- في حالة تعرض صدام حسين للكيانات ذات الاستقلال المحلي في المناطق الكردية شمال العراق.
- في حالة رفض صدام حسين نهائياً محاولات إعادة الرقابة والتفتيش على برامج تسليح العراق.

وفي كافة هذه الحالات ليس هناك ما يمنع من أن يكون صدام حسين على علم بـرد فعل الولايات المتحدة وتصرفها إزاء كل حالة، ويجري ذلك بالتوازي مع إعادة بناء إمكانية مالية وعسكرية وتكنولوجية لقوى المعارضة العراقية، على أن تكون هذه القوى على علم أكيد بحجم الدعم الذي يمكن أن تقدمه لها الولايات المتحدة في كل ما تقوم به من أجل نظام ديمقراطي في عراق ما بعد صدام حسين.

○ عليك أن تشجع المعتدلين في إيران ضد المتطرفين، وأن تصل من وراء الاثنين مباشرة إلى الشعب الإيراني: شجع السياحة بين إيران والغرب ــ شجع القطاع الخاص في إيران ــ ابحث عن قنوات لحوار مع القوى الديمقراطية في إيران.

***التوصية الثامنة:**

بصرف النظر عن الموجة المعادية لأمريكا ــ وهي تجتاح المنطقة الآن ــ فإن عليك أن تعزز التيارات والمواقع الموالية للسياسة الأمريكية.. وسائلك إلى ذلك على النحو التالي:

○ عليك أن تتأكد باستمرار من أنه ليس هناك "تآكل" ــ حتى بالتواكل ــ في علاقاتك في المنطقة.

○ عليك أن تشجع عملية واسعة للتعريف بالقيم الأمريكية والديمقراطية الأمريكية والممارسة السياسية في أمريكا.

○ عليك أن تعمل على ظهور قيادات جديدة صديقة لأمريكا وقادرة على إجراء إصلاحات توفر لها "لهذه القيادات" شرعية مقبولة.

○ عليك تشجيع الاتجاه نحو الديمقراطية وحماية حقوق الإنسان، وفي هذا الميدان فإن عليك أن "تفكر بجرأة وتتصرف في حذر" لأن عملك في هذه المجالات يمكن أن يخلق حساسيات تعطل جهودك. ركز على مصر باعتبارها أكبر دولة عربية. ركز على السلطة الفلسطينية لأن قضية فلسطين موجودة في كل بلد عربي، وهناك احتمالات واسعة لتطورات ديمقراطية مهمة في "عصر ما بعد عرفات"!

....

....

[تلفت النظر في هذا الموقع من تقرير المجموعة الرئاسية للشرق الأوسط عبارة "عصر ما بعد عرفات".

وتلك إشارة مبكرة أو متأخرة إلى نقاش طويل دار في واشنطن أثناء الزيارة الأخيرة التي قام بها رئيس الوزراء الإسرائيلي "آرييل شارون" إلى واشنطن. وكانت هذه الزيارة في أعقاب التفجير الكبير في ملهى ليلي إسرائيلي قرب تل أبيب "قتل فيه ١٦ وجرح ٤٩ إسرائيلياً"، وأبدى "شارون" عزمه على توجيه ضربة قاصمة للسلطة الفلسطينية تكسر أو تنهي وجودها في غزة.

وطرح "شارون" ــ ضمن ما طرح ــ اقتراحاً بتصفية "ياسر عرفات" أو طرده من غزة وكان رأي وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ــ وكان مديرها "جورج تنيت" يشارك في النقاش "إن التفكير في تصفية "عرفات" ــ على الأقل في الظروف الراهنة ــ خطر مؤكد ذلك أنه إذا تمت تصفيته جسدياً فذلك يحوله إلى شهيد تحارب أعلامه حتى بعد موته، وإذا جرى طرده من غزة بالقوة فذلك سوف يحوله إلى بطل يلتف حوله الجميع حتى في المنفى. وكان تقدير "تنيت" أن "عرفات" ما زال له دور يؤديه ولا داعي "لحرق المراحل" بتصرفات متسرعة وغير مضمونة.

وكان تقدير "تنيت" بعد ذلك أنه عندما تنشأ ضرورة "عصر ما بعد عرفات" فإنه من الأفضل إزاحة الرجـل دون عنف مع إبقاء السلطة الفلسطينية كجهة يمكن التعامل معها ولو في مطالب ضبط الأمن. وبالتالي فلا بد من إيجـاد "بديل لعرفات" يقبل بالمهمة ويستعد لها وبحيث يبدو "عصر ما بعد عرفات" نوعاً من التغيير الطوعي الفلسـطيني وليس نوعاً من التغيير القسري الإسرائيلي "طرح أحد مسئولي المخابرات المركزية ثلاثة أسماء يمكن اختيار أحدهم مرشحاً لمسئولية "عصر ما بعد عرفات" " ثم عادت المناقشة إلى سياقها باقتراح أنه عندما تجيء ساعة "عصر مـا بعد عرفات" فإن هذا العصر يمكن أن يبدأ بقدر معقول من حسن السياسة وحسن الإدارة وذلك أمر له سـابقة فـي السياسة العربية من قبل وهي سابقة يمكن تقليدها حتى مع اختلاف الظروف.

وكانت السابقة التي وقعت الإشارة إليها في هذا النقاش في واشنطن ــ أثناء زيارة "شارون" ــ هي ما جرى مـع الرئيس "جعفر نميري" عندما قام في السودان انقلاب عسكري عليه أثناء غيابه عن الخرطوم ما بين أمريكا وأوربا، تاركاً مسئولية الأمن معلقة بثقته في ولاء الفريق "سوار الذهب". وعندما علم "جعفر نميري" بـأمرالانقلاب سـارع بطائرته عائداً إلى بلاده، ثم عرف عند وصوله إلى القاهرة أن نائبه الفريق "سوار الذهب" انضم إلـى الانقلابيـين، وبدا أن ذلك زاده إصراراً على مواصلة السفر إلى الخرطوم لينتقم من الجميع: الانقلابيين و"سوار الـذهب" لكـن جعفر نميري تلقى في مطار القاهرة من الرئيس "حسني مبارك" وعلى امتداد ساعتين في استراحة الرئيس "نصيحة ودية" تطرح عليه أفضلية البقاء في القاهرة" وتجنيب السودان وجيشه محنة انقسام مؤكد إذا أصر علـى مواصـلة السفر إلى الخرطوم بطلب الانتقام.

وكان الرأي في مناقشات واشنطن أن هذه السابقة يمكن "تقليدها" مع "عرفات" كما سبق مع "نميري". وبالتالي فإن عصر "ما بعد عرفات" له أن يبدأ من "نصيحة ودية" بدلاً من عنف قد يكون دموياً وقد ينتج عنه دون مبرر شهيد أو بطل في حين أن "نميري" تحول بعد سنوات من المنفى في القاهرة من "مطالب بالانتقام" إلى "مطالب بالعفو"!].

....

....

وتتوالى توصيات المجموعة الرئاسية موجهة نصائحها للرئيس "جورج بوش" "الابن".

***التوصية التاسعة:**

"عليك" أن تهتم بتقوية قواعد ووسائل عملك في الشرق الأوسط لمواجهة أية احتمالات تنشأ دون أن يفاجئك منها شيء.. وسائلك إلى ذلك على النحو التالي:

○ عليك أن تعرف أن إسرائيل هي الركيزة الأولى لضمان أمن الإقليم، والتحالف الأمريكي مع إسرائيل بالفعـل وبالقول هو القاعدة المتينة لكل الخطط والسياسات، والحقيقة فإن قوة الشراكة بين البلدين هي أداة الفعل الرئيسية في المنطقة، ولا بد أن تكون العلاقة بين الطرفين "الأمريكي والإسرائيلي" نظيفة من أي سبب للتوتر.

○ عليك ــ للاستفادة القصوى من هذه الحقيقة الاستراتيجية ــ أن تكفل لإسرائيل "تفوقاً نوعيــاً" متجــدداً طــول الوقت على كل الأطراف العربية، وهنا فإن عليك أن تقاوم وترفض بشدة كل محاولة من جانب أي طرف عربــي يطلب أو يسعى للتساوي مع إسرائيل.

○ عليك أن تساعد مصر حتى تقوم بمسئوليتها القيادية في إطار سياستك، لكن إذا ترددت مصر في القيــام بهــذه المسئوليات ــ بما في ذلك المبادرات الإقليمية الاقتصادية التي تشمل إسرائيل ــ ثم تذرعت في ذلك بتعثر عمليــة السلام، فإن عليك أن تتخذ ما تراه لازماً. وعليك أن تذكر كل من يعنيه الأمر أن مصر وإسرائيل تحصلان علــى أكبر قدر من المساعدات الخارجية الأمريكية.

○ عليك أن تبذل جهدك لتأييد وتسريع عملية التطبيع بين الأردن وإسرائيل، وإقناع الأردن أن ذلك أفضل ضمان له سياسياً واقتصادياً، وحذر الأردن من غواية تصورها أنها تستطيع مغازلة أو مهادنة صدام حسين ــ ذلك ســوف يضر بسلامة الأردن واعتداله.

○ عليك أن تشجع تركيا على القيام بدور رئيسي في المنطقة مع إفهامها بطريقة واضــحة أنهــا لا تســتطيع أن تمارس هذا الدور، ولا أن تحقق نتائجه السياسية والاقتصادية إلا بالتعاون مع إسرائيل.

4ــ في انتظار حمامة!

بقي ملحق مختصر أضيف إلى توصيات اللجنة الرئاسية، وقد جاء نتيجة لزيارة اللحظة الأخيرة "يونية ٢٠٠١" ــ وإضافة اللمسة الأخيرة للتقرير قبل وضعه على مكتب الرئيس.

وملخص الملحق يقول لبوش:

- ليست هناك على الأفق في الظروف الراهنة فرصة لحل دائم.

- ليس هناك أي سبب للقلق على أمن إسرائيل.

- ليس هناك أمل كبير يمكن تعليقه على مقترحات تتردد هذه الأيام عن وقف إطلاق نار، وعن مــراقبين علــى مواقع مراقبة، وعن ترتيبات من نوع وقف الاستيطان لأنه ليس بين المسئولين في إسرائيل من يريد أن يسمع عــن مثل هذه الترتيبات أو يكررها قولاً ــ مجرد قول ــ على لسانه.

- الممكن هو "إدارة" أزمة الصراع العربي الإسرائيلي وليس حله.

- إدارة الأزمة مهمة ثقيلة لكنها ليست خطرة طالما أمكن تحقيق المطالب الرئيسية في صــلب تقريــر اللجنــة الرئاسية "الفصل في منطقة الشرق الأوسط بين نطاق البترول "سريع الاشتعال"، ونطاق الصراع العربي الإسرائيلي "القابل للانفجار" ــ ثم التركيز على الدول المعتدلة "الموالية للغرب" على حافة الصراع العربي الإسرائيلي "مصــر والأردن" ".

- من الممكن أيضاً اتخاذ مجموعة من الإجراءات تكفل تخفيض درجة العنف ومن بينها تخفيض عدد قوات الأمن الفلسطيني من مستواها الحالي، وهو ٤٠ ألفاً إلى أقل من النصف ١٨ ألفاً طبقا لما جرت مناقشته أثناء اجتماعات "واي ريفر" ـ ونزع كل سلاح غير مرخص به في مناطق السلطة الفلسطينية ـ وأخيراً ترك القوة الإسرائيلية تكسر "القاعدة الأساسية" التي يستند إليها نشاط منظمات الإرهاب الفلسطيني.

....

....

[كانت اتفاقية "أوسلو" بالفعل تحدد عدد قوات الأمن الفلسطيني بما لا يزيد على ١٨ ألف فرد، لكنه عندما دخلت السلطة الفلسطينية إلى قطاع غزة بدا أن هناك توترات بين القادمين من المنفى في تونس وبين الذين أقاموا في قطاع غزة طول الوقت تحت الاحتلال وفي مقاومته.

وفي لحظة من اللحظات ظهرت إمكانية صدام مسلح بين حركة "فتح" وبين حركة "حماس"، ووقتها قامت إسرائيل بإبلاغ السلطة أنها لن تمانع إذا هي تجاوزت حد المسموح به في أفراد الأمن.. وعلى هذا الأساس ارتفع سقف قوات الأمن الفلسطيني من ١٨ إلى ٢٥ ألفاً، ثم ارتفع مرة ثانية إلى ٣٦ ألفاً، ثم وصل في النهاية إلى ٤٢ ألفاً.

وعندما لم تحدث الحرب الأهلية المنتظرة والمطلوبة بين الفلسطينيين وبالتحديد بالاقتتال بين "فتح" و"حماس" ـ راحت إسرائيل تطلب تخفيض قوات الأمن الفلسطيني إلى الحد المتفق عليه. وراحت تدعى أنه تحت رخصة السماح بزيادة أفراد الأمن في ظرف معين ـ فإن السلطة الفلسطينية انتهزت الفرصة وأدخلت سلاحاً أكثر من المسموح به لأفراد زاد عددهم عدة مرات على السقف المقرر.

وربما أن استهداف قوات الأمن الفلسطيني لضربات إسرائيلية مستمرة في الأسابيع الأخيرة ـ يكشف أن إسرائيل تحاول الآن ـ بقتل المحاربين الفلسطينيين ـ أن تعوض ما فاتها بالاقتتال بين "فتح" و"حماس".]

....

....

ثم تجيء ملاحظة مهمة قرب نهاية ملحق التقرير الرئاسي ـ يونية ٢٠٠١ ـ تقول:

"لقد لمسنا لدى المصريين اهتماماً يعلق أملاً على انتخابات رئاسة حزب العمل المقرر لها ٤ سبتمبر ٢٠٠١ ـ وأملهم أن هذه الانتخابات قد تأتى برجل معتدل يرأس حزب العمل مثل: "يوسي بيلين" أو "حاييم رامون"، لأنه إذا عاد "الحمائم" إلى قيادة حزب العمل فربما أمكن البدء في المفاوضات، ورفع الحطام والركام مما عوّق وسد مسيرة السلام.

**

في النهاية يظهر أن سبتمبر ـ هذا الشهر ـ وما يليه ـ سوف يكون موعداً مشهوداً ـ ذلك أن الرئيس "بوش" قبل أن يتوجه إلى ولاية تكساس ـ لإجازة شهر كامل ـ طول أغسطس ـ حضر في الأسبوع الأخير من يوليو اجتماعيا لمجلس الأمن القومي الأمريكي جرت فيه مناقشات مستفيضة لتقرير المجموعة الرئاسية عن أزمة الشرق الأوسط.

وفي هذا الاجتماع ــ وطبقاً لما أورده "جيم هوجلاند" في "الواشنطن بوست" "عدد ٩ أغسطس" ــ فإن الرئيس "جورج بوش" أبدى في الاجتماع عدة ملاحظات مجملها:

ــ إنه في فترة إجازته سوف يأخذ كل ما لديه من تقارير وتوصيات عن أزمة الشرق الأوسط وسوف يبت فيها ويعود جاهزاً بقرار.

ــ إنه يرفض قبول "تلك الصلة" التي يزعم بعض موظفي الخارجية الأمريكية بوجودها بين قضايا الخليج وبين تعقيدات الصراع العربي الإسرائيلي "بوهم" "وحدة الشارع العربي" ــ ولذلك فإنه عند عودته من الإجازة في "تكساس" سوف يعطى نفسه حرية التصرف.

ــ إنه في اتصالاته بمن اتصل بهم ــ من ساسة العالم العربي ــ سأل الجميع عن تصوراتهم لحل الأزمات المستعصية في منطقتهم، وقد أثار دهشته أنهم في أزمة الخليج: طلبوا منه أن ينتظر ويترك للزمن أن يفعل فعله ــ لكنهم في أزمة الصراع العربي الإسرائيلي طلبوا منه وألحوا عليه في استعمال سلطته للضغط على إسرائيل وذلك منطق عجز عن فهمه.

ــ وهكذا ــ أخيراً ــ فإنه سوف يعود في سبتمبر ليتصرف دون انتظار رأي أو توقع تعاون من ناس لا يعرفون كيف يساعدون أنفسهم ثم يطلبون من الآخرين أن يساعدوهم وذلك في تقديره "ضعف وعجز" لا يسمح لنفسه أن يسايره!

....

....

وكذلك فإن المنطقة التي كان صيفها هذا العام حاراً ــ تمشي مرهقة الخطى نحو خريف ملتهب.

ذلك أنه مهما كانت نتائج انتخابات حزب العمل الإسرائيلي ــ في سبتمبر الحالي ــ فإن الأفق الإسرائيلي لا يظهر عليه جناح حمامة بيضاء ــ ثم إن الرئيس الأمريكي العائد من إجازة في تكساس ــ اليوم أو غداً ــ يرجع إلى مكتبه البيضاوي بجناح "صقر" أغبر! وأما في العالم العربي فلا أعرف!

على أنه من الإنصاف أن أقول إنه ربما كان أصحاب القرار في العالم العربي يعرفون ــ لأن ذلك الدم الذي يسيل على أرض فلسطين فداءً وشهادة يحتاج وراءه إلى ما هو أعز وأكرم من عرق يتصبب خجلاً نتيجة ضعف وعجز رآهما "جورج بوش" قبل إجازته وأثناء إجازته وبعد الإجازة ــ ثم قرر التصرف كما يشاء دون انتظار ودون اعتبار.

حريق أمريكي وعالمي

1ـ الكل يعرفون لكن المفاجأة تقع:

لعدة ساعات بعد صواعق النار والدمار التي انقضت على نيويورك وواشنطن صباح يوم الثلاثاء ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ـ ظهر الرئيس الأمريكي مأخوذاً بالصدمة ومذهولاً حتى تمالك نفسه ـ بعد ساعات ـ ليصف ما جرى بأنه "إعلان حرب على الولايات المتحدة الأمريكية".

ولم يكن هناك عذر لـ "جورج بوش" إلا أن يقال "إنه كان رجلاً لم يتابع أو لم يستوعب "موضوعاً" عرض عليه ونوقش أمامه يخص أمن الولايات المتحدة ومصلحتها". ثم إن "الموضوع" لم يعرض ولم يناقش فقط ـ وإنما طرحت في شأنه إستراتيجيات وسياسات تحدد وسائل مواجهته والتعامل معه عندما يجيءـ وكان الراجح لدى الجميع أنه سوي يجيء لأنه "شكل التحدي القادم" وفق كل التقديرات لحسابات المستقبل عن الأمن والمصلحة.

وعندما استفاق "جورج بوش" من الصدمة والذهول ثم وصف ما جرى بأنه "إعلان حرب" وأجرى تصرفاته على هذا الأساس. فقد كان الرئيس الأمريكي قائداً خسر معركة توقعها، وأعد نفسه لها، واتخذ من الإجراءات ما هو كفيل بمواجهتها ونتيجة قصوره أو نسيانه في اللحظة الحاسمة جاءت خسائره مروعة: فقدت الولايات المتحدة الأمريكية آلافاً من مواطنيها، وأهدرت عشرات البلايين من ثروتها، وضيعت جزءاً كبيراً من كبريائها وهيبتها، وتلك بالنسبة لقوة عظمى في زمانها كارثة بغير حدود، وخصوصاً أنها القوة الأعظم الفريدة في زمانها والمتفردة بالسيطرة على نظام العالم ـ أو المصممة على هذا التفرد.

والواقع أن الرئيس الأمريكي في تلك اللحظة الرهيبة من حياة شعبه ظل عشر ساعات كاملة "من (العاشرة صباحاً حتى الثامنة مساءً") بعيداً عن مكتبه ومركز قيادته راكباً طائرة هائمة في الأجواء، متردداً بين المطارات المدنية والعسكرية، عاجزاً عن حزم أمره. ولم تبق أحواله في هذه الساعات الحرجة سراً، لأن طائرته التي كان يستقلها من فلوريدا كان عليها مجموعة من صحفيي "القرعة" "اختيار من يرافق الرئيس من ممثلي الإعلام الذين يتعهدون بإتاحة ما لديهم لزملائهم لتظل الفرصة مفتوحة للكل سفرة بعد سفرة على طائرة الرئاسة" ــ ومع أن هؤلاء الصحفيين تعهدوا بألا يكتبوا حتى لا يتعرضوا للحرمان من فرصهم إذا حل عليهم النصيب ـ فإن رواياتهم الآن متداولة بالتفصيل داخل قاعات التحرير في فضائيات وصحف نيويورك بالذات، وبين الروايات أن الرئيس "بوش" تلقى ما سمع وانتابته حالة من عدم التصديق تعثر معها لسانه وشحب وجهه، بينما هو وسط جمع من أطفال مدرسة كان يزورها في فلوريدا.

وضاعف من اضطراب الرئيس أنه في تلك اللحظة تلقى أنباء تقول أنه شخصياً مطلوب ومهدد، وأن إحدى الطائرات "القذائف" تبحث عنه، و"تحول الرجل الذي يملك وحده مفتاح القوة النووية الأمريكية في ثانية من رئيس "للعالم" إلى أسير في عهدة حرسه الخاص". فقد صمم الحرس ألا يعود الرئيس إلى واشنطن إلا بعد أن ينجلي

الموقف وتنطفئ آخر إشارة حمراء فوق العاصمة. ولأنه لم يكن ممكناً أن يتوقف الرئيس في فلوريدا – وبين تردده – فإن الطائرة قامت من "فلوريدا" قاصدة "لويزيانا" كأنها نزهة في الأجواء رغم أن أربع طائرات مقاتلة صعدت وراءها إلى الجو لحراستها. واتصل "ديك تشيني" برئيسه المعلق بين السماء والأرض فإذا الرئيس يعتذر لنائبه بأنه يريد المجيء بأقصى سرعة إلى واشنطن لكن "هؤلاء الرجال" يمنعونه بداعي الحرص على الولايات المتحدة أولاً وليس على شخصه فحسب. ويرد "ديك تشيني": إنه إذا كان قرار الرئيس أن لا يجيء على الفور إلى واشنطن فقد يكون المناسب أن يذهب إلى قيادة القوات الجوية في "نبراسكا"، فهناك مقر قيادة احتياطي رئاسي، ووجود الرئيس فيه الآن يبدو اختيارا لأقرب مقر قيادة من مكان وجوده. وتتوجه طائرة "جورج بوش" إلى "نبراسكا" ويتصل به كثيرون من أركان حكمه وقادة حزبه يزعجهم تأخيره وهو يتعلل بالخطر والحرس، حتى كلمته والدته السيدة "بربارا بوش" تقول له ما معناه أن "كل امرأة في أمريكا: زوجة وأما وأختاً وبنتا يطمئنها أن تجد الرجل المسئول عن كل الرجال والنساء على الوطن في مكتبه يؤدي واجبه.

وهي كأم لرئيس وزوجة لأب سبق الابن في الرئاسة تفضل أن تراه تحت الخطر في هذه اللحظة بأكثر مما تريد أن تراه بعيداً عن قيادته!"

واستطاع حزم "الأم" أن يهزم حرس الرئيس.

**

وهكذا عاد "جورج بوش" من غيبته الجودية! إلى مقر قيادته في البيت الأبيض. وخلال الأربع والعشرين ساعة التالية نزلت دموعه أمام كل الناس وعلى شاشات التليفزيون خمس مرات قيل بعدها أن البكاء طهر وثبّت قلبه.

والمثير الدهشة أن أقرب رجال الرئيس كانوا في مواقعهم وداخل مكاتبهم أثناء غيبته ولكنهم تحرجوا من الظهور علنا – بدموع أو بغير دموع – لكي يرى الشعب الأمريكي أن هناك من يدير الأزمة على القمة. والذي حدث أن نائب الرئيس "ديك تشيني" دخل مكتبه ليجد مسئول الأمن بالبيت الأبيض يطلب إليه أن ينزل إلى خندق الطوارئ المبنى تحت مقر الرئاسة الأمريكية والمجهزة لمقاومة ضربة نووية. وتردد "تشيني" لكن قائد حرس البيت الأبيض هدد بحمله حملاً إلى حيث أمانه. وروى "تشيني" نفسه أن ضباط الحرس "حملوه بحيث لم تعد قدماه تلامسان الأرض، وقد قبل مسايرتهم حتى وقف على قدميه" ثم رضخ لها طلبوه منه فهو في الحالتين داخل البيت الأبيض، فوق السطح أو تحت السطح – في مكانه. وقد لحقته على الخندق السيدة "كونداليزا رايس" مستشار الرئيس للأمن القومي. واتصل به هناك زعيم الأغلبية الجمهورية في مجلس الشيوخ يسأله: "لماذا لا يظهر ليطمئن الناس"، وكان رد "تشيني" إنه "يقصد تقليل الظهور عمداً حتى لا يسبب إحراجاً للرئيس الغائب" ثم يضيف نائب الرئيس: "إنه لا يريد أن يكرر "الغلاظة" التي تصرف بها "الكسندر هيج" وزير الخارجية عندما وقع اعتداء على حياة رئيسه "رونالد ريجان" ونقل إلى المستشفى بعد إصابته بثلاث طلقات نارية، ودخل غرفة العمليات وخضع للتخدير. وعندما بدأ الكلام في قاعة المؤتمرات الصحفية بالبيت الأبيض عن فراغ في السلطة، إذا "ألكسندر هيج" يهرول مسرعاً، ينتفض انفعالاً ويتصبب عرقاً ليصيح أنه "المسئول عن كل شيء هنا الآن". وكانت تلك نهاية "ألكسندر هيج" بعد أن

خرج رئيسه من غرفة العمليات وزال عنه تأثير التخدير! "وراحت السيدة "نانسي ريجان" تقول لزوارها أن مساعدي الرئيس "ريجان" حاولوا أن يرثوه وهو ما زال على قيد الحياة!"

ويظهر أن نفس الحرج الذي أصاب "تشيني" وصل إلى "كولين باول" وزير الخارجية كما وصل إلى "دونالد رامسفيلد" وزير الدفاع. وهكذا بدت القمة الأمريكية طوال عشر ساعات "فراغاً" من ملامح وصوت سلطة سياسية ومعنوية توحي بالثقة وتقود بعيداً عن الضياع أو الانفلات.

وعلى أي حال فإنه في ذلك المناخ الذي شاع فيه الاضطراب وانعزل فيه الرئيس وأقطاب إدارته ــ على الأقل بالمكان ــ توالت القرارات بعصبية زادت من تأثير الصدمة أكثر مما ساعدت على استيعابها. فقد صدر على سبيل المثال أمر بإغلاق المجال الجوي الأمريكي كله، وظل الإغلاق كاملاً خمسة أيام كان الدواء فيها أكثر خطراً من الداء "كما حدث لشركات الطيران الأمريكية التي تقدر خسائرها يوم الصدمة الأولى بستة بلايين دولار".

**

والأغرب من ذلك أن الرئيس الامريكي وأركان حكمه لم يكونوا وحدهم فيما تصرفوا به وإنما كانت المصيبة أكبر لدى المسئولين عن وضع القرار الإستراتيجي للولايات المتحدة الأمريكية وفيهم من كانوا في المسئولية قبل الرئيس، ومعه، وبعده. لأنهم أقطاب المؤسسات الدائمة المسئولة: وفيها مجلس الأمن القومي في البيت الأبيض، ووزارتا الدفاع والخارجية، وهيئة أركان الحرب المشتركة، ووكالات المخابرات العسكرية والعامة، إلى جانب إدارات التخطيط الإستراتيجي للدولة القائدة للنظام الدولي في هذه اللحظة من التاريخ.

كانت مسئولية هؤلاء جميعاً أفدح من التقصير أو النسيان لأنهم – وليس غيرهم – الذين فكروا وقدروا وخططوا ورسموا شكل "التحدي القادم" على أمن ومصلحة الدولة الأمريكية – ووصلوا في تحديد ذلك الخطر إلى درجة اختيار اسم يطلقونه عليه وهو "الحرب غير المتوازية" Asymmetrical War.

والحقيقة أن هؤلاء المسئولين عن صنع القرار الإستراتيجي للولايات المتحدة الأمريكية، ومنذ سنة ١٩٩٥ على الأقل، كلفوا بدراسة التهديد والخطر اللذين تواجههما الولايات المتحدة الأمريكية في المستقبل المنظور وكيف تستطيع أن تتأهب لهما. ولعدة سنوات كان عمل هؤلاء المسئولين دءوباً حتى توصلوا في نهاية إدارة كلينتون "٢٠٠٠" وبداية إدارة بوش "٢٠٠١" ــ إلى وضع إستراتيجية رأوها كافية، وقد عرضوا ما توصلوا إليه على وزير الدفاع الأمريكي السابق "ويليام كوهين" فوافق عليه كإستراتيجية أمن أصدرها الرئيس "بيل كلينتون" فيما يسمى بـ "التوجيه الرئاسي".

وهذا "التوجيه الرئاسي" انتقل من إدارة "كلينتون" إلى إدارة "بوش" وأعيدت دراسته وتأكد أعتماده من جديد بتوقيع "جورج بوش" عليه.

ولم تكن تلك أسرار دولة ينفرد بها الخاصة وتحجب عن غيرهم، وإنما كان الموضوع كله في إطار "العلم العام" بمثل هذه الشئون، وقد سمعت عن هذا التوجيه الرئاسي كما سمع غيري، إلا أنني أطلعت على عديد من التقارير التي مهدت وجهزت له وفيها ما هو صادر عن "هيئة التقديرات في البنتاجون" وهي مجموعة تخطيط إستراتيجي

أشرف عليها الجنرال "روبرت إيفاني" قائد كلية الحرب التابعة لوزارة الدفاع، وفيها ما هو صادر عن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ــ وفيها ما هو أهم لأنه "تقدير موقف" يحمل توقيع الجنرال "هنري شيلتون" رئيس هيئة أركان الحرب المشتركة للقوات الأمريكية.

□

وكانت المقدمات والتداعيات والنتائج ــ في كل هذه الوثائق ــ ترسم لوحة كاملة:

□ أولا: إن الولايات المتحدة لا تواجه الآن تهديداً، لأنه ليست هناك في الأوضاع الحالية ــ ولا على الأفق ــ قوة تستطيع أن تشن عليها حرباً تقليدية "بالأسلحة المتقدمة" أو حرباً غير تقليدية بأسلحة الدمار الشامل".

فالدول التي كان يخشى تهديدها ــ مثل الاتحاد السوفيتي السابق ــ لم تعد قادرة على شن مثل هذه الحرب ضد الولايات المتحدة وبعد سقوط الاتحاد السوفيتي كان أكثر التخوف من "ترسانة نووية" ــ يوشك عمرها الافتراضي على الانتهاء، وقد يفكر "مجنون" يصل إلى قمة السلطة داخل الكرملين في استعمال هذه الترسانة ضمن محاولة ابتزاز يائسة وتكون كارثة مؤكدة ــ لكن ذلك الاحتمال زال، لأن الولايات المتحدة دعيت لتؤدى دوراً مهماً في صيانة الترسانة النووية السوفيتية، وسواء في الاتحاد الروسي نفسه، أو ملحقاته مثل أوكرانيا وبيلاروسيا.

وكان أول التقارير ــ التي مهدت للتوجيه الرئاسي الذي وقعه "كلينتون" ثم أعاد "بوش" التوقيع عليه تأكيداً ــ يعيد التذكير بأنه "بعد انتهاء الحرب الباردة بسقوط الاتحاد السوفيتي فإن المسرح العالمي شهد بعضاً من الدول الصغيرة "المارقة" "في قاموس السياسة الأمريكية" ــ جربت أن تملأ فراغات أو فجوات نشأت أو ظهرت مع نهاية الحرب الباردة لكن ساعة الذروة من هذه المرحلة فاتت"، وهنا يقول تقدير الموقف الذي أشرف عليه الجنرال "روبرت إيفاني" بالنص:

"إننا نستطيع أن نفترض أن أعداءنا أو خصومنا في المستقبل تلقوا وفهموا للدرس من حرب الخليج. لذلك فليس من المتوقع أن يحاول طرف منهم مواجهتنا في حرب تقليدية تعتمد على تشكيلات الدبابات والقوات الجوية والبحرية، ذلك أن النظر إلى هذه الميادين كلها يظهر تفوقاً ساحقاً في موازين القوة لصالح الولايات المتحدة. ويترتب على ذلك أن من يريد مواجهتنا من الأعداء أو الخصوم عليه أن يكتشف وسائل جديدة تمكنه من تهديد مصالحنا أو قواتنا أو مواطنينا. وعليه أن يتأكد أن هذه الوسائل تستطيع أن تحقق له ميزات ينفذ بواسطتها إلى مواقع ضعف تكون عندنا".

ويستطرد "تقدير الموقف" تحت عهدة الجنرال "روبرت إيفاني" فيقول: هكذا فإننا لا نرى أن الأمن القومي يواجه تهديداً كبيراً ــ وإنما نرى أن الولايات المتحدة تواجه خطراً أو مخاطر ظاهرة الآن بالفعل ــ ولها مضاعفات يمكن توقعها".

□

والحاصل أن هذه الأخطار يتعرض لها تقدير موقف رسمي أمريكي آخر وهو هذه المرة صادر عن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، وقد ظهر أمره إلى العلن سنة ٢٠٠٠، وهو يعتبر وثيقة لها أهمية خاصة لأنه نتيجة

جهد "مجموعة عمل" تابعة لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية كلفت منذ سنة ١٩٩٥ ــ أيضاً ــ بأن تبحث في الظروف التي قد تفرض على الولايات المتحدة أن تتدخل في ظرف تخشى منه على مصالحها "خطر تسميه الوثيقة "تأكيد الاطمئنان إلى الأمن"".

وتقوم الوثيقة باستعراض يشبه عملية تشريح فتذكر أن عجز نظم صديقة للولايات المتحدة عن تحقيق درجة مقبولة من التحسن في المستويات الاقتصادية والاجتماعية لمواطنيها هو أكبر خطر يقلق الولايات المتحدة، لأنه يعرّض أنظمة موالية للوقوع في مصيدة "الفشل" وبعدها "هاوية السقوط".

ثم تتجه الوثيقة إلى عرض العوامل المؤدية إلى هذا النوع من المخاطر وتشرحها بالترتيب في تسلسل مترابط: ضعف الموارد ــ زيادة الفساد ــ سوء الإدارة ــ أزمة السيولة ــ البطالة ــ زيادة الدين الخارجي. ولا تكتفي وثيقة وكالة المخابرات المركزية هنا بالرصد وإنما تدخل في التفصيل فتضيف أن زيادة الدين الخارجي تستوجب تدخل عناصر أجنبية تبغي تأمين حقوقها وذلك على عكس الدين الداخلي، لأنه مهما تراكم يمكن معالجته بزيادة المطبوع من أوراق النقد حتى إذا أدى ذلك إلى زيادة التضخم.

وموضع الخطر الذي تتحسب له وكالة المخابرات المركزية أن "إفلاس دولة" سوف يجر معه إلى الهاوية جوارها ومحيطها وبالتالي يهدد مناطق بأكملها، وذلك يواجه إدارة السياسة الأمريكية بخيارات شديدة الصعوبة في الحفاظ على مواقعها ومصالحها.

والمأزق الذي تواجهه السياسة الأمريكية ــ طبقاً للوثيقة ــ أنها لا تستطيع أن تساعد هذا النوع من الدول. والسبب أنه: "على فرض استعدادنا لأن نقدم لهذه الدول زيادة في المساعدات تصل سنوياً إلى ٢٠ بليون دولار فإن نصيب الفرد من أثر هذه المساعدات إلى البلدان المعنية لن يزيد على عشرة دولارات في السنة، وذلك لا يحدث تأثيراً له قيمة".

والنتيجة في وثيقة وكالة المخابرات المركزية "أن علينا أن نتعامل مع هذه الأوضاع كما هي، ونُدير علاقاتنا معها "بوسائل" مرنة، ونقبل "مخاطر" محسوبة، ونقوم بـ "تدخلات" في حدود يمكن السيطرة على آثارها!"

[تكشف ملاحق الوثيقة ــ وفيها تفاصيل المداولات التي أوصلت إلى نتائجها "أن الدول الضعيفة المعرضة للسقوط لها فوائد اقتصادية بالنسبة للولايات المتحدة فهي مستورد رئيسي من السوق الأمريكية كان يشتري سنة ١٩٩٠ ما قيمته ٣٥ % من صادرات أمريكا ثم وصل سنة ١٩٩٩ إلى استيراد ما قيمته ٤١ % من هذه الصادرات"].

□

□ ثانياً: يقول تقدير الموقف الإستراتيجي للبنتاجون ــ وهذه عودة إليه من وثيقة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ــ "إن الخطر الأعلى صوتاً في الإعلان عن نفسه وفي التخويف من سطوته هذه المرحلة هو الإرهاب. والإرهاب ظاهرة موجودة في كل عصور التاريخ، لكنه الآن ــ وفي المستقبل أكثر ــ أخذ وسوف يأخذ طابعاً مختلفاً لثلاثة أسباب:

- 1إن الإرهاب الآن لم يعد شخصاً وحيداً أو معه عصبة من الأشخاص التقى سرهم في الخفاء على اغتيال رجل أو امرأة انتقاماً من الشر أو اتقاء له كما يقول تاريخ الاغتيالات السياسية، وكما لم يعد الإرهاب اتحاد جماعات لها اتجاه إلى يمين أو إلى يسار "كعصابات الكوكلاكس كلان الأمريكية أو الألوية الحمراء الإيطالية"...

وإنما أصبح الإرهاب الآن، وبطبائع العصر الحديث، كتلاً متمددة عبر الأوطان والقارات تجمع عناصر من أصحاب القضايا العادلة التي نزلت عليها أثقال العصر فكادت تطحنها، ومن الناقمين على الفقر في كل مكان، ومن المحبطين في آمالهم لكافة الدواعي، ومن الساخطين على فجوة اجتماعية تتسع كل يوم، ومن التائهين في الماضي بغير عقل والشاردين في المستقبل بغير روح ــ لأن هؤلاء على اختلاف ما بينهم كونوا حلفاً تربطه شحنات رفض متضاربة تعرف ما لا تريد لكنها لا تعرف ما تريد! وهكذا فإنه منذ وقت مبكر في الستينات والسبعينات التقت وتعاونت عناصر من الإرهابيين اليابانيين "في الجيش الأحمر" والألمان "في بادر ماينهوف" والعرب "في أيلول الأسود" والمسلمين "في تنظيم "القاعدة" الذي يقوده أسامة بن لادن" وأخلاط من كل الأجناس في حزمة واحدة "جماعات كارلوس".

ثم تعاون الكل ــ واعين أو غير واعين ــ راضين أو متحفظين ــ وامتد تعاونهم وانتشر على جبهات واسعة.

وكانت الظروف المستجدة في العالم تعطيهم "وحدة سبب" لأنهم كانوا جميعاً قوى رفض لأمر واقع فرضه الأقوياء.

وكذلك اتحد رد الفعل السلبي "المظلوم" ــ إزاء الفعل الإيجابي "الظالم" كأنها العلاقة بين سؤال وجواب!

٢ــ زاد على ذلك ثورة التكنولوجيا الحديثة قامت بفتوح دخلت إلى ذلك كافة الساحات بما فيها ساحة الإرهاب. وحدث بالفعل أن التكنولوجيا الحديثة في مجال الاتصال والمراقبة والتنصت والتسليح والإخفاء أعطت للإرهاب طول يد لم يتمكن منها في يوم من الأيام.

....

....

[وقد وصلت ضرورات "الحماية" المطلوبة إزاء اليد التي طالت للإرهاب إلى درجة أن إجراءات الأمن الروتينية لرؤساء الدول الآن لم تعد تقتصر على حماية ومواكب المسئولين وخطوط سيرهم والاعتقال أو الحجز الاحترازي المؤقت لأي مشكوك فيه أو مشبوه، وإنما وصلت الإجراءات بسبب تطور الوسائل إلى حد إغلاق المجال الجوي لمدينة تتواجد فيها شخصية مهمة حتى إذا كانت عاصمة كبيرة. والحاصل أن إغلاق المجال الجوي في منطقة تحيط بموقع مرور أو طريق زيارة يقوم بها مسئول، أصبح واحداً من إجراءات الأمن اليومية في عدد من بلدان العالم الثالث بالذات].

....

....

وفي اللحظة التي وصل حجم الكمبيوتر إلى حجم علبة كبريت، وظهر معه واتحد به التليفون المحمول ــ فإن الإرهاب وضع نفسه بالفعل في الصف المتقدم من العصر!

٣ــ ثم نزلت على الجميع ظاهرة العولمة وتحولت أسواق العالم إلى شبكات "عنكبوتية" متداخلــة ولا متناهيــة ــ وكذلك شبكات البريد الإليكتروني ــ وفي محيط المعلومات المتدفق على شبكات الإنترنت، ومع التحام الفضــائيات في مجالات الإعلام والفنون والترفيه ــ ثم كان الأخطر أنه بتوافق لحظة عالمية لها خصائصها ــ وكتل إنسانية لها طبائعها فإن عالم الإرهاب أصبحت له ــ هو الآخر ــ شبكته التي تصل بين الكتل المتمردة عبر الأوطان والقارات والتي تجمع المطحونين والناقمين والساخطين والتائهين ــ ومعهم ــ بل زيادة عليهم ــ تنظيمات مــن الخــارجين على القانون أو الراغبين في التحايل عليه لأسباب مالية ــ ليست سياسية ولا اجتماعية ولا فكرية ــ ومــن ذلــك شبكات تهريب السلاح والمخدرات وشبكات سرقة الأموال من حسابات البنوك وبطاقات الائتمان وغسيل الأمــوال بالنصب على هذه البنوك وتحويل فوائض "نشاط" ! مثل تجارة البغاء ــ إلى عملة شرعية حرة يحميهــا القــانون، بالإضافة إلى نوع آخر من العمل "العمل يحتاجه جميع الفرقاء وهو تزوير الوثائق من جوازات السفر إلى بطاقــات تحقيق الشخصية إلى شهادات الميلاد!

٤ــ وفي ذلك المحيط وجواره نشأت شركات وهيئات تتولى "توريد الإرهاب" على نطاق دولي، وتعــرض فــي السوق جيوشاً من الجنود المرتزقة. وهذه الشركات تبيع بضائعها وخدماتها طبقاً لعقود لا دخل فيها لفكرة الانتمــاء أو الولاء وتقدم خدمات الغزو والقتل لمن يطلبها بالسعر المتفق عليه. ثم إن ممثليها فــي توقيــع هــذه العقــود لا يوجهون لأحد سؤالاً ولا ينتظرون جواباً يتخطى مبلغ العقد ومواعيد التسديد ومتى؟ وأين؟ وهذه الشــركات تعتبــر نشاطها "تخصصاً مهنياً" له دوره ولديه إمكانيات هذا الدور في البر والجو والبحر. "وقد انكشف دور هذه الشركات في تقارير للأمم المتحدة وفي تحقيق لوزارة الخارجية البريطانية حول انقلاب سيراليون ــ قبل أربع سنوات. وقــد ظهر في التقارير والتحقيقات أن إحدى شركات صناعة الإرهاب ــ مسجلة في بريطانيا تحت اسم "شركة الخدمات الأمنية الخاصة" ومؤسسها ضابط سابق في القوات الخاصة البريطانية ــ لديها قوات عسكرية يصل عــددها إلــى سبعة عشر ألف مقاتل، وكما تملك سلاح طيران "٣ أسراب من الطائرات"، وسلاح مدرعات "قرابة كتيبة دبابات"."

....

....

وهكذا تضافرت الكيانات المنظمة في عوالم الإرهاب مع انتشار التكنولوجيا ــ مع عولمة الفعل بــين الخــارجين عن القانون من السياسة إلى الجريمة ــ على خلق عدو جديد في ممارسة الحرب: هجوماً أو دفاعاً.

**

وفي خلاصة موجزة لتقدير الموقف الذي وقعه "ويليام كوهين" وزير الدفاع الأمريكي في الإدارة السابقة وأقــره رئيسها "بيل كلينتون" على هيئة توجيه رئاسي، ثم راجعه "دونالد رامسفيلد" وزير الدفاع الحالي وأقره "جورج بوش" على هيئة توجيه رئاسي ملزم، فإن المخاطر المحتملة على الولايات المتحدة وأمنها ومصالحها لها مصادر محــددة ومعروفة:

□ "دول مارقة" وعت درس حرب الخليج وأصبح جهدها موجها إلى العثور على نقاط ضعف "أمريكية" تستطيع أن تنفذ منها وتستغل وتضرب.

□ "دول صديقة" وهنت قواها حتى أوشكت على الإفلاس مما يعرضها للسقوط. ومع أن الولايات المتحدة لا تسمح بهذا السقوط فهي في الوقت نفسه لا ترى وسيلة للمساعدة على منعه!

□ "إرهاب" وصل إلى مرحلة العولمة في نفس الوقت وصول مجتمعات الدول إلى مرحلة العولمة!

وكذلك ــ يصل تقدير الموقف ــ "ظهر هذا النوع الجديد من الحرب ــ "الحرب غير المتوازية" Asymmetrical War.

2ــ نوع جديد من الحرب بدأ الآن:

لم تكن هيئة التقديرات في البنتاجون وحدها التي وصفت الأخطار الجديدة وصكّت لها تعبير "الحرب غير المتوازية" ــ بل تابعتها هيئة أركان حرب القوات الأمريكية "ورئيسها الجنرال "هنري شيلتون" الذي قدم تقريراً تحدث عن شكل الخطر القادم بدا وكأنه يشير صراحة ــ وقبلها بسنتين ــ إلى صواعق النار والدمار التي نزلت على نيويورك وواشنطن يوم الثلاثاء ١١ سبتمبر ٢٠٠١.

فقد قال تقرير رئاسة أركان حرب القوات الأمريكية، وبتوقيع رئيسها الجنرال "شيلتون" وهو يحاول تعريف الحرب "غير المتوازية" ما يلي في الصفحة الثانية منه:

"الحرب "غير المتوازية" هي محاولة طرف يعادي الولايات المتحدة ــ أن يلتف من حول قوتها ويستغل نقط ضعفها معتمداً في ذلك على وسائل تختلف بطريقة كاملة عن نوع العمليات التي يمكن توقعها. وعدم التوازي يعني أن يستعمل العدو طاقة الحرب النفسية وما يصاحبها من شحنات الصدمة والعجز لكي ينتزع في يده زمام المبادرة وحرية الحركة والإرادة. وبأسلوب يستخدم وسائل مستحدثة، وتكتيكات غير تقليدية وأسلحة وتكنولوجيات جرى التوصل إليها بالتفكير في غير المتوقع وغير المعقول ــ ثم تطبيقه على كل مستويات الحرب: من الإستراتيجية – إلى التخطيط – إلى العمليات – بعرض أفق عليه بدائل طار إليها خيال لا يخطر على البال منطقياً ولا يطرح نفسه عملياً في التقديرات التي نستطيع تصورها".

وكان ما توقعه رئيس هيئة أركان الحرب المشتركة للقوات الأمريكية المسلحة الجنرال "هنري شيلتون" ــــ هو بالضبط ما وقع يوم ١١ سبتمبر الأخير:

خطف أربع طائرات في ظرف نصف ساعة ــ من مطار واحد في بوسطن "شرق الولايات المتحدة".

ومخزون الوقود على كل طائرة منها عند حده الأقصى لأن وجهتها الأصلية ولاية كاليفورنيا "غرب الولايات المتحدة"

وتحويل مسار هذه الطائرات بعد إقلاعها بمسافة قصيرة إلى مقاصد أخرى بحيث تتجه اثنتان إلى نيويورك ــ وثالثة إلى واشنطن ــ ثم رابعة لم تبلغ هدفها المطلوب.

واستعمال هذه الطائرات بخاطفيها وطواقمها وركابها من الرجال والنساء والأطفال، مع الهياكل المعدنيـــة لهـــذه الطائرات، ومحركاتها، ووقودها، وعجن الكل معاً: المعدن واللهب، واللحم والعظم، ومشاعر الفزع واليأس ـــ في عجينة واحدة بحيث تتحول كل واحدة من هذه الطائرات إلى قذيفة هلاك من طراز مروع!

اثنتان من هذه الطائرات تقتحم أهم رموز الاقتصاد الأمريكي "برجي التجارة الشهيرين في نيويورك" ثـــم تـــنقض ثالثة على أهم رموز القوة الأمريكية "مبنى وزارة الدفاع "البنتاجون" في واشنطن" ـــ وأما الرابعة فقد كان لها هدف آخر في واشنطن لم تستطع بلوغه.

وتم ذلك كله في ومضات وصور لا يصدقها عقل أو قلب أو خيال وفي مشاهد لم ترها من قبل عـــين ولا حتـــى على شاشة عرض سينمائي أو تليفزيوني!

والمفارقة أن أول تصريح للجنرال "شيلتون" أعلن للرأي العام بعد تلك المشاهد المروعة فوق نيويورك وواشنطن هو قوله "لا تقعوا في الخطأ ـــ قواتكم المسلحة جاهزة" وكأن الناس لم يروا بعيونهم أن القوات المسلحة الأمريكية أخذت على غرة ولم تكن مستعدة برغم تصوراتها وتقديراتها السابقة عن نوع جديد من الحرب! ثم لحقـــه "دونالـــد رامسفيلد" وزير الدفاع بتصريح قال فيه "اطمئنوا: البنتاجون سوف يستأنف العمل كالمعتاد غداً" كأن البنتاجون دكان بقالة أغلق أبوابه يوماً بسبب ظرف مفاجئ أصاب عائلة صاحبه!"

على أن الرئيس "جورج بوش" عندما مسح الدموع كان اكثر دقة "فالذين كتبوا له خطابه كانت لديهم فسحة وقـــت كافية، وكانوا على علم بالتوجيه الرئاسي الذي حمل توقيع الرئيس بناء على توصيات هيئة أركان الحرب، وغيرها من الأجهزة، الظاهرة والخفية لصنع القرار الأمريكي". وهكذا كان أول تعليق لـــ "بوش" "هذا إعلان حـــرب" ثـــم أضاف: "هذه حرب جديدة"، ثم زاد: "هذه حرب القرن الواحد والعشرين"!

كانت الإشارة واضحة إلى فكرة الحرب "غير المتوازية"!

**

وتحتاج فكرة الحرب "غير المتوازية" إلى وقفة ترسم الفاصل بينها وبين الحرب "غير المتوازنة"، لأن كلا منهمـــا تنتمي إلى فصيلة. ذلك أنه منذ قامت الدولة على مجرى التطور الإنساني، وقامت هذه الدولة بإنشاء جيوش نظامية تحقق من مطالبها ما يستدعي استعمال السلاح ـــ دارت الحروب على أساس التوازن "أو عدم التوازن" فـــي القـــوة وتلك الطبيعة الأمور كما عرضت نفسها.

بمعنى أنها جيوش منظمة تستعمل نفس الأسلحة.

ـــ جواد ورمح أمام جواد ورمح ـــ في عصر.

ـــ مدفع وقذيفة أمام مدفع وقذيفة ـــ في عصر ثان.

ـــ دبابة وطائرة أمام دبابة وطائرة ـــ في عصر ثالث.

وكان توازن القوى يؤدي عمله في درجة استعداد هذا الطرف أو ذاك، وفي كفاءة إدارته لموارده أو عجزه، حتى يأخذ حركة "الميزان" لصالحه، ويحقق "عدم التوازن" وينتزع لنفسه النصر.

ومع أن زمان هذا النوع من الحروب عرف درجات متفاوتة من العمل المسلح مثل حرب العصابات في المدن والجبال والأدغال، فإن منطق "توازن" القوى ــ أو "عدم التوازن" ظل ساريا.

لكن الحرب "غير المتوازية" مسألة أخرى.

ــ بداية ليس هناك ميدان يتقابل فيه المتحاربون أمام بعضهم مواجهة أو بالالتفاف.

ــ يلي ذلك أن "السلاح" ليس "متماثلاً" حتى وإن اختلفت درجات قوته.

ــ ثم إنه ليست هناك صلة بين فعل ورد فعل تجري ممارسته على ساحة معينة يدور فوقها اتصال.

ــ ويترتب على ذلك أن خطط السلاح وفعل السلاح هنا خارج حساب أي منطق أو تصور يمكن توقعه.

ومع أن الحشد وسرعة الحركة والمفاجأة أساليب مطلوبة في كل أنواع الحروب ــ إلا أنها في حالة الحرب "غير المتوازية" مطلوبة أكثر لأنها لازمة لمدرسة التفكير فيما لا يمكن التفكير فيه مما لا يحكمه قيد أو حد، لأنه على حد تعبير ورد في تقرير الجنرال "شيلتون" "تفكير يوسوس به الهذيان والجنون ولا يؤدى إليه العلم أو توازن القوة مهما كانت دقة حساباته".

وكذلك اتفق الجميع على أنه في مقابل الحرب "المتوازنة" أو "غير المتوازنة" ــ ظهر نوع آخر وهو الحرب "غير المتوازنة".

**

ويثير الدهشة ــ بأثر رجعي ــ أن يطلع أي مهتم على التقرير الإستراتيجي الذي أشرف عليه الجنرال "روبرت إيفاني" والذي حوى مدخلاً كتبه الدكتور "دوجلاس لفليس" وهو واحد من العقول المفكرة في "البنتاجون" يتولى مسئولية الإشراف على الأبحاث في التخطيط الاستراتيجي. وفي هذا المدخل للتقرير كتب الدكتور "لفليس":

"بعد المؤتمرات التي عقدت في مايو سنة ٢٠٠٠ بين قيادات قوات "المارينْز" العاملة مع التشكيلات المقاتلة للقوات البرية، رؤى الاستعداد للحرب المقبلة على أساس نظرية الحرب "غير المتوازية" وكذلك فقد كلفنا بالعمل على تحديد وتوصيف النظرية العسكرية لهذه الحرب في تطبيقاتها وإمكاناتها غير المتوقعة، والعمل على بلورة إستراتيجية واضحة لمواجهتها.

ثم يضيف "لفليس" في مدخل التقرير الإستراتيجي: "إن القوة العسكرية الأمريكية لن تواجه في الغالب ــ وفي المستقبل المنظور ــ صراعات عسكرية يحكمها التوازن لصالحنا أو ضدنا، وإنما هي ــ وذلك ما نستطيع تأكيده ــ سوف تواجه مخاطر يوجهها ويقوم بها خصوم لا يملكون فرصة للتوازن ضد القوة الأمريكية ويكون عماد تحديهم استعمال أشكال من الحرب لا تتوقعها الولايات المتحدة ولم تستعد لها. وهنا تظهر الضرورية الحيوية للاستعداد لحرب من نوع جديد يقوم على "عدم التوازي" ــ بدلاً من "عدم التوازن" الذي اتبعناه حتى الآن وحشدنا أقصى الإمكانات والكفاءات لمواجهته".

بعد هذا المدخل إلى نظرية الحرب "غير المتوازية" يبدأ صلب التقرير بطرح مجموعة ملاحظات تضع أسساً "هجومية أو دفاعية" لنوع الحرب الجديدة.

□ فيها أنه لا بد من إدراك أن هذا النوع من الحرب ليس مقيداً بمذاهب في الحرب مصنفة، وإنما هو يلتقط الوسائل التي يفكر فيها بمصادفات الظروف، لكنه عندما يقابلها بالمصادفة يدرسها بعناية وذلك يجعل التنبؤ المسبق بأعماله مهمة شاقة وعسيرة!

□ وهذا النوع من الحرب بطبيعته جاهز لأعلى درجة من المخاطرة لأن الخسارة بالنسبة إليه في الحالتين واحدة، وبالتالي فإن أعلى المخاطر تتساوى عنده مع أقلها!

□ وهذا النوع من الحرب بضروراته يدور في سرية شديدة تمرس عليها عدو قادر على العمل تحت نظام دولة لها سلطتها ولها مؤسساتها، وبالتالي فإن هذا العدو استوعب وهضم أساليب العمل في الظلام أمام خصم هو بأوضاع الدولة وأسباب الشرعية يخوض المواجهة وسط حالة انكشاف كامل.

□ وهذا النوع من الحرب يمارس دوره بخلطة مزيج قوي المفعول بين ما هو "مادي" وما هو "نفسي" وذلك أكثر ما يخدمه في الأساليب "غير المتوازية" التي يستعملها.

□ والعدو في هذا النوع من الحرب يمتاز بروح معنوية عالية لدى أفراده، وتكنولوجيا متقدمة في عملياته، واستعداده لأقصى المخاطر يجعل ما لا يجوز التفكير فيه وارداً، كما يجعله ممكناً حتى ولو كان في المقاييس الطبيعية من المستحيلات أو من ضروب الجنون.

□ وهذا النوع من الحرب يقتضي "إرادة قوية" و"تنظيماً حديدياً" و"صبراً" يرقب على مهل لأنه ليس رد فعل يتحتم عليه "لدواع كثيرة" ـ أن يواجه فعلاً حيث يتوقع الطرف الآخر أن يجيء "زماناً او مكاناً".

وأخيراً يصل التقرير إلى الخلاصة فيقدم نظرية للدفاع في الحرب "غير المتوازية" ـ بعد أن عرض لنظرية ممارسة الهجوم فيها.

٣ـ استراتيجية مواجهة حرب جديدة!

التقرير الذي أشرف عليه الجنرال "روبرت إيفاني" ـ واعتمد عليه الجنرال "هنري شيلتون" رئيس هيئة أركان الحرب المشتركة وهو يقدم توصياته إلى الرئيسين "كلينتون" و"بوش" ـ وقد أقرها كلاهما وأصدر كل منهما في عهده توجيها رئاسياً يحدد مجموعة من الإجراءات المضادة تقوم بها القواة الأمريكية في مواجهة خطر الحرب الجديدة "الحرب "غير المتوازية" ". وهذه الإجراءات واردة بالتفصيل في الملخص التنفيذي للتقرير الذي أشرف عليه الجنرال "روبرت إيفاني".

□ الإجراء الأول: يطلب "تعظيم قوة الإدراك النظري والتأقلم مع احتمالاته تنظيمياً"، وتلك صياغة تبدو معقدة لكن التفاصيل والشروح المعروضة في شأنها تيسر فهمها.

والتفاصيل والشروح ـ بعد العنوان المعقد ـ تتحدث عن مرونة مطلوبة في التنظيم وفي العمل تصل إلى "أنه إذا كان العدو في الحرب "غير المتوازية" مهيأ لأن يفكر فيما لا يجوز التفكير فيه ـ فكذلك يجب أن يفعل المكلفون بمواجهته ـ وإذا كان ذلك العدو يستعير في عملياته الهجومية صفحات من "كتاب الجنون" ـ فإن الدفاع ضده عليه

أن يستعير فصولاً كاملة من نفس الكتاب: "كتاب الجنون". والدفاع في هذه الحالة يتصرف داخل حدود الشرعية لأن الخارج عن القانون الذي يستعير صفحة من الجنون يرتكب جريمة — وأما المدافع باسم المجتمع والدولة فإنه إذا استعاره من كتاب الجنون فصلاً — ظل في إطار الشرعية لم يخرج عنه!

وتصل مطالب المرونة "بنصوص محددة" إلى ضرورة التغاضي عن "المراسم التقليدية" المعمول بها في القرار السياسي الإستراتيجي حتى الآن، بما في ذلك العودة إلى المؤسسات قبل إصدار القرار، والاتصال بالقوى الخارجية الصديقة في التمهيد له، والتركيز على تكتيل رأي عام يسنده لأن تلك "مراسم" لم تعد تستحق أن يضيع فيها وقت ثمين، والأولى والأفضل هو القيام بفعل قوى تفهمه المؤسسات حين تنفيذه "وتجد فيه مخرجها الوحيد لتجاوز أزمة"، وتقبله القوى الخارجية حين تجده أمراً واقعاً لا يمكن استرداده "وتصطف كل واحدة منها تؤدي دورها المرسوم لها أو تجد نفسها خارج الإطار"، ويتحمس له الرأي العام الأمريكي حين يراه وقد انطلق جريئاً قوياً ومثيراً للخيال "فيأخذه عن النظر فيما جرى وكيف جرى ومن المسئول؟!".

ثم يستطرد حديث الإجراءات في شرحه لمزايا الجرأة والقوة والخيال إلى طرح فكرة إنشاء مجموعات عمل من قوات خاصة لها وجود مقيم داخل الولايات المتحدة وخارجها تكون لها إمكانيات الحركة السريعة لضرب أي خطر وفق "خطط" خلاقة و"تكتيك" باهر.

....

....

[وتلك البداية لإجراءات الدفاع في الحرب "غير المتوازية" تبدو مخيفة، لأن الدولة بالطبيعة تنظيم عاقل، فإذا استعار فصلاً من كتاب الجنون فمعنى ذلك أنه استغنى عن فكرة الشرعية لأن كتاب القانون أساسها وليس كتاب الجنون.

ثم إن تلك الإجراءات تفتح "الداخل الوطني" لكتائب عمل مسلح مقيم تعمل — في الداخل الخارج — وفق ما يوصف بأنه "خطط خلاقة" و "تكتيك باهر" — كما إن عملها يسنده تحريض إلى تجاهل وإهمال القواعد أو الضوابط "تقليدية" وذلك من شأنه أن يهوي بمستوى الممارسة السياسية الأمريكية على حقول شوك. وإذا كانت بعض الممارسات الأمريكية قبل عهد الحرب "غير المتوازية" أدت إلى شيوع وصف "الأمريكي القبيح" في إعلام وفنون لغات كثيرة في الدنيا، فإن وصف "الأمريكي المجنون" إساءة أكبر إذا اقترن بممارسات الدولة التي آلت إليها قيادة النظام الدولي!].

....

....

□ الإجراء الثاني: إجراء ليس في عنوانه غموض لفظي كسابقه وإنما الغموض فعلي. ونصه: "المخابرات الموجهة".

ومضمونه "أن الخطأ الذي وقعت فيه أجهزة المخابرات الأمريكية في العصر الحديث هو اعتمادها الزائد على وسائل التكنولوجيا المتطورة، كما فعلت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية التي تحولت إلى جهاز آخر من

أجهزة الدولة البيروقراطية، وكما فعلت فيه وكالة الأمن القومي "وهي جهاز مخابرات أكبر من المخابرات المركزية لكن اختصاصه هو فك شفرات دول العالم كله ومتابعة وسائل الاتصال في قارات الدنيا ــ من البريد إلى الفاكس، ومن البريد الإليكتروني إلى التليفونات الثابتة والمحمولة".

والتفاصيل الواردة في شرح مقاصد هذا الإجراء تذهب إلى أن "أجهزة المخابرات الأمريكية الكبيرة تستطيع أن تعتمد على التكنولوجيا المتطورة في متابعة ومراقبة حكومات أو هيئات دولية أو حتى عصابات لها أنشطة يمكن رصدها مثل تهريب المخدرات وتجارة البغاء ــ لكن نوع الحرب الجديد وهو الحرب "غير المتوازية" يستعمل وسائل أخرى أكثر تعقيداً، ولذلك فإن الضرورات تقتضي اهتماماً أكثر بـ "الجاسوس التقليدي" ــ أي الجاسوس الإنسان الذي يرسل ويزرع في الموضع المطلوب لكي يعرف ويبلغ في الوقت الملائم".

أي أنه لا بد من تعزيز التجسس الإلكتروني بنشر الجواسيس من البشر على أوسع نطاق بحيث تكون معلوماتهم مباشرة من عين وأذن وإحساس، ولا تعتمد على نبضات إلكترونية منتظمة لكنها محايدة لا ترى ولا تسمع ولا تحس.

....

....

[وهذه العودة إلى نشر الجواسيس على أوسع نطاق هي الإجراء الوحيد الذي يبدو مفهوماً أكثر من غيره. لكن خطره أن وسائل التكنولوجيا تقدر على كشف الجاسوس الإنسان، حتى إذا كان هذا الجاسوس الإنسان أكفأ من الوسائل التكنولوجية لأنه يرى ويسمع ويحس.

يضاف إلى ذلك أن نشر الجواسيس في العالم على طريقة "الوفرة" الأمريكية في كل شيء يؤدي إلى مناخ عالمي متوجس بالشك ومتوتر!

ويستحق الملاحظة أن أول ما تطلبه الولايات المتحدة الأمريكية الآن من أصدقائها في كل أنحاء العالم ــ وبعد أن جرى ما جرى في نيويورك وواشنطن، هو: جهد مخابرات ــ معلومات مخابرات ــ شبكات مخابرات!]

....

....

□ الإجراء الثالث: عنوانه "تغطية مواقع الانكشاف" في النظام الأمريكي. والعنوان واضح فيما يقصد إليه. فهو يطلب إحكام الرقابة، بكل الوسائل، وفي كافة المواقع بحيث يتأكد سد "الثغرات العارية" في الدولة والمجتمع الأمريكي حتى لو أدى الأمر إلى فرض حدود وقيود لم تعرفها التجربة الأمريكية منذ بدايتها!

....

....

[ومن سوء الحظ أن هذا الإجراء يقضي على الميزات الرئيسية للحياة الأمريكية ويحول أكثر المجتمعات تحرراً إلى مجتمع بوليسي تعم فيه نبوءات الأديب البريطاني الشهير "جورج أوريل" وبينها رواية "١٩٨٤" التي تحدث فيها عن شخصية الأخ الأكبر "جو" الذي يعرف كل شيء لأنه يراقب كل الناس، وكانت مشاهد هذه الرواية لعنة طاردت

النظم الشيوعية حتى شيعتها إلى نهايتها. والآن فإن ذلك الظل القاتم يزحف على مجتمعات كان مدار فخرها باستمرار أن أبوابها ونوافذها مفتوحة طول الوقت!]

....

....

□ الإجراء الرابع: يعود مرة أخرى بالنصوص إلى غموض التعبيرات. فعنوانه هو "الدقة الشاملة الأبعاد" وحديثه عن العوامل النفسية، وهو يجمل القول فيها بأنه "لا بد أن يدخل في التخطيط لمواجهة الحرب "غير المتوازية" عنصر إثارة الخوف والقلق دائماً لدى أي مصدر للتهديد" ــ ولما كانت مصادر التهديد متنوعة في الحرب "غير المتوازية" ــ فإن سياسة التخويف وإثارة القلق لا بد أن تستغل كل الوسائل ابتداءً من التعليم إلى التربية إلى الثقافة إلى بث المعلومات حتى يصل أي عدوٍ محتمل إلى فقدان إرادته قبل أن يبدأ نشاطه.

....

....

[وذلك إجراء إذا تم تنفيذه "وبعض التصرفات توحي بأن التنفيذ بدأ" كفيل بأن يحول القرن الحالي ــ وهو على الأرجح قرن أمريكي في أغلبه ــ إلى "كابوس" بدلاً من أن يكون "حلماً" كما كان كثيرون يأملون ويسعون منذ برزت القوة الأمريكية مع نهاية الحرب العالمية الثانية، ذلك لأن الرئيس الأمريكي لن يكتفي بأن يطلق صباح كل يوم "صرخة زئير" من مكتبه في البيت الأبيض يسمعها العالم ويعرف أن ملك الغابة لا يزال أقوى وحوشها ــ وإنما هو مقبل بالقطع على وسائل في "التخويف" تقارب "الرعب" وبعض ذلك وقع فعلاً، فالأطراف يلتمسون من واشنطن شهادات براءة، وكلهم يتسابق لعرض وتقديم المساعدة والعمل ينتظر دوره أمام مراكز التبرع بالدم!]

....

....

□ الإجراء الخامس: وهو خاتمة المطاف، يطالب بـ "أمن داخلي مندمج" Homeland Security Integrated. والعنوان مثقل بالغموض ــ مرة أخرى ــ لأنه يشير إلى أن الحرب "غير المتوازية" لا تجري خارج الولايات المتحدة كما كان الحال في زمن مضى، وإنما الأرض الأمريكية نفسها "مدنها ومعالمها ومرافقها"، هي الآن ميدان المعركة، وعليه فإن الدفاع عن أمريكا يجب أن يتم وفق إستراتيجية صلبة ومتماسكة، والسبيل إلى ذلك أن تقوم على تنفيذ إستراتيجية الدفاع الجديدة في الداخل مؤسسة أمن شامل تكون مسئولة عن حماية البنية الأساسية الاقتصادية للمجتمع الأمريكي وأن تكون لهذه المؤسسة سلطة القيام بعملها دون عوائق. وبالفعل فإن الرئيس بوش أعلن في خطابه أمام مجلسي الكونجرس يوم ١٩ سبتمبر عن تعيين وزير للأمن الداخلي في الولايات المتحدة الأمريكية!

....

....

[وعندما تقوم مثل هذه السلطة المهيمنة على الأمن وتكون تحت تصرفها وكالات مخابرات من أضخم ما عرف التاريخ فليس هناك شك في أن الولايات المتحدة سوف تتحول في الداخل "كما في الخارج" إلى ديكتاتورية عسكرية

تتنازل بها من مقام أكثر الدول تقدماً في العصر الحديث إلى واحدة من دول العالم الثالث تحكمها قوانين الطوارئ وأجهزتها وأدواتها، بما في ذلك الأمر بالقتل. وكان القتل في ممارسة السياسة الخارجية الأمريكية إجراء مسموحاً به، وقد طرأ عليه — أواخر عصر الرئيس "كيندي" — قيد يفرض ضرورة الحصول فيه على أمر رئاسي. لكنه ضمن تشديد إجراءات الحرب "غير المتوازية" سقط اشتراط الإذن الرئاسي للاغتيالات حتى على مستوى قادة الدول، وذلك معناه ضياع فكرة الدولة قبل فكرة القانون.]

....

....

كانت هذه الإستراتيجيات والسياسات والخطط لإدارة الحرب "غير المتوازية" موجودة ومكتوبة ومعتمدة، تحت التنفيذ العملي.

وبرغم ذلك فإنه عندما وقعت الواقعة، وانقضت صواعق النار والدمار فوق نيويورك وواشنطن، بدأ أن الكل "مأخوذ بالصدمة ومذهول" وكأنه لم يفكر ولم يناقش، ولم يكتب تقارير، ولم يعتمد إستراتيجيات، ولم يوقع على توجيهات رئاسية بإمضاء رئيسين أمريكيين: "كلينتون" و"بوش".

بل وراحت الإدارة في واشنطن تتصرف بشخصية وطريقة العالم الثالث:

□ انكشفت متلبسة بالإهمال الجسيم أو النسيان لأحوال فكرت فيها وتوقعتها واستعدت لها إلى درجة أنها وجدت اسما أطلقته عليها.

□ ولم تكن على استعداد للاعتراف بتحمل المسئولية والتحقيق مع القائمين بمطالب التوجيه الرئاسي وإجراءاته في شأن الحرب "غير المتوازية" "أولها البنتاجون الذي يحصل على ٢٤٠ بليون دولار كل سنة من الميزانية الفيدرالية — وقبله أجهزة المخابرات التي تحصل على ٣٠ بليونا — وغيرها وغيرها".

□ وراح الرئيس الأمريكي يتهم كل الأطراف إلا نفسه — وكل الجهات إلا إدارته.

ومن اللحظة الأولى وصف ما حدث بأنه "إعلان حرب" على أمريكا، لكن الحرب طرحت نفسها بشهوة الانتقام والأخذ بالثأر. وفي الحقيقة فإن الرئيس الأمريكي كان يثأر لنفسه ولإدارته من المفاجأة التي نزلت على الأثنين!

□ ثم كان التجاء "بوش" هارباً إلى الدين يقيم صلواته وطقوسه ويستدعي جلاله لكي يصرف الناس عن الحقائق الماثلة للعيان بدفعهم إلى الاستغراق في غيب الإيمان.

□ وكانت الخطوة التالية استحضار الوطنية إلى درجة التعصب لعلها تمسح دموع الآلام بقماش الأعلام وتغطى بصوت الأناشيد الحماسية على شهقات النحيب المجروح بالفاجعة.

[ولتكملة "المشهد الثقافي" والحفاظ على نقائه وقع الطلب إلى وسائل الإعلام الأمريكية أن تمتنع — رجاءً — عن نشر — أو التوسع في نشر — خبر أو أخبار عن نهب مخزن للمجوهرات والمصوغات تحيط به أربعة محلات لبيعها في مداخل أبراج التجارة العالمية، لأن مرتكب هذا النهب في هذا الموقع لا يمكن إلا أن يكون من ضباط

البوليس ، أو إطفاء الحرائق، أو الحرس الوطني وهذا يسيء إلى الملائكية المطلوبة لصورة أمريكا مع حالة المأساة وكان أن جريدة واحدة وهي "نيويورك تيمس" أصرت على حقها في النشر!]

□ وجاء الدور لدعوة الأصدقاء في الدنيا إلى مظاهرة في حب أمريكا تقنع شعبها بأنه ليس وحده أمام جيوش الشر وآثامها. ومع أن الدعوة إلى إظهار الحب غريبة في بابها لأن لهجتها بدت إنذار للآخرين بأن يقرروا حالا "هل يموتون حباً أو يموتون ضرباً" ـــ "معناً أو مع الإرهاب"، فإن كثيرين في العالم راحوا ـــ وبصدق ـــ يصلون في الكنائس والمساجد، ويدلون بالتصريحات للصحف، ويصدرون الفتاوى في كل الأديان باستنكار ما جرى "لأن ما جرى بالفعل يصعب قبوله مهما كانت ذرائعه".

□ وعندما اكتملت درجة ساخنة من التعبئة ولحق بها التأهب للعمل العسكري، بدا بوضوح أن الرئيس الأمريكي يريد أن يعوض بالعنف ما انكشف من إدارته بالضعف.

فهو يستعمل القوة العسكرية التقليدية، وفيها الجيوش وأساطيل البحر والجو والصواريخ، على أوسع نطاق أو يهدد بها "حتى الآن" ـــ مع أن القوة العسكرية التقليدية لم تكن ضمن الإجراءات المطروحة لمواجهة هذا النوع من الحروب الجديدة. فحشد الجيوش ينتمي إلى عصر الحرب "غير المتوازنة" وليس إلى عصر الحرب "غير المتوازية".

□ وكذلك بان وكأن الرئيس الأمريكي يريد تصفية حساباته المعلقة في منطقة الشرق الأوسط ضمن عملية جراحية ممتدة، ومع ملاحظة أن "بوش" ـــ من قبل صواعق النار على نيويورك وواشنطن كان يهدد الشرق الأوسط بخريف خطر، فهو الآن ـــ ولأسبابه الطارئة ـــ يهدد بشتاء ممتد من الحرائق لا تنقطع فيه ألسنة اللهب!

□ وأكبر الظن أن ما يبدو من خطط الرئيس الأمريكي لا يجعل الخريف خطراً ولا يجعل الشتاء حريقاً في الشرق الأوسط وحده، وإنما يوحي شكل الكلام والحركة ونوايا الفعل بأنها نار واصلة بألسنتها وشررها إلى بعيد، لأن العالم يساق إلى مواجهة حالة حرب مزدوجة: حرب "غير متوازنة" لها أسلحتها التي تحتشد وتتحرك، وفي الوقت نفسه حرب "غير متوازية" لها إجراءاتها ومعظمها بالغ التعقيد وخفى. وازدواجية نوعين من الحرب في الوقت نفسه خبط في الظلام وخطر.

٤ ـــ صناعة وحش والخلاص منه بالقتل!

يجيء أو أن الانتقال إلى مجموعة ملاحظات ينصب معظمها على منطق هذه الحرب من نوع جديد التي أسموها الحرب "غير المتوازية" "مع أن أصحابها ينزعون عنها المنطق ويلحقونها بالجنون":

*الملاحظة الأولى: إنه يبدو من قراءة عدد كبير من الوثائق والتقارير الأمريكية أن انتفاضة الطفل الفلسطيني كانت أول ما لفت الأنظار إلى تغيير في استعمال القوة يمزج بين متناقضات يصعب اتفاقها داخل فعل واحد.

فالطفل في كل الأوطان رمز للبراءة، وخروجه إلى مقاومة الدبابة يجسد معنى الجرأة حين يدعو إليها اليأس، واستعمال الطفل للحجر يلتقطه من العراء حرب بغير تكلفة مادية، وحرب لا تحتاج إلى عبء إداري، وهي

مستغنية عن التنظيم بتلقائية مثالية تشيع روحاً مشتركة في المقاومة، إلى جانب أنها تستدعي إيماءة دينية من حيث أن الرجم بالحجارة يقترن بمقاومة الشيطان في الإسلام.

وقد بدت "الانتفاضة" أمام أصحاب نظرية الحرب "غير المتوازية" ظاهرة تدعو لإطالة التفكير باعتبارها تجديداً للوسائل في قوة المقاومة.

وربما أنه من الخبرة في مقاومة الانتفاضة، فإن أجهزة المخابرات الإسرائيلية هذه الأيام شديدة النشاط في كتابة تقارير تزعم لنفسها خبرة طويلة في ممارسة الحرب "غير المتوازية"، "مع أن خبرة "آرييل شارون" رئيس وزراء إسرائيل لا ترشحه دليلاً تلتمس خبرته، في مقاومة الإرهاب ــ بل العكس صحيح!"

*الملاحظة الثانية: إن وثائق الاستراتيجية الأمريكية الجديدة ــ وفيها التوجيهات الرئاسية لــ "كلينتون" و"بوش" ــ تظهر أن الحادث الذي تعرض له الطراد "كول" في ميناء عدن "أكتوبر ٢٠٠٠" جرى اعتباره الضربة الأولى المؤكدة في الحرب "غير المتوازية".

فهناك في اليمن، بعيداً عن أي فعل ورد فعل، وبدون ميدان مواجهة قائمة أو محتملة، أقدم رجلان يصفهما تقرير أمريكي بأنهما "ملآ أشداقهما بنبات القات المخدر وركبا قاربا مطاطيا مستعملا لا يزيد ثمنه على مائتي دولار، ثم سارا به وسط ميناء عدن على مرأى ومسمع من مئات الناس "وفيهم البوليس اليمنى والحراسة الأمريكية على ظهر الطراد" ثم اصطدما بــ "كول" وحولا أرواع المفاخر البحرية في ترسانة القوة البحرية الأمريكية إلى بطة مكسورة الجناح تعرج فوق الموج عاجزة ومهانة!"

ويظهر في الوثائق أن الإستراتيجية الأمريكية الجديدة لم تعتبر بحوادث غير تقليدية سبقت حادث الطراد "كول" ولم تقم بتصنيفها تحت بند الحرب "غير المتوازية" مع أنها تبدو كذلك للوهلة الأولى:

□ فهي لم تعتبر أن ضرب قوات "المارينز" حول السفارة الأمريكية في أجواء الحرب الأهلية في لبنان "أكتوبر سنة ١٩٨٣" من أعمال الحرب "غير المتوازية" وإنما اعتبرتها تنويعات من نماذج الحرب "غير المتوازنة".

وبرغم الخسارة الضخمة التي أصابت قوات المارينز في تلك العملية فقد كان تصنيفها على أساس أنها نوع من "المقاومة الثورية" ــ ضد فعل نزول القوات الأمريكية في لبنان أي أنها رد فعل طبيعي في داخل الزمان والمكان.

□ ونفس الشيء جرى في تقدير الولايات المتحدة لحادث انفجار مستعمرة سكنية للطيارين الأمريكيين في قاعدة "الخبر" شرق السعودية "يونية سنة ١٩٩٦"، فهو مرة أخرى فعل ورد فعل داخل الزمان والمكان.

□ لكنه من الملاحظ أن الولايات المتحدة نسبت إلى الحرب "غير المتوازية" "سياسياً" تلك المظاهرات التي صاحبت مؤتمرات التجارة العالمية والمجموعات الاقتصادية في "سياتل" "نوفمبر ١٩٩٩" في أمريكا ــ و"دافوس" في سويسرا "يناير ٢٠٠٠" و"جنوا" في إيطاليا هذه السنة "يولية ٢٠٠١" ــ وفي نفس الإطار صنفت قرارات المنظمات غير الحكومية في "دربان" في الشهر الماضي "التي اعتبرت الصهيونية ممارسة للعنصرية" كانت

التقديرات أن تلك كلها من ملابسات حرب الزمن الجديد ــ الحرب "غير المتوازية" وهي ممارسات سياسية عنيفة وإن تكن غير مقاتلة.

□ ثم كان "أن صواعق نيويورك وواشنطن يوم ١١ سبتمبر أصبحت بمثابة الإعلان الرسمي للحرب "غير المتوازية" ولعصرها"!

□

*الملاحظة الثالثة: إن الاتهام من اللحظة الأولى ــ تحت الصدمة والذهول ــ وقبل التحقيق والتدقيق ــ توجه إلى "أسامة بن لادن" الذي يتخذ من "قندهار" جنوب شرق أفغانستان بؤرة يدير منها تنظيمه السري الذي يعرف باسم "القاعدة". وتنظيم "القاعدة" قصة تعرف عنها الولايات المتحدة وأصدقاؤها في المنطقة أكثر مما يعرف أي طرف آخر، فهي فكرة لها علاقة بسياسة أمريكا في زمن الحرب الباردة، والحاصل أن المخابرات المركزية الأمريكية كانت صاحبة الفكرة فيها وغايتها التحريض على إثارة القلاقل للاتحاد السوفيتي في المنطقة الحساسة من جنوبه وهي منطقة انتشر الإسلام في عدد من أقاليمها، وبالذات جمهوريات طاجيكستان وأوزبكستان وتركمانستان. وهذه الجمهوريات في "البطن الطري" للاتحاد السوفيتي ملاصقة لأفغانستان ونتيجة ذلك أن أفغانستان أصبحت بحقائق الجغرافيا وظروف التاريخ ميداناً نشيطاً لعمل وكالة المخابرات المركزية الأمريكية منذ بداية الحرب الباردة!

وكانت "أفغانستان" هي المدخل الأقرب للتجسس على عمق "الاتحاد السوفيتي" انطلاقاً من القواعد الأمريكية في "باكستان"، وكان مطار "بيشاور" بالتحديد هو منطلق طائرات التجسس الأمريكية الشهيرة من طراز "يو ٢" وقد انكشف أمرها وأسقطت إحداها، وأدى ذلك إلى فضيحة مدوية في العلاقات بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، وبين وقائع الفضيحة تشاتم كاد أن يصل إلى حد التشابك بالأيدي بين الزعيم السوفيتي "نيكيتا خروتشوف" والرئيس الأمريكي "دوايت أيزنهاور" في الجلسة الأولى من مؤتمر قمة انعقدت في باريس سنة ١٩٦٠ وكانت نفسها الجلسة الأخيرة.

والواقع أن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية بدأت التحريض ضد الاتحاد السوفيتي ــ باسم الإسلام ــ ومن وراء حدود أفغانستان بينما النظام الملكي يحكم في "كابول" والعرش عليه الملك "ظاهر شاه" والسلطة الحقيقية في يد ابن عمه ورئيس وزرائه السردار "داود خان".

وقد أدى التحريض إلى قلاقل أوصلت إلى عزل الملك "ظاهر شاه" وجاءت بـ "داود خان" لرئاسة الدولة في محاولة لتهدئة التحريض ولم تنجح. وكذلك وقعت سلسلة انقلابات في أفغانستان انتهت جميعاً بتدخل سوفيتي صريح في أفغانستان بدعوة "شرعية" من قائد انقلاب شيوعي هو الجنرال "بابراك كارمل" سنة ١٩٧٩.

وهنا انتقلت المخابرات المركزية الأمريكية من التحريض إلى انتهاز الفرصة لحرب استنزاف خفية تشن على الاتحاد السوفيتي باسم الإسلام، وتصادف أن ذلك وقع في الأجواء العاصفة للثورة الإسلامية في إيران وتأثيراتها على ما حولها.

وكانت حرب استنزاف الاتحاد السوفيتي ــ بعد حرب التحريض عليه ــ تخطيطاً أمريكياً، وإشــراف باكســتانياً، وتمويلاً خليجياً "سعودياً في أكثره"، ومشاركة عربية متعددة الأطراف فيها من قدم السلاح والعتاد وفيها مــن قــدم المجندين والمتطوعين الذين اعتبروا أنفسهم مجاهدين ضد الإلحاد.

وفي حين أن العدو الحقيقي للعرب والمسلمين كان الاغتصاب الإسرائيلي في فلســطين، فــإن العمــل العربــي والإسلامي ذهب للجهاد في أفغانستان مقاتلاً ضد الإلحاد المادي الذي دخل من بوابات "كــابول" وكانــت الخطــط الأمريكية محكمة، والإشراف الباكستاني حازماً "يشرف عليه رئيس المخابرات العسكرية الباكستانية الجنرال "حميد غول""، والتمويل الخليجي سخياً، وحشد السلاح وتجنيد المتطوعين شديد الهمة والعزم.

وتقول كافة الشواهد أن شباباً عربياً مسلماً أضاع نفسه وهدفه وحياته في حرب لا معنى لها ضد طرف لم تثبــت عداوته لا للعرب ولا للمسلمين، لكنه اتهم بالإلحاد واختص بالعقاب رغم وجود كثيرين غيره في عالم ضــاع منــه الكثير من اليقين!

وكان تنظيم "القاعدة" هو القيادة التي وضعت تحت تصرفها كل إمكانيات التكنولوجيا الأمريكيــة، وكــل مقــدرة العسكرية الباكستانية، وكل كرم التبرعات الخليجية والسعودية "صندوق دوار فيه دائماً ٥٠٠ مليون دولار"، وكــل نشاط التسليح والتجنيد المصري والسوري والمغربي وحتى الفلسطيني "بما وصل مجموعة الكلي على مساحة خمس سنوات إلى قرابة خمسين ألف شاب مسلم نصفهم من العرب بينهم ستة آلاف مصري على أرجح التقديرات". وقــد درب هؤلاء جميعاً بكل جد، وشحنوا بطاقة إيمان مشبوبة بالنار.

لكنه عندما انتهت الحرب الباردة ورفعت الولايات المتحدة يدها عن الحرب الخفية في أفغانستان وكفت المخابرات المركزية الأمريكية عن التخطيط للمعركة ضد الإلحاد الشيوعي، أصبح الاستمرار الأمريكي والعربي الرسمي غير مبرر وغير مطلوب وبالتالي وقع الانسحاب.

وحاول تنظيم "القاعدة" أن يواصل ما يقضى به الإيمان ــ لكنه ما لبث أن تحول في نظر الذين قاموا على إنشائه: من كتائب جهاد إسلامي، إلى عصابات إرهاب إجرامي.

وسقط شباب كثيرون مسلمون وعرب في هذه الفجوة بين الجهاد والإرهاب وخرجوا من زمنهم ومن المســتقبل. وكانت الأنظمة التي أرسلتهم إلى الجهاد ضد الإلحاد هي نفسها الأنظمة التي استقبلتهم حين عودتهم إلــى بلادهــم بإيداعهم وراء قضبان السجون بتهم ثابتة في بعض الأحيان وبشكوك مستريبة مقدماً في أحيان أخرى!

**

*الملاحظة الرابعة: تخص "أسامة بن لادن" نفسه، وهو شخصية يمكن فهمها بدون حاجة إلى دراسة عميقة فــي "علم النفس" تغوص في النوازع والهواجس الداخلية لتصرفات البشر. والقصة فيما هو شائع ــ قصــة شــاب مــن عائلة سعودية لها جذور يمنية تعمل بالمقاولات، وكان له مكتب يمارس نشاطه التجاري في أفغانســتان، وعنــدما بدأت الحرف الخفية "ضد الإلحاد" في أفغانستان، استعمل مكتب "بن لادن" واجهة لتوصيل الأمــوال بشــكل يبــدو مشروعاً إلى أوجه من النشاط لم تكن وقتها مشروعة.

لكن الذي حدث ــ وتلك حالة طبيعية ــ أن الشاب عاش دوره لكي يتسق مع ضميره فاعتبر نفسه مسئولاً عن محاربة الإلحاد وتلبس بالكامل دوره، وذهب بعيداً في تصديق الوهم، خصوصاً عندما جرى الانسحاب الأمريكي ولحقه الانسحاب العربي الرسمي تمويلاً وتسليحاً وتعبئة!

ذلك أنه عند هذه النقطة كان "أسامة بن لادن" أمام خيارين لا ثالث لهما، إما أن ينسحب من الساحة هو الآخر وبالتالي يصبح أمام نفسه وأمام الآخرين مجرد وكيل للمخابرات المركزية الأمريكية وكفيل لأصدقائها من الآسيويين والعرب ــ أو يواصل "المهمة" على مسئوليته ليؤكد لنفسه ولغيره أنه كان طول الوقت مجاهداً وقائداً للمعركة ضد الإلحاد.

ومع أن المعركة في أفغانستان بعد الانسحاب السوفيتي لم تعد لها صلة ــ ولا حتى بالادعاء ــ بين إيمان وإلحاد، وإسلام وكفر، لأنها أصبحت حربا بين قبائل وعشائر ومشايخ، فإن "أسامة بن لادن" ظل يقود تنظيماً بلا قضية في أرض بلا هوية "لأن الماضي إذا أصبح هوية أضاع قيمة الحياة ومعنى التاريخ".

وكان أن الرجل لم يجد لنفسه خياراً آخر رغم أن الحصار أخذ يطبق عليه، ورغم الأمراض التي أصابته، والتي تقدر وكالة المخابرات الأمريكية المركزية أنها تهدده بالموت فيما بين سنتين إلى ثلاث سنوات على أكثر تقدير!

وفي الواقع فإن قصة "بن لادن" أصبحت شبيهة بأسطورة الوحش الذي خلقه الدكتور "فرانكشتين" في الرواية الشهيرة لـ (ماري شيلى) وكان قصد الدكتور (فرانكشتين) في الأصل أن يثبت قدرة العلم على معجزة الخلق، لكن القصد خاب لأن الحياة ليست "كياناً" يتحرك وإنما هي في الوقت نفسه "روح" تنبض، ووقع فعلاً في الرواية أن الحياة المصنوعة هددت صانعها، واضطر العالم إلى درء خطر معجزته عن نفسه، وقام بتدمير الوحش الذي صنعه وتفكيك أجزائه بالتكسير وبالحرق والصعق!

وذلك بالضبط ما يجري الآن. مع أن "بن لادن" ليست له قوة وحش "فرانكشتين" فهو على وجه القطع لا يستطيع أن يخطط أو يدير أو يسيطر على عمليات من نوع صواعق نيويورك وواشنطن، فضلاً عن أنه لا يظهر ما يؤكد أن صواعق "نيويورك" و"واشنطن" مسألة لها علاقة بحق عربي مغتصب في فلسطين أو بحق إسلام يتهم بما ليس فيه هذا الزمان، والواضح أن المسألة أوسع من ذلك وأعم، والأغلب أنها تتصل بعولمة الرفض والإرهاب أكثر مما تتصل بخصوصية القضايا العربية أو الإسلامية!

ولعل الأهداف المباشرة لصواعق النار دليل على صحة هذا الظن ورجحانه. فالأهداف هي: البرجان الشهيران "التجارة" على طرف جزيرة "مانهاتن" في نيويورك "رمز الرأسمالية الأمريكية والعالمية"، ثم مبنى "البنتاجون" رمز القوة العسكرية الإمبراطورية المصرة على الهيمنة وهو على طرف واشنطن.

....

....

*الملاحظة الخامسة: سؤال يصعب تجنبه، وتستعصي الإجابة عنه، والسؤال متشعب:

□ إذا لم يكن "بن لادن" ــ فمن؟

□ وإذا وقعت الإشارة إلى تحالف الرفض العريض الذي "تعولم" هو الآخر ــ فأي العناصر ضمن هذا التحالف كانت الأقرب إلى صواعق النار التي نزلت فوق نيويورك وواشنطن؟

□ ثم ما هو المطلوب وراء ما جرى ــ باعتبار أي فعل طلبا؟

وكان هذا السؤال شاغل كثيرين، ومن المفارقات أن الصراخ علا بأنه "بن لادن" في حين كانت هناك ــ وبدون صراخ ــ جهات مسئولة "أوروبية على وجه الخصوص" تطرح تصورات مختلفة بعضها فيه الكثير من إمكانية التصديق!

وبين ما يطرح الآن ــ وحتى في "بروكسل" عاصمة حلف الأطلنطي ــ تصور مختلف يستبعد "بن لادن" ويعرض بناء كاملاً هو دلالة شواهد، أكثر منه رباط وقائع. وهو تصور يستحق الاعتبار.

دلالة الشواهد تعرض خطا متصلاً ملخصه:

□ إنه بالفعل يصعب وفق أي تقدير سليم نسبة ما جرى فوق نيويورك وواشنطن إلى "إسامة بن لادن" أو تنظيم "القاعدة" الذي يتزعمه. والصعوبة لا تنشأ من حقيقة أن العملية التي وقع تنفيذها تتخطى إمكانيات "بن لادن" العملية والتنظيمية والإنسانية، لكن الصعوبة إلى درجة الاستحالة تنشأ من أن "بن لادن" كان خلال الفترة الأخيرة، بعد حادثة تفجير المدمرة الأمريكية "كول" ــ موضع رقابة لا يستطيع الإفلات منها، بمعنى أنه يستطيع إخفاء نواياه في صدره، ويستطيع إخفاء تفاصيل حياته داخل الكهوف التي يكمن فيها، لكنه في حالة الترتيب والتخطيط وتنفيذ عملية على مستوى ما وقع في نيويورك وواشنطن لا يقدر على إخفاء شيء ولو ليوم واحد في عملية استغرق الترتيب لها مالا يقل عن سنة كاملة، وشارك في الإعداد لها ما لا يقل عن مائة موقع في أمريكا وأوروبا، ودخل في مهام تنفيذها ما لا يقل عن خمسين رجلاً "وربما امرأة".

وما هو ثابت أن "بن لادن" وتنظيمه ليس مراقباً فقط، ولكنه مخترق من جانب أجهزة أمن محلية، أو لها مخابرات باكستان العسكرية والمدنية، وهي الراعي الأساسي لمعركة ((طالبان)) ثم مخابرات الهند وهي مهتمة بتنظيم "القاعدة" بسبب ظهور بعض أعوان "بن لادن" في "كشمير" بالإضافة إلى خمسة أو ستة أجهزة مخابرات عربية وأوروبية.

□ والشواهد تكاد تنطق بأن "الفاعل" طرف مستجد على الساحة، لم يراقب من قبل، وليست له سوابق تضعه في دائرة المراقبة، وذلك مكنه من تواجد لم يلفت الشبهات في مواقع استكشف فيها ودرس أثناء التخطيط، ثم استوثق منها وتأكد أثناء الاستعداد للتنفيذ، ثم ظهر في المواقع التي استكشفها وأعدها وفعل ما فعل في تلك الساعات المشحونة بالقلق ــ وهي أربع ساعات غيرت العالم تقع بين السابعة والحادية عشرة من صباح يوم الثلاثاء ١١ سبتمبر من توقيت شرق الولايات المتحدة الأمريكية.

ولم تكن هذه الساعات الأربعة الحاسمة تسللاً أو تخفياً، وإنما كانت خطى وإجراءات عادية تحت سمع وبصر مئات الموظفين معظمهم من ضباط المخابرات والأمن والجوازات والجمارك في مطار من أكثر مطارات أمريكا ازدحاماً "مطار بوسطن" ــ وكذلك في دائرة كاميرات ثابتة ومتحركة قائمة في كل زاوية لكي تكشف كل ركن.

ومما يزكى أن "الفاعل طرف جديد، أن الخيال الذي استعمله غير مطروق ــ غير مسبوق ــ مع التسليم بأن الخيال القديم حتى مع مقدرته على التجديد يظل دائماً على صلة بالتجربة، في حين أن الخيال الجديد لديه جسارة أن يجرب في المطلق دون حاجة إلى أرضية سبق التعرف عليها، أو سقف تحدد ارتفاعه بالممارسة.

ويزكي حقيقة أن "الفاعل" طرف جديد ــ أنه قدم مستوى علمياً ممتازاً في دراسته لخطته لم يظهر من قبل. فهذا "فاعل" يدخل المطار حاملاً حقيبته ــ وسلاحه ينتظره وراء بوابات ركوب الطائرات بعد انتهاء كل إجراءات السفر والأمن ــ وهو واثق من كمال استعداده بما في ذلك طاقة التفجير، لأنها خزانات وقود كافية للسفر ست ساعات في الجو من الساحل الشرقي للولايات المتحدة نحو الساحل الغربي. و"الفاعل" لديه بعد ذلك كفاءة أن يستولي على الطائرة التي صعد إليها وتحويلها إلى قذيفة يستطيع توجيهها إلى هدف قرره. والهدف سبق اختياره بمعناه الرمزي في "نيويورك" العاصمة الاقتصادية للولايات المتحدة أو في "واشنطن" العاصمة السياسية. ثم إن نقطة الاصطدام بالهدف حساب هندسي دقيق يريد أن يصطدم على مساحة الارتفاع القائمة ما بين الدور الستين والدور السبعين لكي يكون حمل الأنقاض النازلة من أعلى إلى أسفل كافياً ليهوى ببرج التجارة المستهدف راكعاً غائراً في حفرة غاص فيها دون أن يتبعثر أو يتناثر إلى بعيد.

□ إن "الفاعل" تحركه دوافع نفسية مختلفة بالكامل عن التصور العربي للحركة المطلوبة إزاء الولايات المتحدة، بمعنى أن مطلب العرب من أمريكا أن تضغط على إسرائيل، وهذا الضغط ــ في حد ذاته ــ لا بد أن يكون بعيار ومقدار بان مرات متعددة في عمليات سابقة سببت أضراراً جسيمة ومع ذلك تركت قنوات مفتوحة!

لكن "الفاعل" صباح الثلاثاء ١١ سبتمبر لم يظهر راغباً في التأثير أو مباشرة الضغط بمختلف درجاته، بل لم يكن في شكل فعله أنه يبعث بإشارة ــ حتى لو كانت دموية ــ إلى المستقبل، ولم يترك ثغرة لفرصة. وإنما كان "الفاعل" كما تقول كافة الإشارات غاضباً، وكان مصراً على الانتقام، وفي الغالب من شيء وقع.

وفي كل ما عرفه العالم في مجالات ما يسمى بــ "الإرهاب" فقد كان ما بدا من هدف العمليات في كل المرات إحداث أكبر "كمية" من التأثير السياسي تزيح من الطريق عقبات أو تفتح على الطريق مخرجاً، أما ما جرى في نيويورك وواشنطن فلم تكن فيه سياسة ولم يكن فيه "قبل" و"بعد"، وإنما تبدى العمل مكتفياً بذاته ــ مقدمة ونتيجة ــ وكل شيء!

ضربة انتقام أو ضربة عقاب يحركها انضباط صارم من اللحظة الأولى وحتى المشهد الختامي!

□ وتكاد تحركات "الفاعل" وحتى مزاجه في الفعل توحي بأن التخطيط "عسكري". فذلك بالفعل مستوى الترتيب والتنفيذ، وعقلية ونفسية الإدارة، مع تصور "نظامي" شديد الوضوح، فهناك "تجهيز معركة"، وهناك "تدريب

معركة"، وهناك "أرضية وخطوط إمداد معركة"، وتلك شواهد على أنه إذا لم يكن هناك شكل لـ "تواجد" عسكري ملموس فإن هناك ظلا لتواجد عسكري محسوس.

والتواجد العسكري المحسوس مع برودة أعصاب تتجلى في الصبر الدءوب على التفكير والتخطيط والترقب والتنفيذ ــ يبدو مستعداً بتصميم محكوم بإرادة أكبر من أن تنتسب إلى الانفعال ــ لمواجهة انتحار مؤكد. وذلك نوع من الفعل ظهر مفعوله ــ بدرجات متفاوتة ــ في مسار صراعات تاريخية انكسرت فيها وطنيات وحوصرت هويات، وضاقت نفوس بما عانت وقاست، وتحملت به وخضعت له.

....

....

والذين يطرحون هذا التصور ــ وغيره ــ في أوروبا وحتى في عاصمة حلف الأطلنطي يصلون في النهاية إلى أن تلك الإشارات تكاد أن تكون لمسات فرشاة تمزج البقع بالأسود والرمادي والأحمر، وترسم لوحة عليها مساحات شديدة الغموض مفتوحة للخيال والتأويل. وكان أكثر ما تثيره لمسات الأسود والرمادي والأحمر مشاعر وهواجس تستعيد شروط "الفاعل" وهي تلفت النظر إلى "البلقان" وصراعاته وبالتحديد إلى عناصر "صربية".

هناك قومية اعتدى عليها وجوداً ومشروعاً وكرامة.

وهناك جيش تم ضربه وتمزيقه وأهانته.

وهناك شعب تعرض لغارات الأطلنطي تتقدمها أساطيل الجو الأمريكية لمدة خمسين يوما.

وهناك زعماء سياسيون وعسكريون مهزومون، بعضهم مطارد وبعضهم مطلوب لقانون أملته شروط الغلبة، بل إن بعض الرموز الصربية وراء قضبان السجون فعلا.

وفي بقايا الجيش الصربي عناصر لديها المؤهلات المطلوبة، ولديها طاقة الغضب الجامحة، ولديها التصميم على الانتقام والثأر مهما كان أو يكون، ولديها جسارة المخاطرة بملاقاة الموت دون اعتبار هذا النوع من الموت انتحاراً.

بالإضافة إلى ذلك فإن تلك العناصر الصربية مستوفية كل شروط "الفاعل" كما وقع توصيفها: قادم جديد إلى الرفض ما زال خياله غير محدد. وليست له سجلات سابقة تلاحقه وتتابعه خارج دائرة معينة.

ولديه الشحنات والطاقات والقدرات والمهارات التي تهيئُه لتطاير الشرر.

وكانت شهرة "البلقان" في التاريخ الحديث أنه "برميل بارود" تسبب في الحرب العالمية الأولى التي قادت إلى الحرب العالمية الثانية ــ وهذه الحرب العالمية الثانية أضافت إلى "البلقان" "برميل بارود" جديداً في الشرق الأوسط.

....

....

ومع ذلك فربما تجاورت "براميل البارود". "برميل" الشرق الأوسط " "بن لادن" أو غيره" ـــ و"برميل" البلقان "الصرب وما حولها و"براميل" بارود ثالثة أو رابعة، ثم تفجرت كلها صواعق نار فوق نيويورك وواشنطن. وقذفت بالعالم إلى حافة حرب من نوع جديد، هي الحرب "غير المتوازية".

وفيما يظهر من العينة الأولى فهي نوع الحرب الأخطر.

وبدليل صواعق نيويورك وواشنطن، فهذه موقعة لا مثيل لها في تكثيف الصدمات إذا قيست بغيرها من أزمنة سابقة:

□ الإحساس بالإحباط فيها ــ بعد دقائق ــ زاد على كل ما راكمته حرب "كوريا" وحرب "فيتنام" على الأعصاب الأمريكية طوال عشرين سنة!

□ والخسائر المادية على مدى الأسبوع الأول من العملية تساوى تكاليف الحرب العالمية الثانية وقد دفعتها أسواق العالم وكان النصيب الأكبر منها خسائر السوق الأمريكية، وتقديرها الأولى "٢ تريليون دولار" "تصف إجمالي الدخل القومي الأمريكي هذه السنة".

□ والتضحيات من أرواح البشر بضربة واحدة أكثر مما تكبدته أمريكا في أي معركة عسكرية خاضتها ولم يكن هناك جبهة ولا ميدان قتال ولا تحركات جيوش تهيىء نوعاً من الإنذار المبكر "وعلى سبيل المثال فهي أكثر من كل الخسائر البشرية المصرية في معارك سنة ١٩٦٧".

....

....

لكن الأسوأ هو الضرائب السياسية، المادية والمعنوية. بمعنى أنه في إطار حرب "غير متوازنة" تستطيع أمريكا بالقوة العسكرية أن تعيد أفغانستان إلى العصر الحجري "وأفغانستان لم تبتعد عن هذه العصر كثيراً"، لكنه وكما يبدو من الوثائق الأمريكية ــ فإن الولايات المتحدة بإجراءاتها وفق استراتيجية الحرب "غير المتوازية" على وشك أن تعيد نفسها إلى وضع قريب الشبه بأوضاع العالم الثالث ــ أبوابه المغلقة ونوافذه المسدودة.

وكذلك يصل الحلم الأمريكي حتى يحبس نفسه في قفص من الخوف يحرسه وزير "للأمن الداخلي" في بلد يتباهى أصحابه يسمونه "الولايات المتحدة الأمريكية" ــ وليس "الجمهوريات الاتحادية السوفيتية"!!

من نيويورك إلى كابول وبالعكس!

عن الأزمة والحرب!

كان ترتيبي قبل أن تقع الواقعة في نيويورك وواشنطن يوم ١١ سبتمبر الأخير، أن أقصد إلى بعض عواصم أوربا، ومنها إلى الولايات المتحدة: واشنطن ونيويورك. وجرى تجهيز إجراءات السفر وتحدد موعده في الصباح الباكر من يوم ١٧ سبتمبر وهو يوم أربعاء، وخط سيري المرسوم أن أتوجه إلى لندن لأيام معدودة، ومنها عبر

المحيط إلى نيويورك في عطلة نهاية الأسبوع، وبحيث أكون يوم الاثنين التالي "١٦ سبتمبر" في واشنطن بادئاً اليوم من أوله، باحثاً عن الأحوال والاحتمالات كما تبدو في العاصمة الأمريكية التي أصبحت ــ أعجبنا أو لم يعجبنا ــ عاصمة القوة في العالم ومركز القرار في مصائره..

وكنت على معرفة بأن هناك "نوايا" و"خططا"، فرغت الإدارة الحالية في الولايات المتحدة، مع ربيع هذا العام "٢٠٠١" ، من بلورتها ــ وهي على وشك أن تطرحها للتنفيذ على اتساع قارات العالم وفيها المنطقة التي تعنينا أكثر من غيرها وهي منطقة الشرق الأوسط.

وبالفعل فقد كنت اطلعت على نصوص تقرير رئاسي أمريكي بشأن استراتيجية جديدة جرى اعتمادها من جانب الإدارة الأمريكية لمستقبل العمل في هذه المنطقة، وشغلني التقرير، حتى أنني عرضته على صفحات هذه "المجلة" "في عدد أول سبتمبر" ــ ثم رأيت الارتحال عبر البحر وعبر المحيط باعتقاد أن هناك الكثير مما يمكن استجلاؤه والبحث في تفاصيله: سؤالاً، وجواباً، وحواراً وفهما بقدر ما هو ممكن.

وعصر يوم الثلاثاء ١١ سبتمبر، كانت الترتيبات في مواضعها، بما في ذلك مواعيد اجتماعات حرصت أن أضمن لها وقتاً يكفيني، ولقاءات على الإفطار والغداء والشاي والعشاء متواصلة، وهي مناسبات للكلام أكثر منها مناسبات للطعام.

وفجأة وكنت أطل على قناة *CNN* فوق شاشة التليفزيون ــ توافقت نظرتي الأولى بمحض مصادفة مع إشارة تقطع البرامج بخبر طارئ، يفيد أن طائرة مدنية اصطدمت بأحد برجي التجارة الشهيرين في نيويورك، ولدقائق تصورت أنها حادثة وقعت بسبب طيار ضل مساره أو أخطأ ارتفاعه، فارتطم بناطحة سحاب، تمثل هي وتوأم لها، أظهر العلامات على خط الأفق الشهير لمدينة نيويورك.

ورحت أتابع ما بدا لي ــ رغم مأساويته ــ حدثاً عادياً يقع مثله كل يوم مع اختلاف الظروف والمواقع. ثم استجد بعد دقائق ما ظللت لبعض الوقت غير قادر على تصديقه، فقد ظهرت على حافة شاشة التليفزيون طائرة ثانية، اخترقت الصورة بسرعة، ثم نفذت في البرج الثاني، ومع أنه كان من العسير على أي عقل أن يستوعب معنى ما جرى، فإن الحقيقة كانت أمام العيون تفرض يقينها، حتى وإن كانت هذه الحقيقة عصية على التصديق، متفوقة على الخيال، داعية إلى الانبهار قبل إدراك أن الصور وراءها ــ بالضرورة ــ مصائب ومآسٍ إنسانية.

ثم يزداد عمق الفجوة بين الصورة المبهرة والحقيقة الدامية، عندما يبدأ البرجان التوأمان ــ العملاقان ــ في الانهيار ــ من الداخل كأنهما صرح يسقط راكعاً على ركبتيه مكوماً على الأرض ومن حوله جبال من ركام الحديد والحجر، فوقها كتل اللهب المتهاوية تسحق أجساداً وأرواحاً ولحماً ودماً وآمالاً وطموحات دهمها الموت، وهو موت رهيب بآلامه وعذابه، وخصوصاً أن زمان المأساة طال ما بين اصطدام الطائرة الأولى ببرج التجارة الأول، والثانية بالبرج الثاني، وتهاوى التوأمان العملاقان بثقلهما المخيف على ما بين خمسة آلاف إلى ستة آلاف من البشر ــ وهو زمان طال مداه قرابة الساعتين، يعلم الله ما جرى فيهما.. وكيف؟

ولبعض الوقت دار في خلدي أن ما وقع أمام عيني وأمام عيون مئات الملايين من الناس، يحرض على السفر أكثر مما ينهى عنه، فما جرى هو بالنسبة للصحفي حدث مهوّل ــ لكن صوت النهي كان مسموعاً من حولي وأسبابه متنوعة. وعندما دخل الليل، كانت الأنباء تقول أن عاصفة النار والدمار فوق نيويورك وواشنطن فجرت بعدها إعصار غضب وجنون، اجتاح الولايات المتحدة الأمريكية من الشرق إلى الغرب، ووصلت آثاره بعيداً وعميقاً، وأن كل ما هو عربي ومسلم أصبح معرضاً ومكشوفاً، ولم يكن ذلك في حد ذاته ما جعلني أغير رأيي، وإنما غيرت رأيي لإدراكي أنه بعد كل ما جرى فلن أكون حيث أذهب سائلاً، وإنما سوف أكون مسئولاً، ولن أكون زائراً يرغب في السماع، وإنما "صاحب بيت" ــ مفروض عليه أن يتكلم، ولم أكن على استعداداً لأكثر من سبب:

فيها أنني في شأن ما جرى متابع مهتم، وليس طرفاً ضليعاً في الموضوع وخباياه. وفيها أن ما لدي من الأسئلة، كان كثيراً قبل الواقعة، ثم أضيف إليه الأكثر بعد الواقعة.

وفيها أنه ليست عندي إزاء ما رأته الدنيا بأسرها إجابات، وحتى إذا كانت عندي اجتهادات ــ وليس إجابات فليس يعنيني الآن طرحها بقدر ما يعنيني أن أسمع غيري إذا توصل لشيء. مع أن الإشارات الأولى كشفت أن الكل مذهول بالمفاجأة، مأخوذ بصورها، مروع بالمأساة بعد المفاجأة ووراء الصور، ثم إن المزاج العام ساخن وكذلك منفلت!

وهكذا ــ وفي اللحظة الأخيرة ــ قررت إلغاء ترتيبات السفر، بترجيح أن المتابعة الآن أفضل عن طريق سيل من الرسائل لا ينقطع على الإنترنت، وصور لا تتوقف على شاشات التليفزيون، إلى جانب ما تحمله صحافة العالم وكلها واصلة إلى القاهرة في ساعات، ثم إن المتابعة من مسافة ــ كذلك قدرت ــ أدعى إلى فهم أقل توتراً، وبالتالي أكثر تأنياً "إذا كان ذلك ممكناً".

□

ومضى أسبوع وثان وثالث، ثم عاد الصحفي داخلي يذكر بنفسه ويلح، فسيل الرسائل على الإنترنت مفيد، وشرائط الصور على شاشات التليفزيون معبرة، وصحافة العالم الواصلة تعطى تغطية عريضة شاملة. لكن الصحفي يحتاج أكثر، يحتاج أن يرى بعينيه، وأن يسمع بأذنيه، وأن يلمس بأصابعه، وأن يجلس مع ناس يعرفون، في مواقع تسمح لهم بأن يعرفوا، وأن يسأل ويستجوب ويجادل ويسعى بالحق الطبيعي لمهنته كي يوفر لنفسه رؤية واضحة، على الأقل كافية ــ إذا جاء عليه الدور ليقول ما عنده، بعضه أو كله، وبقدر ما تسمح له الظروف!

وهكذا بعد انتظار ثلاثة أسابيع، عدت أحرك واستعجل إجراءات السفر. ومن باب الاحتياط، فقد تصورت أن أبدأ ببعض العواصم الأوربية، وبعدها أفكر إذا كان عبور المحيط إلى أمريكا مفيداً، أو أن مناخ الهستيريا الذي تملك الجميع ــ ولهم العذر فيه ــ ما زال مستحكماً، وإذا كان "ذلك كذلك" "كما يقول الفقهاء تجنباً لتكرار الحيثيات في أية فتوى" ــ إذن فإن السفر يمكن اختصاره، ويكون اقتصاره على أوربا وحدها.

وهكذا كان. والحقيقة أنني لم أندم على الاختصار والاقتصار على أوربا، فما يصلني من الولايات المتحدة كان مزعجاً، ثم إن تجربة شخصية مباشرة ــ ولو أنها واحدة لم تتكرر ــ في لندن زادت من إقناعي، بأنني لم أخسر كثيراً حين بقيت في أوربا ولم أقارب شواطئ المحيط!

ملخص التجربة: إنني دعوت على العشاء ذات ليلة في لندن صديقاً قديماً هو "السير مايكل وير"، الذي كان لسنوات طويلة سفير لبريطانيا في القاهرة، ومعه قرينته "الليدي وير" وقد وصلنا جميعاً إلى مطعم "سانتيني" متأخرين وعبرنا بسرعة إلى مائدة تنتظرنا.

وبدا لي ونحن نمر بالموائد في طريقنا إلى مكاننا أن الجالسين على مائدة قريبة منا ينظرون نحونا ويدققون، ولم يكن صعباً أن أشعر أنهم تعرفوا عليّ من صورة كبيرة وسط حديث طويل أجراه معي الصحفي اللامع "ستيفن موس"، ونشره بعرض صفحتين في "الجارديان" أمس، ثم إن "الايفننج ستاندارد" أعادت نشر الحديث بالكامل، ومعه نفس الصورة وبذات الحجم هذا المساء. وفي ذلك الحديث "مكررا يومين متتاليين" فإنني ــ إلى جانب كثير قلته ــ انتقدت بعض ممارسات السياسة الأمريكية في المنطقة.

ولم ألتفت إلى أن الذين تعرفوا عليّ لهم ــ كما ظهر فيما بعد ــ رأي بشأن ما قلته. وعلى أية حال فقد اتخذنا مقاعدنا حول المائدة المحجوزة لنا، وجاءت قائمة العشاء وطلبنا ثم جرى بنا الحديث مجراه ووصلنا إلى ما وقع في أمريكا وهو وقتها وحتى الآن شاغل الدنيا بأسرها وليس مائدتنا وحدها. وانقضى نصف الساعة تقريباً وكنت منهمكاً في الحوار مع "مايكل"، حتى لفتت قرينته هيلاري "ليدي وير" انتباهي لسيدة أقبلت تقف إلى جواري، ويبدو أنها تريد أن تتحدث معي، وألتَفتُّ وإذا سيدة طويلة القامة حسنة الهندام تقول بعصبية: "مهما كان ما تقول أو تقولون، فالله يبارك أمريكا". وقلت لها بصدق: "إنني أرحب أن يبارك الله أمريكا ويبارك أوطان الناس كلهم".

وردت وهي تدير ظهرها: "لا.. فليبارك الله أمريكا وحدها وليذهب الآخرون جميعاً إلى الجحيم".

ولم أغضب، ولكن "هيلاري" "ليدي وير" غضبت، وهمَّت بالرد تقول للسيدة الأمريكية: "إنها لا تملك حق أن تفقد أعصابها مع الناس".

وجاء صاحب المطعم السنيور "سانتيني" نفسه وهو فنان له مؤلفات عديدة عن المطبخ الإيطالي، ومطبخ فينيسيا بالتحديد، كما أنه رجل تربطه صداقات ودودة مع كثيرين من رواد مطعمه الأنيق، "وكانت ضمنهم الأميرة ديانا وكوكبة لامعة من أصدقائها، والملك حسين وقرينته الملكة نور، والسيدة مارجريت تاتشر وقرينها دنيس". وقد جاء السنيور "سانتيني" محرجاً، يحاول أن يعتذر، وهو يستغرب أن السيدة الأمريكية ــ وهي زوجة مليونير أمريكي يزور لندن مرتين أو ثلاثاً في السنة، ويملك بيتاً كبيراً في ميدان "تشستر" القريب وهو من أرقى المواقع في حي "بلجرافيا" ــ خرجت عن الأصول. وكان رأيي أن ما فعلته الأمريكية "المليونيرة" ليس فيه ما يستوجب حرجه أو اعتذاره، لأنه أمر "وارد" في ظل هذه الأجواء، لكن "ليدي وير" كان لها رأي آخر.

وعلى أية حال، فقد زاد اقتناعي ــ بعدما سمعت في لندن تفاصيل مستفيضة عما جرى لكثيرين من العرب المسلمين في الولايات المتحدة ــ بأنني فعلت صواباً باختصار رحلتي واقتصارها على شرق المحيط، وكذلك ظللت مدة الثلاثة أسابيع التي قدرتها لسفرتي، ملازماً للشاطئ الأوربي للأطلنطي مستغنياً عن عبور المحيط إلى الغرب الأمريكي، وربما أن ذلك كان أكثر توافقاً مع ميلي وحواسي وبظن أن الإمبراطوريات القديمة مهما كان خلافنا معاً، لديها حكمة التجربة وتوازنها بينما "الإمبراطوريات الجديدة" لديها غرور القوة إلى جانب وحشية الإعلام وطغيان الغنى!

****

وطوال ثلاثة أسابيع من البحث في عواصم أوربية متعددة ــ ملاحظاً، ومتابعاً أكثر المرات، متكلماً في أقلها ــ كان في ذاكرتي قول شهير للرئيس الأمريكي الأسبق "دوايت أيزنهاور" ــ جمع خلاصة خبرته قائداً أعلى لجيوش الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، ورئيساً للولايات المتحدة الأمريكية ثماني سنوات ــ وفيه يقول: "إن السياسات الطيبة لا تضمن النجاح أكيداً، ولكن السياسات السيئة تضمن الفشل محققاً".

وذلك هو محور حديثي اليوم ــ لكنني قبل الخوض فيه أقترح الالتفات بسرعة إلى عدد من الإشارات

الإشارة الأولى:

الإمبراطوريات الحائرة والطرق المسدودة!

باريس:

في باريس تفهم عميق لحق الشعب الأمريكي في الغضب وحق الإدارة الأمريكية في العقاب، لكن.. هناك نوعان من الفهم:

نوع يرق بالتعاطف أحياناً ــ ونوع يقسو بالنقد أحياناً أخرى. وفي الحالتين فإن المنطق القانوني الفرنسي يعرض نفسه ــ بالرقة أو بالقسوة متكاملاً: وخلاصته: إن هناك فيما وقع يوم ١١ سبتمبر جريمة شنيعة.. وذلك أمر لا يجادل فيه، ولا يستطيع أحد. لكن كل جريمة تحتاج إلى تحقيق يطرح عدة أسئلة:

١ــ كيف وقعت الجريمة؟

٢ــ وبالتالي من ارتكبها؟

"ومن الواضح أن الإجابة عن السؤال الأول هي الأساس الذي تقوم عليه إجابة السؤال الثاني".

٣ــ يلي ذلك أن الجرائم لا تحاكم بنيران الجيوش، وإنما بنصوص القانون، والاختصاص فيها للبوليس والمحاكم، وليس للطائرات والصواريخ.

٤ــ وعند المحاكمة وقبل الحكم، فإنه يتحتم أن تكون الفرصة متاحة للاطلاع على الأدلــة، والقــرائن، وسـماع الشهود، والتثبت من وقوع المسئولية، بحيث تكون للحكم مشروعيته "لأن الجريمة تستغني عن المشــروعية، لكــن القضاء لا يستطيع"!

....

....

[وحين سمعت أن باريس تتفهم الدواعي التي حدت بالإدارة الأمريكية، إلى أن تتصرف بسرعة وإلــى أن يكــون تصرفها سريعاً وقوياً، حتى وإن لم تكن لديها خطة مدروسة ومتكاملة ــ فقد تذكرت مرة سنة ١٩٨٢، قابلت فيهــا الرئيس "فرانسوا ميتران"، وأيامها كانت الحرب الأهلية في لبنان على أشدها ــ وكان حادث خروج قــوات مشــاة البحرية الأمريكية من بيروت بعد عملية فدائية لحزب الله راح فيها أكثر من ١٧٠ قتيلاً ــ ماثلاً في الأذهان، ومعه حادث مشابه أقل حجماً في خسائره ضد القوات الفرنسية. ويومها سألت الرئيس الفرنسي عن الســبب الــذي دعــا فرنسا في ذلك الوقت إلى تحريك أسطولها في البحر الأبيض، ثم إن إحدى بوارجه وهــي البارجــة "جــان دارك" راحت تقترب من الشاطئ اللبناني، حتى تكاد تلامسه، لكنها تستدير عائدة إلى عرض البحر، ثم تقترب ثانية وتعود ثانية، ويتكرر المشهد مرات ومرات بطريقة بدت غير منطقية.

وسألت الرئيس ميتران أثناء لقائنا، وأنا ساعتها ضيفه على الإفطار:

"عما كانت تفعله البارجة "جان دارك" قاصدة عائدة أمام شواطئ لبنان، وما كان القصد منه والحكمة"؟

ورد الرئيس الفرنسي قائلاً: "إن ذلك كان طبيعياً" بل و"ضرورياً".

ولم أقتنع، وواصلت سؤالي عن وجه الطبيعة والضرورة فيما فعلته "جان دارك" "البارجة!" وتردد الرئيس ميتران "وأكاد أقول تلعثم!"، وإحساسي بينما كنت أتأمله أن المثقف فيه يغالب رئيس الدولة وكذلك قال:

"لك أن تعتبرها نوعاً من الحركة العصبية. التشــويح بــأطراف الجســم "اســتعمل الــرئيس ميتــران تعبيــر "Gesticulation Politique" ".

ثم أضاف:

"إنه يحدث للدول ما يحدث للأفراد حين يواجهون مواقف تقتضي منهم أن يتحركوا، ــ ثم يكتشفون أن الخيارات المطروحة أمامهم لم تنضج بعد، وللحظة فإنهم بدلاً من الكلام "يشوحون"، أي تتحرك أعضاء جسمهم تعبيراً عمــا يريدون فعله. وهم لحظتها لا يقدرون".

ويستطرد الرئيس ميتران: "لك أن تعتبر أن "جان دارك" وقتها كانت في ذلك الموقف، تعبيرا عن قــوة فرنســية تفرض عليها الدواعي أن تفعل شيئاً، لكن الحقائق على الأرض تمنعها منه: "لنقل أننا لحظتها كنا "نشوح" بالصوت والحركة".

وقلت: إنني الآن فهمت]

....

....

وبعد قرابة عشرين سنة "أكتوبر ٢٠٠١"، كانت القوة الأمريكية في وضع مشابه، فالدواعي الملحة تفرض عليها أن تتصرف، وترد بكل الوسائل كي تخفف من ثورة الشعب الأمريكي، وتهيئ له أنه "أخذ بثأره وانتقم".

لكنه في تلك اللحظة كانت الحقيقة غائبة، والمشهد فوضى، والخطط لمواجهة هذا الذي حدث في نيويورك وواشنطن غير جاهزة أو غير كاملة "رغم أن هذا النوع من الخطر في عصر الحروب غير المتوازية، وهي حروب القرن الحادي والعشرين كانت واردة بالتقدير المسبق على الفكر"، لأنه كان صعباً على العقل استيعاب هذا النوع من الخطر حين وقع بالفعل. وكذلك لم تكن الخطط جاهزة أو لم تكن كافية!

وفي الحالة الأمريكية، فإن رئيس الولايات المتحدة لم يكن يقدر على التصرف كما تصرف الرئيس الفرنسي في موقف مشابه. مع وجود أوجه توافق بين الحالتين وأوجه خلاف:

- أوجه التوافق: إن هناك حدثاً يطلب رداً، لكنه في غموض الوقائع وفوضى الشواهد وغياب الخطط، فإن هدف التصرف لم يكن واضحاً، وهكذا بدأ التشويح والتعبير بلغة حركة اليدين والقدمين، وأعضاء البدن "بما فيها ملامح الوجوه ونظرات العيون وطلوع الحواجب ونزولها!".
- وأما أوجه الخلاف فهي أن "عقل" القوة الفرنسية فرض عليها أن تتوقف بعدما أسماه ميتران بـ: التشويح السياسي *Gesticulation Politique* ــ لكنه في حالة أمريكا فإن جموح القوة الأمريكية دفع بالرئيس الأمريكي إلى ما هو أبعد، مع تزايد الضغوط عليه.

وكذلك اختار رأس القائمة الجاهزة للمشتبه فيهم "وهو تنظيم القاعدة"، وقرر أن يضرب، عارفاً أنه لا يملك فرصة ــ أو ترف ــ الانتظار.

....

....

[والحاصل أنني عرفت أن جورج بوش الأب كان أكثر من ألحوا على "جورج بوش" أن يتصرف بسرعة، وسمعت أنه قال له بعد عشاء عطلة نهاية الأسبوع في كامب دافيد ما مؤداه أنه: "ليس أمامه غير أن يضرب بسرعة لأن "العجز" هو الخطيئة التي لا تغتفر لأية سياسي، وتلك خلاصة تجربة عمره في العمل السياسي. وأن الناس يغفرون للرئيس إذا بان خطؤه، لكنهم لن يغفروا إذا تبدى عجزه"!]

....

....

الإشارة الثانية:

١١٠٠ تسجيل تليفوني لبن لادن!

لندن:

وفي باريس وفي روما وفي لندن "وفي غيرها من العواصم الأوروبية"، إحساس بأن الولايات المتحدة استعملت قواتها العسكرية بسرعة ضد إسامة بن لادن ــ الموجود وسط حركة الحاكمة "ساعتها" في معظم أفغانستان ــ دون أن يكون لديها اليقين الكامل بأنه يتحمل مسئولية ١١ سبتمبر ــ أو على الأقل يتحملها وحده.

والشاهد أن أبرز ساسة أوربا سألوا نظراءهم الأمريكيين عما لديهم من أدلة على مسئولية "بن لادن"، ولم يحصل أيهم على رد يغنيه أو يكفيه. على أن ثقتهم بالولايات المتحدة أغنت وكفت.

وفي لندن وباريس وروما ــ وربما في غيرها من عواصم أوربا ــ وكما يحدث في بلدان متقدمة، يدعى إلى "اجتماعات تشاور" تطلب الرأي من خارج الإدارة القائمة في أية أزمة تطرأ، وفي العادة فإن هذه الاجتماعات يحضرها خبراء فيهم أساتذة جامعات ووزراء وسفراء سابقون يعرفون أطراف الصراع أو مناطق الحوادث التي تطرح نفسها مفاجأة على الاهتمام العام، ولكي يكون التشاور نافعاً وليس صورياً، فإنه توضع أمام هذه الاجتماعات صراحة كل ما لدى حكوماتها من معلومات، لكي تنضم الخبرة السابقة إلى التجربة اللاحقة.

وحدث في عدد من هذه الاجتماعات ــ وليس من الضروري أن أحدد تفصيلاً كي لا أحرج أحدا ــ أن المشاركين في أكثر من عاصمة وجهوا إلى رؤسائهم الحاليين سؤالين:

○

○ السؤال الأول: هل هناك دليل يمكن البناء عليه في الإقناع السياسي بمسئولية بن لادن ــ ومن ثم طالبان ــ ومن ثم أفغانستان "ومن ثم الإسلام" بمسئولية ما جرى يوم ١١ سبتمبر؟

○ والسؤال الثاني: ما هي اتجاهات العمل العسكري الأمريكي الحالي، وما هو الهدف الإستراتيجي منه؟

وبالنسبة للسؤال الأول: كان الرد على المستوى الوزاري أنه:

"ليس لدينا دليل قاطع على مسئولية بن لادن ــ طالبان ــ أفغانستان ــ فيما حدث يوم ١١ سبتمبر ــ "ثم يتواصل الرد" ــ على أنه لا بد أن يكون لدى الأمريكان شيء يستندون عليه، لكنهم لم يقولوه لنا. ومما قالوه أن لديهم معلومات بأن بن لادن أو وكلاء مفوضين عنه أصدروا من بنك في الإمارات العربية المتحدة عدة حوالات قيمتها نصف مليون دولار، فيها مائة ألف دولار لــ: محمد عطا، وهو المتهم بقيادة عملية ١١ سبتمبر، وفيها مائة ألف دولار أخرى باسم زميله: مروان الشيحي.

ثم إن المخابرات الأمريكية حصلت على صور من هذه الحوالات بتصريح من محافظ البنك المركزي للإمارات العربية المتحدة بعد طلب تقدمت به "مارسيل وهبة" سفيرة أمريكا في الإمارات العربية المتحدة.

ورأيهم كما قالوه لنا صراحةً: "إن هذه الحوالات تقطع بالصلة بين بن لادن وبين المسئولين عن عملية ١١ سبتمبر، ظنهم أيضا ــ كما عبروا عنه ضمنا ــ: ((أنهم لا يستبعدون أن بن لادن، بما كان صادقا عندما قال إنه لم يخطوا ولم يوجه عملية ١١ سبتمبر، فهو يعطي الأموال "يميناً ويساراً وفي الوسط" ــ لكن الهدف العام لما يعطيه معروف بصرف النظر عن تفاصيل كل عملية"!

"وفوق ذلك فقد أكدوا لنا "في واشنطن" أنهم أجروا تسجيلات لاتصالات تليفونية قام بها بن لادن طول السنوات الخمس الماضية من جهاز تليفون جوال متصل بالأقمار الصناعية. وأن لديهم أكثر من ألف ومائة تسجيل لمحادثات تليفونية، وقد أرسلوا إلينا عينات منها، لعلها ترشد أو تدل على شيء!".

كذلك قيل في "اجتماعات التشاور" في أكثر من عاصمة أوربية في الإجابة عن السؤال الأول.

....

....

[وسألني أحد وزراء الدولة الأوربيين "ومرة أخرى لا أريد أن أحدد لأني لا أريد أن أحرج": لماذا قلت "قبل ثلاثة أسابيع" "إن بن لادن لا يستطيع ولا يقدر على عملية مثل عملية ١١ سبتمبر"؟ وكررت على سائلي ما نشرته عن ظني بأن بن لادن وحده لا يستطيع، وأن عمليات ١١ سبتمبر، سواء بمقتضياتها المعقدة في التخطيط والإدارة والتنفيذ تتعدى قدراته، ثم إن ظروفه بما فيها المراقبة المستمرة عليه واختراق تنظيمه بالعمق ــ إلى جانب بعد أمريكا عن مواقعه تخطيطاً وإدارة وتنفيذاً ــ تجعل المسألة برمتها خارج طاقته.

وسألني وزير الدولة الأوروبي المعنى: إذا لم يكن بن لادن فمن؟ وقلت: "إن ذلك يتجاوز اختصاصي، لكني سمعت حوله ظناً عرضته كاملاً".

"وأضفت أن ما طرحته من شكوك حول ضلوع عناصر من البلقان ليس رأيي، لكني نقلته عن أصدقاء في بروكسل وفي مقر حلف الأطلنطي، ثم إنني لم أطرحه كحقيقة نهائية، وإنما طرحته كاحتمال تسانده شواهد عرضتها، ثم إنني فيما نشرت قبلت بضلوع عناصر عربية بدور أو أدوار فيما حدث، لكني أشرت إلى غياب دليل، وإلى غياب تحقيق يعطي للناس ولو شبه دليل يطمئنهم إزاء الطريقة التي تتصرف بها القوة الأمريكية!

وسألني محدثي عن: الصلة وكيف يمكن أن تكون بين عناصر من العرب وعناصر من الصرب أو ــ البلقان عموماً، والطرفان بعيدان لا رابط بينهما؟

وذكرته بأنه كان بين "المجاهدين" ــ أو من أسموا كذلك ــ في "البوسنة" أكثر من ألفين من الشباب العرب: ربعهم من مصر وربعهم من السعودية والباقون من بلدان عربية أخرى، وبعضهم لم "يجاهد" في البوسنة فقط، ولكنه وصل "بالجهاد" إلى ألبانيا أيضاً، وبعدهما حتى "الشيشان".

وقلت: "إنه كانت هناك كتائب من قوات مسلحة عربية تعمل ضمن القوات الدولية التي شاركت فيما سمي بعملية "حفظ السلام في يوجوسلافيا السابقة". وأنني أعرف عن جنود من العرب تزوجوا من بلقانيات ــ وصربيات أيضاً".

وأضفت: "أنه فيما يتصل بحادث على مستوى ١١ سبتمبر، فإن أحداً منا لا يستطيع أن يستبعد شيئاً من حسابه دون ترو، أو يدخل شيئاً في حسابه دون أساس"!]

....

....

وفيما يتعلق بالسؤال الثاني الذي طرحته "اجتماعات التشاور" الأوربية، وهو السؤال عن اتجاهات العمل العسكري الأمريكي، وعن الهدف الاستراتيجي منه، فقد كان الجواب الذي أتاهم يعرض السياق التالي:

"إن الإدارة الأمريكية كانت واقعة تحت " ضغط رهيب"، يدفعها إلى الحركة بسرعة، وإلى الحركة نحو نوع من "العقاب" يصل إلى أقصى درجات القسوة، بحيث تكون مشاهد الدم والحريق ظاهرة أمام الشعب الأمريكي "تطفئ ناره" و"تشفى غليله"، وإلا واجهت الإدارة الأمريكية أزمة يصعب تقدير عواقبها ـ لكن الإدارة وهذه نقطة لصالحها "كذلك قيل لـ "مجموعات التشاور" في أكثر من عاصمة أوربية" ـ انتظرت وفكرت ووازنت بين خيارات وبدائل:

ـ فكروا في خطة لخطف بن لادن من منطقة جبلية في "قندهار" رصدوا وجوده فيها، لكنهم تذكروا ما حدث "٢٤ أبريل ١٩٨٠"، في محاولة إنقاذ الرهائن الأمريكيين الذين احتجزهم الشباب الثوري الإيراني في مبنى السفارة الأمريكية في طهران.

....

....

[وأيامها سنة ١٩٨٠ وضعت قيادة القوات الخاصة الأمريكية خطة لإنقاذ الرهائن من قبل طهران، وكان المطار العسكري في المنيا "صعيد مصر"، إلى جانب القاعدة الأمريكية في "مصيرة" "سلطنة عمان" قيادة تنفيذ تلك الخطة التي عرفت باسم "الصحراء رقم ١". وكان الرئيس "أنور السادات" قد صرح "لصديقه" الرئيس "جيمي كارتر" باستعمال الأراضي المصرية وتسهيلاتها العسكرية في تنفيذ هذه الخطة، وبالفعل كان المكلف بالتنفيذ وقتها هو الجنرال "بكويث" قائد القوات الخاصة، وقد تولى من مطار المنيا توجيه العملية. ومن نفس القاعدة بعث الجنرال "ريتشارد بكويث" إلى الرئيس كارتر يخطره بأن العملية فشلت، بسبب تعطل وتصادم اثنتين من طائرات الهليوكوبتر، ورد عليه الرئيس كارتر بأن "يجهض" الخطة ويعود بقواته، وكذلك فعل الجنرال "ريتشارد بكويث" مع علمه بأن قواته على الموقع قرب مدينة "يزد" الإيرانية ـ على طريق طهران ـ تركت وراءها جثث ثمانية جنود قتلوا عندما اصطدمت طائرات الهليوكوبتر ببعضها].

....

....

وقيل أمام "مجموعات التشاور" الأوربية ضمن ما قيل: إن الذكرى المريرة لتلك التجربة دعت الإدارة الأمريكية في الظروف المستجدة إلى استبعاد مغامرة خطف بن لادن، لأن احتمال الفشل فيها "بعد الفشل في توقع ضربة ١١ سبتمبر" مما لا يقدر الرئيس "بوش" على تحمله الآن، وهو لا يستطيع أن يفعل مثلما فعل الرئيس "كارتر" مع الجنرال "بكويث" سنة ١٩٨٠، ويأمر بإجهاض الخطة لأن مقتضى ذلك يفرض عليه في نفس اللحظة، تخليه عن منصبه، وإلا بدأت إجراءات عزله، لأن الفشل سوف يفتح الباب لتحقيقات مكبوتة بصعوبة ولكنها مؤجلة، وكلها تريد أن تعرف كيف جرى ما جرى؟

وأين كانت المخابرات الأمريكية وماذا فعلت بميزانيتها وهي تزيد على ثلاثين بليون دولار؟ ثم أين كان الدفاع الجوي عن عاصمة القوة الأعظم الوحيدة في العالم؟!

وفي ذلك الصدد قيل أيضاً "لمجموعات التشاور": إن الولايات المتحدة اعتذرت لرئيس وزراء إسرائيل عندما عرض استعداد القوات الإسرائيلية الخاصة "لخطف بن لادن" نيابة عن الإدارة الأمريكية "والمعنى المقصود من

العرض أن تدخل إسرائيل عضواً معترفاً به شرعياً وعلنياً في الحلف الدولي الذي تقيمه أمريكا للحرب ضد الإرهاب". وقد أبدى رئيس وزراء إسرائيل أن "الموساد" لديه خبرة في هذا النوع من العمليات أشهرها خطف ومحاكمة وإعدام "الجنرال" "إيخمان" "المسئول الأول عن "الهولوكوست" ــ الجحيم ــ الذي تعرض لــ "اليهود" تحت حكم النازي أيام هتلر"، وقد اعتذرت الإدارة الأمريكية عن هذا العرض رغم ثقة إسرائيل في فرص نجاحه، لأن لديها بالفعل وعلى الأرض وفي عمق "قندهار" "عناصر" جاهزة. وكان رأى الإدارة الأمريكية أن ظهور إسرائيل على المسرح في هذا الدور وفي هذا التوقيت، وحتى إذا نجحت في المهمة ــ سوف يسبب إحراجاً سياسياً واستراتيجياً في العالمين العربي والإسلامي.

....

....

[وكان اعتذار الولايات المتحدة عن هذا "الخيار الإسرائيلي" أهم الأسباب التي دعت "آرييل شارون" رئيس وزراء إسرائيل إلى إلغاء زيارته المقررة للولايات المتحدة واجتماعه المحدد مع الرئيس جورج بوش ــ في شهر أكتوبر ــ ذلك أن "شارون" اعتبر الاعتذار الأمريكي "عن توكيل إسرائيل بمهمة خطف بن لادن"، دليلاً على عدم رغبة الولايات المتحدة في الاعتراف بوجود إسرائيل كطرف أصيل في التحالف الدولي الذي يتجمع لمقاومة الإرهاب. وكان رأى شارون أن الحقائق عفت على زمن كانت واشنطن فيه تخفي شواهد علاقتها الخاصة بتل أبيب عن عيون العواصم العربية، لكن حكومته الآن مصممة على أداء دورها في العلن، وإذا لم تكن واشنطن تريد إشهار وتوثيق هذه العلاقة فذلك حقها، لكن إسرائيل لن تضع نفسها في موضع تراه أقل مما تستحق بصرف النظر عن قوة العلاقة بين البلدين.

ثم إن شارون يضايقه أن يكون سبب الاعتذار الأمريكي هو "مجرد مساعدة عدد من القادة العرب يريدون "ستر" علاقتهم بالولايات المتحدة، وتسايرهم واشنطن في ذلك بمقولة عدم إحراجهم أمام شعوبهم.]

....

....

وطبقاً لما عرض "اجتماعات التشاور" الأوربية فقد كان الخيار والبديل الآخر الذي فكرت فيه واشنطن، هو "تكليف تحالف الشمال الأفغاني بالمهمة"

لأن ذلك التحالف المعارض لطالبان ــ والذي كان يخوض الحرب ضدها فعلاً من مواقعه التي تراجع إليها في شمال البلاد تحت قيادة أحمد شاه مسعود ــ جاهز على الأرض لديه حوافزه القوة للقتال إذا تلقى ما هو متأخر من طلبات سبق وتقدم بها للإدارة الأمريكية، لكن ذلك الخيار البديل استبعد "وقتها"، لأن هذا التحالف "مهزوم في أعماقه" و"ممزق" ــ ولون كان قادراً على النصر لانتصر لحساب نفسه مع كل المساعدات التي تلقاها من قبل. ثم إن شعور "المهزوم المزق" لدى هذا التحالف زاد وتكرس، عندما وقع اغتيال قائده العسكري اللامع أحمد شاه مسعود، "وكان اغتياله يوم ٨ سبتمبر الأخير ــ أي قبل ١١ سبتمبر بيومين أو ثلاثة ــ مما دعا كثيرين إلى الربط بين اغتيال أسد بنشير "مسعود" وبين العمليات ضد نيويورك وواشنطن".

ثم إن زعماء التحالف الشمالي حينما أحسوا أن هناك اتجاهاً للاعتماد عليهم، بدءوا يزايدون في طلباتهم، ويسابقون بعضهم في الانفراد بما يمكن أن تعطيه الولايات المتحدة الأمريكية لمن تعهد إليه بالعملية.

**

وكان هناك خيار وبديل رابع ورد ذكره في "اجتماعات التشاور" الأوربية مؤداه: "إنه يمكن الاتفاق مع بعض، أو أحد زعماء القبائل الأفغانية، وضمنها قبائل علمتها الحروب أن تبيع ولاءاتها ـ لكي تتولى هي خطف بن لادن، وكانت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية تروج لهذا الحل بعدما قالت إنها استكشفت السبل والوسائل لتحقيقه. ولكن الوكالة تقدمت تطلب اعتمادات خرافية، واستأذنت في أجل للتنفيذ غير محدود بتاريخ معين، ولم يجد الرئيس الأمريكي نفسه قادراً على الصبر، فهو يستطيع توفير الاعتمادات العاجلة، لكنه لا يملك الوقت المفتوح وخصوصاً أن الوكالة سبق لها أن خدعته في "زعماء أفغان"، طلبوا الغالي وحصلوا عليه، لكنهم عند التنفيذ تملصوا، وادعوا صعوبة المهمة، وتقدموا بمطالب مالية إضافية، لعل "فرج الله يجيء".

والشاهد ـ كذلك قيل ـ إن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية تورطت "حتى الركب" في أفغانستان وشطحت وشردت إلى درجة أن "فريق عمل" من رجالها قضى ستة شهور في وضع تقرير عن "الشذوذ الجنسي" لدى الزعماء الأفغان، وأهمية استخدامه في تطويعهم! وكنموذج "ميداني" أشارت الوكالة إلى معركة عنيفة ـ طالت شهوراً ـ بين زعيمين حول "غرام" كليهما بصبي "اكتشفه" أولهما، ثم "خطفه" الثاني، وانشغل مكتب وكالة المخابرات الأمريكية في "بيشاور" بهذه المعركة أسابيع حتى استطاع تهدئة الخواطر والسيطرة على العواطف.

وعلى أية حال، فإن الرئيس الأمريكي الذي يعتزم الاستغناء عن خدمات رئيس الوكالة الحالي "جورج تينيت" في أول فرصة تسنح له ـ أرد فيما يظهر إبطال أية حجة للوكالة، فصرح لها باعتماد قدرة مليا دولار تصرفها "تحت رقابة نائبه ديك تشيني"، على أن تأتيه في النهاية بإسامة بن لادن حياً أو ميتاً.

وكذلك فإن هذا الخيار الرابع وضع تحت الطلب دون عجلة.

وكان هناك فيما قيل لعلم "اجتماعات التشاور" الأوربية خيار خامس جرى استبعاده بعد ساعات ومؤداه: "أنه ليس عسيراً تكليف وحدة خاصة من المخابرات الباكستانية لتنفيذ عملية خطف أو قتل بن لادن دون خوف أن يؤدى ذلك إلى حرج للجنرال "برفيز مشرف" رئيس باكستان، ذلك أنه مع معلومات متوافرة تقول إن شعب أفغانستان ـ وحتى جماهير طالبان ـ ضاق صدرهم بالمخاطر والمهالك التي سببها وجود بن لادن على أرضهم ـ لن يمانعوا إذا خلصهم أحد من "هذه المصيبة". ثم إنه إذا اقتصرت العملية على "بن لادن وحده"، وإذا لم تقترب من زعماء طالبان، فإن العملية قد تبدو خدمة باكستانية للأمة الأفغانية، وعندئذ يمكن قبولها في باكستان، خصوصاً إذا توافقت مع حزمة مساعدات اقتصادية لإسلام آباد، يرافقها ضمان بسلامة المنشآت النووية الباكستانية من ضربة مفاجئة ضدها "من الهند أو من إسرائيل مع اختلاف النوايا والمقاصد بين البلدين"، لكن عرض الفكرة توافق مع قلاقل داخل القيادة العليا الباكستانية أضطر فيها "برفيز مشرف" إلى إعفاء صديقه ونائبه الجنرال "محمد عزيز خان"، وهو

الرجل الذي دبر وقاد الانقلاب العسكري الذي جاء به إلى الحكم ، بينما هو ما زال في طائرة معلقة به في الأجواء لا تعرف لنفسها مطاراً تهبط فيه.

وكذلك لم يبق بديل غير العمل العسكري الأمريكي.. ومباشرة!

....

....

**

وكان ختام مناقشات "اجتماعات التشاور" الأوربية، إعلان رئيس الوزراء توني بلير أمام مجلس العموم البريطاني بـ: "إن الولايات المتحدة الأمريكية لها حق العمل العسكري ضد بن لادن، وحتى إذا لم تقدم أدلة كافية لإدانته "أمام محكمة"، فإن عقابه إجراء عادل في أي وقت قصاصاً من أعمال سابقة، دبر لها من قبل مثل تفجير "قاعدة الخبر" في السعودية، وتفجير المدمرة الأمريكية كول في ميناء عدن اليمنى! ـ وغيرها.

....

....

[وكان سماعي بذلك في جلسة مجلس العموم، داعياً إلى ما قلته بعد ذلك في حديث مع الجارديان "نقلته عنها الايفننج ستاندارد"، استشهدت فيه بالمثل الصيني الذي يقول "اضرب زوجتك كل يوم علقة، وإذا كنت لا تعرف لذلك سبباً، فهي تعرف" ـ مضيفاً أن تلك فيما يظهر استراتيجية الحروب الجديدة في القرن الحادي والعشرين!].

....

....

وفي باريس كان ملخص ما توصلت إليه مجموعة من مستشاري الرئيس شيراك في "قصر الإليزيه"، أن على فرنسا مهما كان اختلاف تصوراتها ـ السياسية والعسكرية ـ أن تقف مع الولايات المتحدة، وأن تشعرها بالمودة والتكافل، لأن ما حدث "ولو أنه لا يمثل تهديداً حيوياً للولايات المتحدة، إلا أنه يواجهها لأول مرة بشعور لا تحب المجتمعات أن تعيش معه وهو الشعور بـ "عدم الاطمئنان". والرأي أن المجتمعات يمكنها أن تواجه تفاقم الأزمات قادرة، وأن تخوض غمار الحروب واثقة، تساندها عوامل قوتها الحقيقية، لكن الخطر ـ وإن لم يرق إلى مستوى التهديد ـ أن تشعر المجتمعات بـ "عدم الطمأنينة"، وذلك الشعور هو "نصف عصبية الولايات المتحدة الآن".

وكان تقدير الخبراء الفرنسيين أن موقف التفهم المتعاطف يتيح لفرنسا في اللحظة المناسبة أن تضع بعض "الفرامل" على الاندفاع الأمريكي إلى المجهول.

....

....

[وكان ذلك هو الدور الذي يقال في مقر رئاسة الوزارة البريطانية ـ ١٠ داوننج ستريت ـ أن توني بلير يحتفظ به لنفسه. وتقدير معاونيه أن هذا الموقف يبنى لرئيس الوزراء شعبية واسعة تتكفل بها "الأضواء الساطعة للإعلام الأمريكي". وهذه الشعبية تستطيع أن تساعده على الدخول بالاسترليني إلى محيط العملة الأوربية الموحدة، وهي خطوة ملحة أوائل ٢٠٠٢، عندما يصبح اليورو وحده عملة أوربا الرسمية كلها. كما أن هذه الشعبية أيضا ـ في

تقدير معاوني توني بلير ــ يمكن أن تكون رصيداً مدخراً لحزب العمال في أية انتخابات قادمة. وكل ذلك مطلوب حتى وإن كان طلب "بلير" المباشر ــ الآن ــ هو دور "الفرملة" على الاندفاع الأمريكي.

لكن الخبراء الفرنسيين ظل رأيهم أن "توني بلير" لن يستطيع أداء دور الفرملة على الاندفاع الأمريكي، لأنه التصق أكثر من اللازم بالسياسة الأمريكية، بحيث أصبح امتدادا لها يدور في فلكها ولا ينفصل عنها، فقد تصور أن اقترابه أكثر من اللازم ينفع دوره، ونسى أن الحركة في مدار القوة الأمريكية سوف تستوعبه مهما حاول، وبالتالي يصعب عليه أن ينفصل ليكون له موقف مستقل، وإذا فعل فإن محاولة الانفصال بعد زيادة الاتصال إلى حد الالتصاق، لا تتم إلا بدرجة من الخلاف يستحيل عليه قبولها.

وإذن فذلك الدور "الفرامل" محجوز لفرنسا في اللحظة المناسبة.

....

....

الإشارة الثالثة:

مناقشات عن الحرب في أفغانستان وحولها

لندن:

كان هناك سؤال طرحته على كثيرين، وفي لندن أكثر من غيرها بسبب قربها الزائد من القرار الأمريكي وموجباته. مؤدى السؤال أنه: إذا كان "التشويح السياسي" قد تحول في الحالة الأمريكية إلى عمل عسكري بالسلاح، فما هو شكل هذا العمل العسكري؟ وما توصيفه؟ وما هدفه؟

وقد ضغطت على هذا السؤال أثناء غداء في بيت الصحفي البريطاني الأشهر "أنتوني سامبسون" وهو مؤلف عدد كبير من المراجع السياسية المهمة منها "الأخوات السبعة": عن شركات البترول العالمية الكبرى ــ و"سوق السلاح": عن تجارة السلاح في العالم ــ و"لمسة آلهة الذهب": عن كيف تكونت أكبر الثروات في العالم ــ وأخيراً سيرة حياة "مانديلا" لأن أنتوني سامبسون هو مؤرخه المختار لكتابة قصة حياته".

وكان ضيوف الغداء جميعاً صفوة من العارفين بمكامن السياسة وميادين الحرب. ولم تتوقف المناقشات من الساعة الثانية عشرة ظهراً حتى الثالثة بعد الظهر، وخلاصة المناقشات كما تداعت:

١ــ إن هدف التحركات العسكرية الأمريكية الأولى ــ قبل بدء العمليات ــ هو التواجد في قواعد الخليج والسعودية وغيرها بشكل "فاعل على الأرض" يرفع درجة الاستعداد فيها "دون إذن من أحد""، لأن ما حدث في نيويورك وواشنطن يعطي في حد ذاته شرعية تغني واشنطن عن "طلب إذن" من أي طرف.

وذلك حال يختلف عما كان في حرب الخليج الثانية سنة ١٩٩٠ ــ ١٩٩١، ففي حال حرب الخليج كان نزول القوات الأمريكية والبريطانية "وغيرها" في السعودية والخليج، يحتاج إذناً من الدول المعنية ويحتاج غطاءً شرعياً عربياً عاماً يسند الأطراف المعنية، لكن الظروف تختلف هذه المرة، فليس هناك من يستطيع أن يعترض، وليس

هناك من له حق "أن يأذن أو لا يأذن". وفي الواقع العملي، فإن الإذن السابق ما زال سارياً وبمقتضاه فإن التواجد العسكري الأمريكي في قواعد شبه الجزيرة العربية ما زال فاعلاً، وكل ما استجد هو أن الحاجة تدعو الآن إلى رفع درجة الاستعداد في هذه القواعد بما يناسب "حالة حرب فعلية".

إلى جانب مطلب رفع درجة الاستعداد في القواعد الأمريكية في السعودية والخليج ــ فقد كانت هناك حاجة إلى انتشار أوسع في شبه الجزيرة العربية، وبحيث يكون في مقدور هذا الانتشار أن يطال أي هدف يراد الوصول إليه، ومرة أخرى فإن هذا الانتشار لم يكن يحتاج إلى استئذان، فالسوابق قائمة، والغضب الأمريكي لما جرى في نيويورك وواشنطن يصيب الكل بالفزع، بحيث لا يجرؤ طرف على مجرد السؤال، حتى إذا خطر السؤال على باله.

**

وكان التقدير في تلك الساعات، أن الانتشار ورفع درجة الاستعداد إلى مستوى حالة الحرب، يعطى السلاح الأمريكي إمكانية التدخل وفق ما يرى صانع القرار الأمريكي، سواء لدواعي العمليات على المسرح الأفغاني أو أي مسرح غيره!

وأثناء ذلك الوقت فإن تلك الأوضاع في حد ذاتها تحدث أثرا نفسيا يمكن أن تجيء نتائجه أكبر من أي تقدير.

2 ــ إذا لم تحقق مشاهد الانتشار العسكري هدفها النفسي، وضمنه احتمال أن تقوم طالبان بتسليم بن لادن توقياً لضربة عسكرية أمريكية، أو احتمال قيام بعض الحكومات العربية التي تحتفظ بعلاقة خاصة مع طالبان بمسعى مباشر قبل أن يفوت الأوان فلا تزال هناك احتمالات لا داعي لاستبعادها.

وبالفعل فقد جرى تداول اقتراح مؤداه أن يقوم وفد من "علماء المسلمين" بالتوجه إلى "قندهار" وإقناع قيادة طالبان ــ الملا عمر نفسه وإقناع إسامة بن لادن شخصياً ــ بأن الوقت قد حان لفداء الأمة الأفغانية والإسلامية من شر مستطير بتضحية، رجل واحد "كما همّ سيدنا إبراهيم أن يفعل بابنه إسماعيل لولا أن فداه الله بذبح عظيم"، وكان لدى بعض هؤلاء العلماء بالفعل شعور بأن المعجزة قد تتكرر، لأن بن لادن من أول لحظة يدفع ببراءته مما حدث في نيويورك وواشنطن، وإذا كان صادقاً فإن الصدق قادر على أن يثبت نفسه أمام محكمة إسلامية ودولية في الوقت نفسه، وكذلك تتحقق معجزة الفداء!.

3 ــ وإذا لم يتحقق شيء من ذلك كله، فإن الفعل العسكري يستطيع أن يبدأ بضربات من الطيران كاسحة بصواريخ كروز وغيرها من ناقلات الدمار.

وذلك أيضاً يمكن أن يحقق الهدف نفسياً، إذا اقتنع الملا عمر وقيادة طالبان، أن الخطر جد لا هزل فيه، وأن أبواب جهنم التي انفتحت في أجواء أفغانستان ضرر عظيم، يفرض الشرع توقيه ودرأه بكل سبيل، خصوصاً إذا كان من يتعرض له لا يملك وسيلة لدفعه عن نفسه أو الرد عليه بمثله، وحينئذ يمكن تسليم بن لادن بمنطق "سد الذرائع" ــ سواء للولايات المتحدة الأمريكية أو لدولة إسلامية صديقة "ترى في الأمر رأيها".

إضافة إلى ذلك، فإن نار الجحيم الموجهة إلى الشعب الأفغاني، يمكن أن تدفعه للتمرد على حكومة "طالبان"، خصوصاً إذا وصل الضرب إلى الطرق والجسور القليلة ومحطات الماء والكهرباء المتهالكة، ومستودعات الغذاء والمؤن الشحيحة، وأيضاً إلى المزارع المملوكة لزعماء القبائل في المناطق التي لا تزال بها شواهد خضرة من شجر وثمر في الشمال والجنوب وحول العاصمة كابول.

4 ــ إن بدء الضرب الجوي واشتداده نافع للرأي العام الأمريكي على عدة مستويات لأنه:

ــ يريحه نفسياً ويشفي غليله.

ــ ويقنعه بأنه أخذ حقه بيده وتصرف.

ــ ويشغله عن حساب المسئولية فيما جرى فوق نيويورك وواشنطن على الأقل بالتأجيل إلى ما بعد الحرب "لأن الوطن في الميدان الآن وعلم النجوم يرفرف".

وذلك بالفعل تحقق ولو للأجل القصير لأن صيحة "الوطنية" دوت زئيراً بدائياً تردد في الولايات المتحدة من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب حتى لم يعد في مقدور أحد أن يرفع صوته مطالباً "بالمراجعة" ــ كضرورة للتثبت قبل الضرب وكذلك لضمان استمرار التعبئة على المدى الطويل.

وكان أن الإعلام الأمريكي سمح وقبل أثقل قيود رقابية وضعت عليه إلى درجة أن السيدة "كونداليزا رايس" مستشار الرئيس للأمن القومي تمكنت من إقناع كل رؤساء تحرير الصحف وقنوات التليفزيون الأمريكية في الإرسال الداخلي والخارجي على السواء. وبالامتناع عن نشر بيانات بن لادن وطالبان، لأنها تحوي إشارات سرية موجهة إلى عملاء كامنين في الولايات المتحدة، تأمرهم بالرموز أن ينفذوا عمليات معينة في أوقات معينة عند سماعهم لألفاظ معينة!

بل إن الرقابة عبرت المحيط إلى بريطانيا، فإذا بمكتب "الستير كامبل" مستشار رئيس الوزراء "توني بلير"، يستدعي كبار محرري الصحف والإذاعة والتليفزيون، ويطلب إليهم أن "لا يكونوا أدوات في يد بن لادن، يستعملهم لخططه وهم لا يعرفون"، لأن ما ينقلونه ويذيعونه بحماسة هو في الواقع أوامر منه لأنصاره بالرموز، ومن المزعج أنه حين ارتفعت بعض الأصوات، في "الجارديان" و"الإندبندنت" مثلاً، تطرح الأسئلة الضرورية، فإن جريدة مثل "التيمس" شنت عليهم هجوماً ضارياً تحت عنوان "أنبياء الشؤم"!

5 ــ بعد هذه الأهداف العسكرية والنفسية، فقد كان أول تقدير لما يستطيع الضرب الكثيف أن يصنعه على أرض العمليات يقدر أن استهداف المواقع الموجودة وفيها مخابئ وملاجئ بن لادن وزعماء طالبان سوف يرغمهم جميعاً على الخروج من المخابئ والملاجئ في طلب الأمان، فإذا خرجوا إلى الفضاء المكشوف، أمكن لطائرات الاستطلاع من "شكل القوافل" أن تعثر عليهم وتنقَّض!

وكان أول أمر من الجنرال "تومي فرانك" قائد القيادة المركزية الأمريكية المسئولة عن العمليات من مقر قيادته في "تامبا" فلوريدا، هو:

"إن علينا أن نجعل مخابئهم تضيق عليهم، فإما أن "نفعصهم" داخلها وإما أن يضطروا للخروج إلى حيث نستطيع اصطيادهم. علينا كذلك أن نعزل قياداتهم أن يتصلوا للتشاور بينهم والتنسيق، وأن نقطع الاتصال بين القيادة والوحدات، وبين الوحدات وبعضها، وأن ندمر الطرق وشبكات الاتصال حتى يتحول ميدان القتال إلى جيوب محاصرة تتم تصفيتها واحداً بعد واحد"!

وكان الهدف التالي المباشر للضرب الكثيف هو "ردع آخرين" "لا أحد يعرف أين هم؟" عن القيام بـ: هجمات انتحارية جديدة أو التفكير في محاولات أخرى من نفس النوع، إذا توهموا أن الأضرار التي لحقت بالولايات المتحدة نفسياً وسياسيا واقتصاديا كبيرة إلى درجة تبرر لهم تكرار الهجمات بقصد الابتزاز، وهو أسلوب مستعمل على الساحة الدولية.

والمنطق هنا أن ضراوة عقاب "الجريمة الأصلية" كفيل بأن يرد آخرين عن ارتكاب مثلها مهما بلغت أوهام هؤلاء الآخرين!

وبالطبع فقد كان للضرب الكثيف قصد نهائي هو تحقيق النصر، وهنا فإن هناك أسئلة كثيرة وطرحت نفسها: عن معنى النصر؟ وهل يكفي لتحقيقه إسقاط نظام طالبان وهو ممكن بل وسهل بسبب تفاوت القوة أو أسر بن لادن وقتله، وذلك وارد بل ومحتمل في أجواء أفغانستان، وماذا عن البلد نفسه وهو من عشرات السنين مسرح حروب خاضتها الإمبراطوريات من قبل، رغبة في السيطرة على الموقع الحاكم في وسط جنوب آسيا؟ ثم ماذا عن الشعب الأفغاني وهو منذ أكثر من ربع قرن يعيش في مستنقع دم؟ ثم ماذا؟ وماذا.. أسئلة لا حصر لها!

**

وفيما بدا مع مجرى الحوار "على مائدة "أنتوني سامبسون" "، فإن العمل العسكري الأمريكي ــ بعد ابتدائه بالضرب الكثيف ــ حدد لنفسه خططاً للأجل القصير وبعده للأجل المتوسط، وعلى ضوء ما يجري على الأجلين يمتد البصر إلى أبعد!

○ وفي الأجل القصير، فإن مقتضى الخطة يكرر ما جرى من قبل في معارك البلقان الأخيرة في البوسنة وكوسوفو، وملخصها الاعتماد على القوات الجوية تغلق الطرق من حول قوات "العدو"، وتحاصر منافذه بدائرة من النار، ليست فيها غير فتحة واحدة تدخلها قوات صديقة على الأرض تطارد وتطهر وتحتل وتحقق النصر.

وجرى وضع المنطقة الشمالية بالفعل ومركزها "مزار شريف" هدفاً للعمليات الافتتاحية، فهذه المنطقة جغرافيا وعرقيا ومصلحة واتصالا في النطاق "الأوزبكي"، وهو "عرق إنساني" يعيش ما بين "جمهورية أوزبكستان" وبين شمال أفغانستان.

والظن أنه إذا ما زحف جيش يقوده جنرال "أوزبكي" مثل الجنرال "عبد الرشيد دوستم" من الشمال إلى الشمال، فإن منطقة "مزار شريف" سوف تستسلم راضية، ومهما فعلت طالبان "وكذلك كان".

○ وفي الأجل المتوسط فإنه سواء بالقصد أو بمصادفات الظروف، بدأت في الولايات المتحدة حكاية جرثومة "الإنثراكس" والحرب البيولوجية التي تشن على الشعب الأمريكي داخل وطنه، وكانت المبالغات الإعلامية في هذه "الحكاية" متجاوزة للواقع وحتى للخيال.

وشاع أن ذلك هو التمهيد لنزول قوات أمريكية برية على الأرض في أفغانستان، يسقط فيها ضحايا وتعود جثثهم إلى وطنهم في حقائب البلاستيك، وذلك هو الموقف الذي يكرهه الشعب الأمريكي، ويخشاه كل رئيس أمريكي — لكنه إذا تبدي أن أمريكا نفسها أصبحت معرضة لحرب بيولوجية داخل أرضها، إذن فإن المواجهة على الأرض بمثابة قدر مفروض لا مهرب منه أو مفر.

لكن الشائع راح يتحول إلى اتهام بأن حكايات الحرب البيولوجية جاءت تمهيداً للمرحلة المتوسطة من الحرب إذا حان وقتها، وهي تعطي للقيادة السياسية الأمريكية خيار توسيع أهداف الحرب، وفي مقدمتها: ضرب العراق.

والذي يتابع المناقشات الدائرة في دهاليز البيت الأبيض ووزارة الدفاع والكونجرس، والذي يتابع ما ينشره نجوم الإعلام الأمريكي، يلفت نظره ذلك التحريض المستميت على ضرب العراق حتى ليبدو في بعض اللحظات، كأن العراق هدف الحرب الرئيسي، في حين أن أفغانستان مجرد مسرح ثانوي يقتصر دوره على التمهيد والتهيئة.

٦ـ وكان رأى عدد من الجالسين حول مائدة الغداء في بيت "أنتوني سامبسون"، أن العمل العسكري الأمريكي له فوق أهدافه الإقليمية ـ هدف استراتيجي عالمي هو التأكيد لكل الأطراف في العالم أن الولايات المتحدة تأخذ دورها المهيمن الذي تفردت به بعد انتهاء الحرب الباردة جداً، وأنها إذا كانت "القوة الأكبر" في القرن العشرين، فإنها مصممة على أن تكون "القوة الأوحد" في القرن الواحد والعشرين.

وهذه رسالة موجهة إلى الجميع: الأصدقاء من قبل الأعداء "إذا كان هناك أعداء على مستوى الدول".

٧ـ لحق بذلك رأى يعتقد أن الولايات المتحدة تقوم ـ في ذات الوقت ـ "بتأكيد وتطوير وامتحان" نظرية الحرب الجديدة "الحرب غير المتوازية" ضد أنواع من التهديدات تواجهها، أخطرها "الإرهاب" ومع أن هذه الحرب الجديدة لا تحتاج إلى السلاح وحده، وإنما تحتاج إلى أسلحة أخرى بجواره أهمها "نظام مخابرات هائل للداخل والخارج"، تشارك فيه الأطراف والقوى في العالم ـ إلا أن هذا النظام العالمي للمخابرات ـ يصعب بناؤه إلا بضغوط على الجميع ـ ولا بد أن تكون الضغوط "مبررة"، حتى إذا تم إنشاء النظام ونجح في امتحانه، أصبحت "آليته المستقلة" خارج إرادة أية دولة بعينها.

٨ـ أضاف أحد الخبراء المشاركين في الحوار إلى ذلك قوله:

"إن كل رئيس أمريكي يحتاج إلى حرب يثبت فيها للكل وللتاريخ أنه زعيم حقيقي على مستوى الخلود "Posterity".

وهكذا فإنه في حين أن "بوش" يحلم بأن يكون "جورج واشنطن" "عائداً إلى الحياة" ـ فإن "توني بلير" يأمل أن يبدو وكأنه "تشرشل القرن الحادي والعشرين".

زيادة على ذلك فإن كل دولة عظمى تحتاج إلى إثبات قدرتها، كما أن كل قوة تحتاج إلى تجربة أسلحتها في ميدان حقيقي، ثم إن كل نظرية جديدة في استعمال القوة تحتاج إلى إثبات".

ومع التسليم ــ مرة أخرى ــ بأن الولايات المتحدة الأمريكية لا تواجه تهديداً حقيقيا ــ تكون بعده أو لا تكون ــ كما كان الحال مع بريطانيا في الحرب العالمية الثانية ــ إلا أن الولايات المتحدة في حالة عصبية تجعلها تشعر بعض اللحظات بأنها أمام تهديد حقيقي.

ويمكن ملاحظة أن هناك مدرسة في التفكير ترى أن التهديد هو كل حدث يختلف عن الأمر الواقع، وكل مفاجأة تجيء على غير انتظار، أي أن الأمر الواقع المألوف والمتوقع هو داعي الطمأنينة، فإذا اختلفت الأمور وإذا وقعت مفاجآت، فالشعور بالتهديد تلقائي "وكان ما حدث في أمريكا يوم ١١ سبتمبر الأخير أكثر من "أمر مختلف" وأخطر من "مفاجأة وقعت"!

وذكرنا واحد من الجالسين حول مائدة الغداء والمشاركين في حوارها، أنه سمع نقلاً عن الجنرال "ريتشارد ماير" رئيس هيئة أركان الحرب المشتركة للجيش الأمريكي قوله: "إن أمريكا التي انتصرت في الحرب الباردة عليها أن تجعل الوضع الذي جاء بعدها "سلاماً ساخناً" حتى لا تنسى حقائق القوة في أوقات الصفاء والاسترخاء!"

وسألني أحد الحاضرين حول مائدة "أنتوني سامبسون"، وهو "ويليام شوكروس" الذي يعتبر من أبرز الخبراء المتخصصين في صراعات آسيا، عن رؤية العالم العربي لما جرى "١١ سبتمبر"، وقلت: إنها لا تختلف كثيراً عن رؤية العالم كله: انبهار بجسارة المغامرة، واستنكار لعواقبها الإنسانية، وتعاطف ــ ربما لأول مرة ــ مع الولايات المتحدة، على أن السياسة الأمريكية لسوء الحظ لم تترك لهذا الشعور بالتعاطف، فرصة أن يتنامى، وإنما طردته مسرعة بصور الخراب في أفغانستان، والعذاب الذي يعانيه رجالها ونساؤها وأطفالها وبذلك غطت الصور على الصور، بمعنى أن صورة أبراج التجارة في نيويورك وهي تتهاوى تباعدت عن موقع النظر وموضع العاطفة، مع ملاحظة أن الإعلام الأمريكي في حالة نيويورك وواشنطن ركز على مشهد اقتحام الطائرات لبرجي التجارة التوأمين، ولم يركز على صور البشر، وأما في أفغانستان فلم تكن هناك ناطحات سحاب تتهاوى كأنها مشاهد أفلام سينمائية مثيرة، وإنما كانت الصور والأظهر والأكبر والأكثر تعبيراً عن المأساة الإنسانية ــ هي صور الجراح والدماء والدموع والموت قتلاً لمدنيين عزل لم يحملوا السلاح في حياتهم، ولم يقرءوا طول عمرهم كلمة عن صراعات العقائد والدول في الأزمنة الحديثة.

ثم عاد "شوكروس" يسألني عن بن لادن، وكأن رأيي دون مواربة أن بن لادن "ليس رجلنا" فلا هو وجه قضايا العرب والإسلام المعاصرة، ولا هو اللسان المعبر عن ضمير الاثنين.

وفي الواقع فإن كثيرين بين العرب والمسلمين ساورتهم الشكوك من سنين عديدة حول هذا الذي يجري في باكستان باسم "الجهاد" وضد "الإلحاد".

وثم هم في كل الأحوال لم يصنعوا "بن لادن"، أو يكتشفوه وإنما سمعوا باسمه لأول مرة على لسان الرئيس "بيل كلينتون"، حين وجه إلى مواقعه في جبال أفغانستان دفعة من صواريخ كروز صيف ١٩٩٨، "عقاباً على تفجير سفارتين للولايات المتحدة في عاصمتين أفريقيتين".

ثم عاد اسم "بن لادن" يتردد على لسان الرئيس "جورج بوش" منذ ارتفع صوت الرئيس الأمريكي لأول مرة مساء ١١ سبتمبر، وهو يعلن الحرب عليه!!

ومن أيامها والإعلام الأمريكي والسياسة الأمريكية لا تنطق إلا باسم "بن لادن"، وكأن ذلك الرجل الذي قضى صباه وشبابه مقاولا لبناء الطرق، ثم عاش ذلك النوع من الحياة التي يعيشها أقرانه من أبناء الغنى السريع في المملكة العربية السعودية، ثم حملته المصادفات إلى أفغانستان في ظروف شديدة الالتباس ـ قد حلت فيه فجأة روح "هولاكو" و"هتلر" و"جنكيز خان" و"ستالين" وفي الوقت نفسه!

ومن أكبر الأخطاء ـ ولعله خطأ متعمد ـ أن يقع الخلط بين الاستنكار العربي للسياسة الأمريكية، وبين ترجمة هذا الاستنكار على أنه الإعجاب ببن لادن. وربما ساعد على الترويج لهذا الخطأ المتعمد، أن الأمة العربية لا تجد في هذه اللحظة قيادة معترفاً بها تتوافر لها المصداقية ولا فكرة جامعة لها طاقة وحيوية أن تلهم وتحرك!

وهكذا فإنه إذا كان ظهور بن لادن ـ إعلامياً قد بلغ هذه الدرجة ـ فدلالته الحقيقية أن الأزمة العربية وصلت إلى القاع، لأن الرجل في جميع أحواله لا يقدر على دور "البطل" ولا يصلح لدور "الشهيد"!

....

....

زدت على ذلك أنني في كل ما جرى فوق "نيويورك" و"واشنطن"، أستشعر ما تعرض له الشعب الأمريكي، خصوصاً أنه جاء قاسياً ومدمرا، لكنني أعرف أنه مثل كل الأحزان الإنسانية سوف يبهت من الذاكرة الحية مع الأسابيع والشهور والسنين، لكن قلقي الكبير "الآن" وخوفي الحقيقي على شيء آخر، أخشى أنه سوف يظل معنا طويلاً ـ في الواقع الحي وليس في الذكريات الحزينة ـ وأعني بذلك "فكرة الطيران" ذاتها. فقد كان القرن العشرون "قرن الطيران" بحق، وكانت "الطائرة" التي ربطت الدنيا هي نجم العصر ومحركه ودافعه ووسيلته للتقريب ما بين القارات والأمم والثقافات، وخشيتي الآن هي على "فكرة الطيران"، لأن الفكرة تعرضت لعدوان صارخ يتعدى ما تعرضت له نيويورك وواشنطن ويتعداه بكثير.

أضفت أنني أعرف "ولا أوافق" أنه حدث من قبل أن "عربا" و"غير عرب" خطفوا طائرات، واحتجزوا من ركابها رهائن في مقابل طلبات أعلنوها، وكان ذلك خطراً على الطيران، لكن الخطر كان محصوراً.

وأما هذه المرة، فإن أربع طائرات فيها مئات من الركاب وقع خطفها، ثم قرر الخاطفون تحويلها بما فيها الركاب من البشر ـ رجالاً ونساءً وأطفالاً ـ إلى قذائف من النار، وهنا فإن الخطر غير محصور. بمعنى أن الخطب واحتجاز الرهائن وتقديم الطلبات كان خطرا على الطائرات، وأما الذي جرى فوق نيويورك وواشنطن، فقد أصاب فكرة الطيران في القلب.

وعندها فإن "الإرهاب" جاوز فلسفته التي يتعلل بها، فلم يعد "الإرهاب" شخصاً مستعداً للتضحية بحياته فداءً لمعتقداته، وإنما أصبح "جريمة" تضحي بحياة أخرين لا شأن لهم بمعتقداته ولا بحياته!

الإشارة الرابعة:

مسألة الإرهاب: الأصول والفروع

أوكسفورد:

لكننا في هذا الموضع عند ضرورة تستحق إشارة مستقلة بذاتها، وأعني بذلك مسألة "الإرهاب"، والحقيقة أن الكلام كثير عن "الإرهاب" إلى درجة زاد فيها الخلط حتى تحمل "المصطلح" بأكثر مما يحتمل معناه. وقد وقع في زمن الحرب الباردة وبعدها، أن أساليب تلك الحرب أمسكت بالكثير من المعاني وعبأتها بمقاصد لم تخطر على بال "النحاة" ثم حولتها إلى قذائف يعاد صهرها بعد كل استعمال، لتتشكل بالسبك من جديد ويعاد استعمالها، حتى فقد اللفظ في النهاية صلته بالمعنى الأول الذي جرى صكه للتعبير عن دلالته.

**

وفي السنوات الأخيرة، فإن ذلك حدث لتعبير: (الإرهاب) الذي يعتبرونه أهم "الإشكال" الجديدة للصراع على المستويات المحلية والإقليمية والدولية.

وربما قلت هنا ــ ودون مقدمات ــ إنني من المعجبين باجتهادات السير "مايكل هوارد" أستاذ علم "الصراع" وما يتصل به من استعمالات القوة. في جامعة أوكسفورد، وقد وجدتني زائراً لمكتبه عدة مرات، أسأله وأصغى إليه، وأنقل بصري من حيث يجلس واثقاً على مقعده، إلى المنظر الذي تطل عليه غرفة مكتبه، وهو الساحة الداخلية المفروشة بالعشب الأخضر، تحيط بها مساكن الطلبة القدامى في الجامعة العريقة، وهذه الساحة تبدو من نافذة مكتبه مهيبة بأعمدتها وعقودها من الطراز القوطي ــ بينما المساكن المحيطة تتمدد حول مربع واسع، وفي وسط كل عقد من عقودها، يظهر بين الأعمدة باب قديم لمسكن عتيق عاش فيه طلاب العلم قرناً بعد قرن، وأضافوا به إلى المعرفة الإنسانية طبقة فوق طبقة ــ وصنعوا به ما صنعوه من قيمة لجامعة أوكسفورد، ودورها في بناء الإمبراطورية البريطانية، وما بعدها.

وضمن منهجه في شرح علم الصراع فإن السير "مايكل هوارد" لديه اجتهاد في توصيف الإرهاب يختلف عن النداء الذي يتردد بين وقت وآخر في بعض العواصم العربية باقتراح مؤتمر عالمي على مستوى القمة لبحث قضية الإرهاب كما يختلف عما يتردد في عواصم عربية أخرى بما يعني: أنه لا يصح أن يوصف بالإرهاب، نضال الفلسطينيين من أجل استعادة حقوقهم في وطنهم".

....

....

[والواقع أنه بالنسبة لفكرة مؤتمر عالمي لبحث قضية الإرهاب، فإن الموضوع فات أوانه، لأنه قبل عشرين سنة وأكثر دخل الرئيس "رونالد ريجان" إلى البيت الأبيض على أساس برنامج، تحتل قضية الإرهاب رأس أولوياته، وبالفعل فإن "رونالد ريجان" بعد أن أصبح رئيساً للولايات المتحدة أنشأ لجنة علياً يشرف عليها نائبه "جورج بوش" "الأب" وكان تكليف اللجنة هو قضية الإرهاب، ثم إن هذه اللجنة "سنة ١٩٨١" انتهت إلى توصيات وقرارات تم اعتمادها، وبالتوازي مع ذلك قامت الأمم المتحدة على عهد أمينها العام الأسبق "بيريز دي كويلار" بإحالة موضوع الإرهاب إلى اللجنة السياسية التي خصصت لها مجموعة دولية رفيعة المستوى توصلت إلى صياغة نصوص لحزمة اتفاقيات دولية معروضة الآن أمام مجلس الأمن لإقرارها واعتمادها بواسطة مجتمع الدول.

يضاف إلى ذلك إن فكرة مؤتمر دولي للإرهاب طرحت نفسها مرات، وانعقدت بالفعل لهذا الغرض قمة دولية التأمت في "شرم الشيخ" في مصر "مارس سنة ١٩٩٦"، ومن سوء الحظ أنه تبين فيما بعد أن تلك القمة قصد منها إنقاذ الفرص الإنتخابية لـ "شيمون بيريز" حتى تتأكد له رئاسة الوزارة في إسرائيل، لأنه "حمامة السلام" المرجوة والمهددة بمخالب الصقور المتشددين من كتلة الليكود وغيرها، لكن القمة فشلت في تحقيق غرضها، وسقط "بيريز" ونجح "بنيامين نتانياهو".

وأما بالنسبة لما يتردد من أنه لا يصح اعتبار نضال الفلسطينيين من أجل استعادة حقوقهم في وطنهم إرهابا ـ فإن أي توصيف للإرهاب لا يجب حصره في قضية فلسطين أو اقتصاره عليها أو تمييزها به، وإلا أصبح ما يسمونه بالإرهاب حكراً على قضايا العرب وحدها.]

....

....

المهم هنا أن ما يذهب إليه مايكل هوارد ـ أستاذ علوم الصراع في جامعة أوكسفورد ـ أبعد وأعمق، والأهم فيه أن الرجل يطرح ما عنده مستنداً إلى "علم" ثم إنه يقوله واعياً بالتوقيت السياسي الذي يتكلم في إطاره، مدركا لمحاذيره "ثم إن الرجل لم يتحدث به فقط في مجلس خاص، وإنما ـ وكما عرفت بعد عودتي إلى القاهرة ـ فقد تحدث عنه في اجتماع مغلق في كلية الدفاع العليا التابعة لهيئة أركان الحرب البريطانية في لندن" وبالتالي فإن رأى السير "مايكل هوارد" لا يستحق الاحترام فقط لأنه يصدر عن خبير، وإنما استحقاقه للاحترام يتأتى أيضاً من أن العلم قادر على احترام نفسه والترفع على هوى السياسة.

وكذلك رحت أصغي لما يقوله أستاذ أوكسفورد العتيد.

بدأ السير "مايكل هوارد" بملاحظة ملخصها، أنه قرأ تعليقا عن حوادث اقتحام العمارات بالطائرات، جاء فيه وصف العمل بأنه "كان جباناً"، وهو يرى أن ذلك الوصف أبعد ما يكون عن الحقيقة، "فما حدث يصعب أن يكون فاعله جبانا"، ولو أن التعليق وصف الفاعل "بأنه مجنون، لوافق على الوصف".

أي أن ما جرى يوم ١١ سبتمبر لم يقم به "الجبن" وإنما قام به "الجنون"!

ثم يقول السير "مايكل هوارد": "إن الجنون يمكن أن يكون من أعمال الإرهاب، وهنا فإنه لا بد من توصيف "الإرهاب".

ورأى السير "مايكل هوارد" أن "الإرهاب" ليس "جريمة" بالمعنى العادي للجريمة، لأنه لا توجد علاقة معرفة"شخصية" بين الجاني والمجني عليه، كما أنه لا توجد مصلحة "مباشرة" بين فاعل الإرهاب وضحيته، وعليه فإن الإرهاب "فعل عام" وليس "فعلاً خاصاً" وهنا اختلافه عن الجريمة.

و"الإرهاب" لم ينشأ الآن فقط مع نشاط الفلسطينيين أو الأيرلنديين "تلك أمثلته"، وإنما نشأ من زمن طويل، ثم أصبح ظاهرة "سياسية" بشكل واضح في القرن الماضي، حين أصبح نوعاً من أنواع الثورة " A sort of Revolution"، لجأت إليه شعوب أو جماعات مقهورة ــ كانت الحرب مستحيلة عليها بسبب ضعف وسائلها، وكانت الثورة غير ممكنة لها بسبب جبروت حكامها، والنتيجة أن هذه الشعوب والجماعات أقدمت على "أعمال يأس" لم تجد أمامها غيرها، وقد لجأت إليها قابلة بدفع ثمنها وهو حياة منفذيها في كل المرات وأمن تنظيماتهم في بعضها".

وكذلك فإن الروس مارسوا الإرهاب ضد الدولة القيصرية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

والأرمن مارسوا "الإرهاب" ضد الدولة العثمانية بعد ذلك.

والمصريون والأيرلنديون والهنود مارسوا "الإرهاب ضد الإمبراطورية البريطانية في النصف الأول من القرن العشرين.

واليهود مارسوا الإرهاب ضد الإنجليز. والفلسطينيون مارسوا الإرهاب ضد إسرائيل.

يستطرد السير مايكل هوارد:

"ليس الموضوع أنني أوافق أو لا أوافق على ما فعله هؤلاء الناس في سبيل ما تصوروا ــ من وجهة نظرهم ــ أنه المتاح أمامهم للتعبير عن مطالب اجتماعية أو سياسية أو وطنية، ومهما كانت تكاليفها عليهم وعلى غيرهم وإنما الموضوع أن نحاول فهم ما يقصده هؤلاء الناس بأفعالهم:

- هؤلاء الناس أو لا يريدون الإعلان عن أنفسهم أو عن قضايا يريدون إشهارها بقوة الفعل الذي أقدموا عليه.
- وهم ثانياً يريدون تأكيد تصميمهم على القتال في سبيل ما يريدون مهما كانت التضحية.
- وهم ثالثاً وبعنف الفعل يظنون أنهم يوجهون إلى الخصم القوى ضربة الخصم الضعيف تأتيه مفاجأة على غير توقع وتجعله يعيش بعد ذلك رهينة لوساوس القلق!
- وهم رابعاً ــ وهذه هي النقطة الأهم ــ يقصدون إلى دفع الطرف الآخر "دولة أو نظام" إلى اتخاذ إجراءات قمع قاسية واسعة النطاق تثير جماهير شعوبهم ضدهم لأن إجراءات القمع والقسوة تضغط على ضمائر جماهير هذه الشعوب!

يستطرد السير "مايكل هوارد":

في المحصلة فإن الإرهاب معركة تقصد إلى إعلان التحدي لوضع قائم عن طريق استفزازه، بحيث ينـدفع هـذا الوضع القائم بكل سلطته للضرب والقمع إلى ما لا نهاية، وتكون زيادة عنف السلطة مؤدية في العادة إلى النفـور منها، وحينئذ يشعر القائم بالعمل "الإرهابي" أنه حقق غرضه، لأن الناس تعاطفوا معه، حتى وإن لم يتعـاطفوا مـع قضيته.

....

....

[بدا لي رأي "مايكل هوارد" معقولاً، وبدا لي أن ما نراه الآن تصديق عليه، فليس هناك ــ كما أظن ــ تعـاطف "عربي" أو "إسلامي" ــ عام ــ مع طالبان أو مع "أسامة بن لادن"، لكنني أظن أن قوة العنف الأمريكي: بحملة مـن الكراهية أولاً دون دليل ــ ثم بالسلاح ــ بعدها ــ دون مشروعية ــ ثم بالضرب فوراً ــ دون تمييز ــ خلقت ردة فعل مناهضة ــ على نحو ما ــ للولايات المتحدة، متعاطفة ــ على نحو ما ــ مع شعب أفغانستان، ثـم تـداخلت الصور فوق الأرض المخضبة بالدم!

ومع أنه لا يصح لأحد أن يخالجه شك في أن القوة الأمريكية قادرة على أن تهدم كل حائط فـي أفغانسـتان، وأن تحرق كل كهف في جبالها، وأن تمزق حركة طالبان إرباً، وأن تأسر بن لادن في النهاية أو تقتله فـإن "الإرهـاب" لسوء الحظ فاز في المعركة وفقاً لمقاييس السير "مايكل هوارد":

ذلك أن الإرهاب حقق أهدافه المطلوبة: فهو قد أعلن عن نفسه ــ وأكد تصميمه ــ ووجه ضـربة بالمفاجـأة "إذا كان حقاً أنه هو الذي وجهها ــ أو هو وحده!"، والنتيجة أن الولايات المتحدة وقعت في فخ الاسـتفزاز واسـتعملت عنف القوة بأكثر مما هو لازم.

وكذلك فإن "بن لادن" قد يصبح بطلاً بالرغم عنه، وشهيداً بمحض مصادفة].

....

....

[وربما أضفت إلى كلام السير مايكل هوارد أنه إذا كان الإرهاب ثورة اليأس ضد القوة، فإن عصر العولمة نقـل الظاهرة من حدود الأوطان إلى اتساع القارات، بحيث يمكن القول بأن معظم أزمات زمننا الراهن وعقده الفكريـة والنفسية، وكذلك معظم حركات التمرد فيه والعصيان، هي بمثابة نوع من الحرب أو نوع من الثورة يقوم بها قـاع العالم ضد قمته].

....

....

[خطر لي أيضاً أنه إذا كان "الإرهاب" يفوز عندما ينجح في دفع الأقوياء إلى الاستفزاز، ويكـون ردهـم عليـه بأقصى درجات العنف ــ فإن الإرهاب يخسر إذا استطاعت القوة أن تضبط أعصابها وتواجه الاسـتفزاز بحكمـة العقل متمثلة في حكم القانون، ونموذج "حكمة العقل" مشهور في التجربة الأمريكية نفسها، حين أقدم "تيموثي ماكفي"

وهو يميني مجنون على نسف عمارة ضخمة في مدينة "أوكلاهوما"، ضاع فيها من أرواح الأمريكيين أكثر مما ضاع في حرب الخليج!

ففي حالة أوكلاهوما جرى تجنب الاستفزاز، ورغم أن "ما كفى" ثبتت عليه التهمة واعترف ــ على عكس "بن لادن" الذي لم يثبت عليه شيء ولم يعترف ــ فإن المحاكمة استمرت خمس سنوات كاملة، حتى دفع "ما كفى" حياته ثمناً لفعلته الإرهابية، ومد يده أولاً لحقنة مخدرة تهدئ أعصابه، وبعدها لحقنة ثانية حملته إلى الموت بالسم المميت!

والظن أن الشعب الأمريكي حين رفض الاستفزاز في حالة "ما كفى"، هزم الإرهاب الداخلي الأمريكي، لأنه حجب عن الإرهاب مطلبه الأساسي. أي أن المجتمع الأمريكي قبل التحدي ورفض الاستفزاز، ولم يندفع إلى عنف القوة، وإنما أخذ بيده حكمة القوة: أي القانون.

وفي المحصلة، فإن حكم القانون يقدر على تحجيم الإرهاب وحصره. في حين أن عنف القوة يخلط ما بين الإرهاب وقضيته، ويجعل "النموذج" ملتبساً "بالفعل"، ومن ثم يصبح الإرهاب والإرهابي تياراً يجدد نفسه وفعله زماناً بعد زمان وصفاً بعد صف.

الإشارة الخامسة:

التحالف الدولي الجديد: أنواعه ودرجاته

روما:

من العالم العربي لا تظهر صورة التحالف الدولي الذي يخوض الحرب الجديدة جلية أو محددة، لكن الصورة تختلف إذا وقع النظر إليها من إحدى العواصم الأوربية المطلعة، خصوصاً تلك التي تعرف دورها بذكاء وتتصرف إزاءه بحذر، وذلك هو الحال في العاصمة الإيطالية "روما"، ولعله تأثير قراءة ودراسة أستاذ علوم السياسة الأكبر "نيكولو ماكيافيللي".

والحاصل أن صورة التحالف الدولي الجديد ظهرت ــ من العالم العربي ــ مهزوزة ومشوشة، لأن الخطوط والمساحات لم تتطابق في الواقع مع ما تهيأت له التوقعات، وكان الذي جرى ــ لبعض الأطراف ــ أن مجرد الكلام عن تحالف دولي جديد في أفغانستان سنة ٢٠٠١، استدعى إلى ذاكرتهم تحالفاً دولياً سبقه إلى إدارة الحرب في الخليج قبل عشر سنوات "١٩٩١".

لكن التاريخ "مرة أخرى" لا يكرر نفسه ولا تتدفق أمواجه في ذات المجري مرتين.

○ وكان التحالف الدولي الذي خاض حرب الخليج سنة ١٩٩١ ــ تحالفاً غربياً عربياً بالدرجة الأولى، وكانت العلاقة التي ربطت الطرفين فيه: الغربي والعربي ــ أو الأمريكي والعربي بالتحديد ــ علاقة متوازنة على نحو معين، وفي حين أن الطرف الغربي ــ بحكم الحقائق ــ كان يملك وسائل القوة، فإن الطرف العربي ــ بحكم الظروف ــ كان يملك غطاء المشروعية وخصوصاً أن مطالب الحرب اقتضت نزول قوات أمريكية على نطاق

واسع ومكشوف فوق أرض يعتبرها المسلمون مقدسة، وكانت الأسرة الحاكمة في السعودية هي التي طلبت الغطاء العربي الإسلامي حتى تتحمل بنزول قوات أجنبية على ثرى هذه الأرض المقدسة، وكان الغطاء المطلوب مصريا ــ سورياً وزيادة على ذلك عربيا وإسلامياً بأوسع ما هو ممكن. وذلك تحقق وبه توازنت عناصر القوة مع مطالب المشروعية وبدا أن هناك نوعا من التكافؤ بين الطرفين، وكذلك نوعاً من التوافق، ظهر تأثيرهما على قرار وقف العمليات البرية ضد العراق، والداعي أن بعض الأطراف العربية المشاركة في الحرب وجدت أنه وقد تم إخراج القوات العراقية من الكويت، فإنها لم تعد راغبة ولا قادرة على تحمل الضغوط الشعبية وإلا بان وانكشف أمام الكل أن الهدف هو تدمير العراق وليس تحرير الكويت.

**

وبالفعل فإن الرئيس "جورج بوش" الأب اتصل أيامها بالجنرال "كولين باول" رئيس هيئة أركان الحرب المشتركة يستطلع رأيه، وكان رأي "باول" ورأى غيره من أقطاب الإدارة أن "القتال يمكن أن يتوقف الآن"، وذلك ما حصل ــ وإن تكشف بعده أن القتال توقف لكن الحرب على العراق استمرت بوسائل إخرى تعمل على تدمير البلد وشعبه بغير أن تسبب حرجاً يحسب على أطراف التحالف من العرب ــ ثم كان أن الولايات المتحدة قدمت أو ساعدت على تقديم بعض المكافآت إلى هذه الأطراف العربية، لكنها أحالت بقية الحساب يصفيه العرب بينهم وبين بعضهم، وهنا ظهرت الفكرة "التعيسة" لما سمي بـ: "ميثاق دمشق" والقصد منه أن يدفع الخليج ــ بقية "فاتورة المشروعية" التي وفرتها الأطراف العربية للقوة الأمريكية وكأن الميثاق تجارة في الحماية!

ولسوء الحظ ــ هذه المرة ــ فإن بعض العواصم العربية عندما سمعت كلمة "التحالف" تتردد مرة أخرى بعد أكثر من عشر سنوات، قاست اللاحق على السابق.

ولم يكن القياس سليماً وكذلك لم تتطابق الخطوط والمساحات بين المنتظر والمتحقق، والنتيجة أن الصورة الجديدة بدت للناظرين إليها من بعض العرب مستغربة، وربما أن ذلك هو الذي أوجد أسباباً لسوء الفهم في المرحلة الأولى من حرب أفغانستان، وأوقع مظاهر للارتباك في التصرفات ما زالت بقاياها محسوسة إلى الآن.

وفي الغالب أنه غاب عن بعض الأطراف العربية وهي تتابع المجرى الجديد للحوادث، أن التيار هذه المرة مختلف، بل إن حساب جميع العناصر هذه المرة بعيد عن حساب المرة السابقة:

- فليس هناك إذن مطلوب من أحد "لأن الولايات المتحدة موجودة بالفعل حيث يهمها".
- وليست هناك مشروعية يستطيع طرف أن يمنحها "لأن ما جرى في نيويورك وواشنطن يعطي للقوة الأمريكية حق أن ترد بالعقاب دون أن يعترض أحد".
- وبالتالي فإن الإذن غير مطلوب عربياً والمشروعية هذه المرة أمريكية "وإذن فليست هناك مساواة بين الأطراف".
- وبالتالي ليست هناك فوائد يحصل عليها أحد ــ بل العكس فهناك ضرائب مستحقة على الجميع "وهذه الضرائب تدفع حين تطلب ــ وليس هناك "تراض" يمكن التوصل إليه بين الممول وبين المحصل"!

وتأنت تلك "مداخل" التحالف الدولي الجديد ــ هذه المرة ــ ومفاتيحه!

وفي روما وفي غيرها من العواصم الأوربية شمال البحر الأبيض تبين صورة التحالف الدولية الجديد دون تناقض بين الخطوط والمساحات. وفي هذه الصورة تظهر معالم رئيسية يستحسن فهمها وإلا استمر خطأ الحساب وتراكمت عواقبه.

وأهم ما يتكشف بمطالعة الصورة من الموقع الأوربي أنه ليس هناك تحالف واحد، وإنما هناك جملة تحالفات، ثم إن التحالفات أصناف:

○ فهناك تحالف دول ــ وهناك تحالف مهام وهناك تحالف توقيت.

**

يترتب على ذلك أن داخل كل نوع من هذه الأنواع من التحالف درجات واحدة بعد الأخرى.

○ ففي الدرجة الأولى ــ من تحالف الدول ــ توجد: بريطانيا وحدها، والذي وضع بريطانيا في هذه الدرجة بمفردها هو إحساسها برباط المصلحة، وإيمانها بالعلاقة التي تربط مجتمع الناطقين باللغة الإنجليزية مما يجعل هذه العلاقة شراكة قوة ونفوذ ، وكان ظن رئيس وزراء بريطانيا "توني بلير" أنه حين يعطي للولايات المتحدة بغير شروط، فإن الولايات المتحدة سوف تعطي بريطانيا بغير حدود، خصوصاً في الوزن السياسي.

○ وفي الدرجة الثانية من تحالف الدول توجد روسيا والصين، وتلك حقيقة أوضاع دولية تفرض على الولايات المتحدة وعلى روسيا والصين أن يكون بينها حجم من التفاهم يكفي ليصنع أرضية مأمونة للحركة. ذلك أنه حين تقدم قوة ــ عظمى ــ حتى ولو كانت القوة الأمريكية ــ على العمل المسلح بالقرب من حدود أو تخوم قوة ــ عظمى ــ ثانية، فإن كل نقطة يجب أن تكون في مكانها، لأن الأوضاع لا تحتمل أن يدوس طرف على قدم طرف آخر، أي أن أي عمل أمريكي مسلح في أفغانستان لا بد له من رضا روسي وصيني حتى ولو كان الرضا بالسكوت.

ثم إن روسيا كانت متشوقة لتحصيل ديون قديمة وجديدة، بينها أن لها ثأراً مع "المجاهدين الأفغان القدامى" ومع "ثوار طالبان المحدثين"، فكلاهما اعتبر الحرب مع الاتحاد السوفيتي السابق "روسيا" واجباً مقدساً، يجاهد في سبيله "بتوجيه وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وتمويلها"، والآن وقد وقعت الواقعة بين "المجاهدين" "قديماً وحديثا"، وبين السياسة الأمريكية، فإن روسيا يسعدها أن تحل لحظة الحساب، وأن يكون عقاب الأفغان بسلاح الأمريكان!

ــ إلى جانب ذلك فإن "روسيا" يهمها أن تفهم الجمهوريات السوفيتية السابقة في الجنوب "أوزبكستان ــ وتركمنستان ــ وطاجكستان وغيرها" أن مسارعتها إلى إعلان الاستقلال عن الاتحاد السوفيتي "روسيا" بمقولة أن لهذه الجمهوريات هوية ــ إسلامية ــ خاصة ــ تجذبها دائماً نحو الجنوب ــ مغامرة ثبت فشلها ، والآن لعل هذه الجمهوريات تتعلم وتفهم أن مستقبلها الحقيقي في الشمال "مع روسيا" وليس في الجنوب "مع وسط آسيا المحاصر بالتخلف وبالجيوش الغازية أيضاً!".

ـ وأخيراً فإن روسيا ترى أن الضرب في أفغانستان رسالة للتمرد في الشيشان، وهو تمرد تسللت إليه وما زالت تتسلل ـ عناصر من "المجاهدين"! ـ العرب والمسلمين تطوعوا للقتال في معركة لا يعرفون دخائلها على أرض لا يعرفون معالمها.

وكذلك أصبحت روسيا ـ بقدر من الشراكة قابل للاتساع ـ حليفاً لأمريكا شرطه الرئيسي أن لا يتم في المستقبل إجراء سياسي أو اقتصادي "بشأن موارد وسط آسيا من النفط وغيره"، إلا بعد التشاور معه والاتفاق.

○ وبالنسبة للصين كانت المصلحة واضحة: فهي لا تريد أن تترك أمريكا لروسيا وحدها ـ ولا تريد تسوية أمور تسوية وسط آسيا في غيبتها، ولا تريد للهند أن تصبح القوة الغالبة في شبه القارة الهندية، إذا سقطت باكستان في بحور الفوضى بسبب ضغوط العمليات العسكرية على التركيبة الباكستانية "عرقية ـ دينية ـ ثقافية ـ سياسية ـ واقتصادية".

ـ مضافاً إلى ذلك، فإن الصين كانت في دهشة من نشاط "جهادي" إسلامي موجه من أفغانستان إلى منطقة "جيانج جانج" وهي على السفح الآخر من جبال الهملايا، وفيها قرابة مائة مليون مسلم في المقاطعات الغربية للصين ـ لديهم مشكلات اجتماعية واقتصادية مع الحكومة المركزية في "بكين"، ويريد "المجاهدون" لهم نظاماً إسلامياً على طريقة "طالبان"!

○ في الدرجة الثالثة من تحالف الدول تجيء باكستان ومجموعة دول الخليج، وأهمية هذه الدول ترجع إلى أن أراضيها هي ذاتها القواعد التي تشن منها الحرب، وكان يمكن أن تكون هذه المجموعة من الدول في مكان الدرجة الأولى، لكن الدرجات لا تقاس على أساس "الحاجة عند الاستعمال"، ولكن على أساس "القدرة الذاتية للأطراف في المنح وفي المنع".

ـ ذلك أن باكستان ولو أنها المسرح المتقدم في قيادة وتوجيه العمليات، وقاعدة ارتكازها الضرورية ـ إلا أنها جاءت إلى دورها مجبرة، ممزقة بين مشاعر أهلها وبين ضرورات أمنها الوطني وهي كثيرة، وأولها: سلامة النظام الحاكم ـ وثانيها: المحافظة على الإمكانية النووية لباكستان: وهي حتى الآن إمكانية وليدة معرضة للإجهاض أكثر مما هي قادرة على الردع "وتلك أخطر مراحل أي مشروع نووي إذ تكون أعباؤه وتكاليفه قد دفعت لكن قدرته على الردع لم تكتمل بعد، وبالتالي يصبح المشروع في هذه الفترة من عمره نقطة ضعف أكثر منه عامل قوة".

ـ ونفس الحساب إلى حد ما ينطبق على مجموعة الخليج، ذلك أن القوات الأمريكية موجودة على الأرض، والقواعد على هذه الأرض تعمل، وليس هناك من يستطيع أن يعترض، وإذا اعترض بالكلام، فحرية العمل لا تحجر عليها الكلمات ما دام فعل الاعتراض معطلا ـ بالعجز على الأقل.

....

....

وفي هذا المجال ظهر أن هناك فعلاً واحدا يقتضي إذنا، لأنه طلب يوفر لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية ــ "إمكانيات" "وتسهيلات خاصة" تتيح لها مراقبة موسم الحج هذا العام.

[ذلك أن الوكالة عرفت من مصادرها "هكذا قالت!" أن عدداً من القادة غير الظاهرين للإرهاب وأعواناً لهم من مختلف المراكز تواعدوا على لقاء في مواقع الحج ووسط مناسكه ليبحثوا سياساتهم وخططهم في المرحلة القادمة، ووكالة المخابرات المركزية تظن أن تلك فرصة لا يصح أن تفوت عليها لترصد وتتابع وخصوصاً أن زعماء الإرهاب ومساعديهم سوف يخلعون ستائر الحذر عندما يخلعون ملابسهم ويستبدلونها بملابس الإحرام، وهنا يمكن التقاطهم جماعة وبالجملة. والواضح أن واشنطن طلبت، لكنه ليس واضحاً ــ بعد ــ أي رد تلقَّتْ]

....

....

إلى جانب ذلك فإن مجموعة الخليج في وسعها أن تدفع بعض التكاليف، وسوف تدفع رغم الأزمة الاقتصادية الناشئة عن انخفاض أسعار البترول من قبل الحرب وبعدها.

وأخيراً بصدد تحالف الدول فإن البقية بعد ذلك حبات عقد لا ينتظمها حبل، ولكن كل واحدة منها يجري التقاطها حين يجيء دورها!

**

هناك بعد ذلك تحالف المهام، والمهام بالطبيعة موكلة بدول، لكن المقصود في هذا السياق أن التحالف مع هذه الدول يجيء في إطار عمل محدد في مرحلة محددة من هذه المواجهة الدائرة الآن، وحتى إذا كانت علاقة الولايات المتحدة السابقة بهذه الدول ببعضها علاقة أوسع من المواجهة الحالية، فإن التحالف مع "هذه الدول" هو في هذه اللحظة مهام مطلوبة ــ هنا والآن.

ولعل ذلك ما عبر عنه وزير الدفاع الأمريكي دونالد رامسفيلد حين قام بتحديد الفوارق بين تحالف حرب الخليج سنة ١٩٩١ وبين تحالف حرف أفغانستان، وكذلك قال رامسفيلد:

□ "في المرة الماضية كان "أطراف التحالف" هم الذين يحددون "مهام الحرب"، وأما هذه المرة فإن "مهام الحرب" هي التي تحدد "أطراف التحالف" "!

□ وفي "تحالف المهام" فإن الدولة التي تتصدر القائمة هي "تركيا"، وتركيا تمارس المهام الموكولة إليها الآن فعلاً على ساحة الأزمة:

ــ وفيها أن تركيا قريبة من وسط آسيا، كما أن لها صلات وثيقة مع أفغانستان، أهمها القرب الجغرافي وأظهرها تأثر محاولة الإصلاح الأفغاني في العصر الحديث بحركة "كمال أتاتورك"، إلى درجة أن أحد ملوك أفغانستان وهو "أمان الله خان" جرب في أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات، تقليد أتاتورك في فرض لبس القبعة على الرءوس بدلاً من العمامة، لكن التجربة كانت متجاوزة للحقائق الأفغانية وأولها الحقيقة الثقافية.

يلي ذلك أن تركيا قاعدة عسكرية قريبة من الجوار، وأن هيئة أركان حرب الجيش التركي تعتبر أن أفغانستان واقعة في نطاق الأمن الإقليمي التركي، ومع جوار أفغانستان لجمهوريات جنوب الاتحاد السوفيتي السابق "تركمانستان وطاجكستان و أوزباكستان وحتى كازاخستان" وهي في الطموح التركي منطقة نفوذ يتعين حجزها لها ــ فإن تركيا ترى لنفسها دوراً ومجالاً، وبالفعل فإن تركيا تحركت في هذا الاتجاه عقب سقوط الاتحاد السوفيتي ثم واصلت الحركة حتى الآن، "ولسوء الحظ بتعاون وتنسيق ــ في معظم الأحيان ــ مع إسرائيل"!

ــ هناك أيضاً أن تركيا لديها تجربة في محاولات إقامة دول تنفك من رباط دول قديمة بدعاوى عرقية ودينية، ومن ذلك فقد تمكن القادة العسكريون من الأتراك من إقناع "حليفهم" الأمريكي بأن تجربتهم في ضرب وحصر حزب العمال الكردستاني تصلح درساً يستحق النظر والاعتبار، وقد وجدوا أوجه شبه بين الرفيق "عبد الله أوجلان" الكردي والملا "محمد عمر" الطالباني، وكذلك فإن هناك الآن مع القوات الأمريكية العاملة ضد قوات تحالف الشمال الأفغاني وحدات تركية تقدم الخبرة في التدريب وتشارك عملياً على الأرض!

والمطلب مقابل ذلك أن تركيا لديها حلم "نائم" أو في الحقيقة حلمان آن لهما أن يستيقظا:

ــ أولهما: "حلم" أن تعترف سوريا تحت "ضغوط ما" بأن قضاء الاسكندرونة "الذي تنازلت عنه فرنسا لتركيا أيام الإمبراطورية" ــ قد أصبح شرعياً ونهائياً ولاية تركية.

ــ والثاني: حلم ولاية "الموصل" التي تأمل تركيا في سلخها عن العراق العربي لكي تصبح ــ هي الأخرى ــ ولاية تركية، لأن أنقرة ما زالت تتهم الحكومة البريطانية بالعمل على ضم الموصل إلى العراق الخاضع لها ساعة تصفية دولة الخلافة العثمانية تلك الأيام. وتشير تلك الدعاوى التركية إلى أنه كان هناك بند في الميزانية التركية تحت عنوان "الموصل" ظل مطبوعاً في كل مشروع ميزانية حتى عهد إدارة الرئيس "تورجوت أوزال".

□ إلى جانب تركيا يجيء الدور "في تحالف المهام" على مصر ومعها عدد آخر من الدول العربية "ضمنها السلطة الوطنية الفلسطينية"، وأول المطلوب من هؤلاء على المشاع معلومات مخابرات، فهذه الدول كلها اقتربت على نحو أو آخر مما جرى في أفغانستان وبعضها شارك مشاركة فعلية في إنشاء ما يسمى بـ "الجهاد الأفغاني"، وبعضها الآخر كان الداعم الرئيسي لحركة "طالبان".

وقد كان الجميع على استعداد لتقديم معلومات المخابرات بما في ذلك بعض الدول التي كان يصعب تصورها في إطار مثل هذه المهام "وبينها سوريا والسودان وليبيا وغيرها".

لكنه إذا كانت معلومات المخابرات هي البند الأول في مهام هذه المجموعة، فإن المهمة الأكثر حساسية هي "إبعاد القضية الفلسطينية وتفاعلاتها عن الحرب في أفغانستان وتطوراتها، وهنا فإن الدول العربية ــ خصوصاً مصر والأردن ــ مطالبة بالعمل على وقف العنف في فلسطين "دون تحديد لمصدر العنف وسببه"! كما أنها مطالبة بالعمل على استئناف المفاوضات بين الإسرائيليين والفلسطينيين "دون أن يكون هناك مشروع معقول يمكن التفاوض عليه"

وهي أيضاً مطالبة بضبط التصعيد الإعلامي وما يثيره من أجواء نفسية معادية لإسرائيل وللولايات المتحدة وللسلام "دون مراعاة لأسباب الاستفزاز الداعية إلى هذا التصعيد".

وأخيراً فإن هذه المجموعة من الدول مطلوب منها أن تقدم خدمات وتسهيلات لصالح العمل العسكري الأمريكي، وقد حاول الكثيرون إخفاء ما سمحوا به أو سكتوا عليه وأغمضوا عيونهم.

لكن الحقائق لا تقبل غطاء الشادور الأسود الذي فرضته طالبان على نساء أفغانستان، وبالتالي فإن الحقائق تفضل السفور، وسفورها يسبب الكثير من أسباب الحرج.

وبرغم ذلك فإن العرب ليست لهم قوائم طلبات "غالية" في مقابل ما يقدمونه متحمسين أو ما يفرض عليهم ويسبب لهم الحرج، والأغلب أن الطلب العربي الأساسي: هو السلامة أو لا.

□ وفي تحالف "المهام" أيضاً فإن هناك دورا للهند، و"مهمة الهند" ثنائية: إزاء الصين من ناحية وإزاء باكستان من ناحية أخرى، فظهور الهند في التحالف من شأنه المساعدة على تثبيت موقف الصين، وعلى الناحية الأخرى فإن مجرد ظل الهند يفرض على النظام في باكستان كبت مشاعره وقمع جماهيره، كما أن شبح الهند قادر على تحديد وضبط حركة الجيش الباكستاني، ومنع وقوع انقلاب مفاجئ في إسلام آباد يؤثر على مسرح العمليات في أفغانستان!

وتنتظر الهند من ظهورها بمهمة في التحالف مكاسب تسعى لها:

ــ المكسب الأول: تحجيم قدرة باكستان العسكرية والنووية بالذات، وكانت باكستان من قبل مستنزفة بأحوالها السياسية والاقتصادية، والآن زاد على هذه الأحوال عبء جديد يضاف إلى أثقال قديمة.

ــ المكسب الثاني: للهند هو أن باكستان المنهكة سوف تكون أبعد عن "كشمير" بمسافة أو مسافتين عما كانت.

ــ المكسب الثالث: أن ضرب "منهج طالبان" ومدارسها سوف يضعف عناصر تنتمي إلى المنهج والمدرسة تطوعت لــ "الجهاد" فوق قمم الهمالايا "منطقة كارجيل" ضد الهند "التي تعبد الأصنام في رأيهم"!

**

وأخيراً في أنواع التحالفات ــ وبعد تحالف الدول ــ وبعد تحالف المهام ــ يجيء "تحالف التوقيت"، وهو تحالف لحظة معينة حتى وإن طالت عليها الأسابيع والشهور، وضمن هذا التحالف في التوقيت فقد لا يكون مطلوباً من الأطراف ــ أحياناً ــ ما هو أكثر من مجرد تحييد نفسها، أي اتخاذ موقف الانتظار وترك الأمور تجري في مساراتها.

وربما أن "إيران" هي أهم الأطراف في هذا التحالف السلبي في أدائه والإيجابي في تأثيره، ذلك أن إيران حتى بالسكوت عنصر ضاغط إلى أبعد الحدود على حركة طالبان بحكم حدود مشتركة تملك فيها إيران بالتداخل السكاني وبوحدة المذهب الشيعي نفاذاً عميقاً في منطقة وسط أفغانستان.

والشاهد أنه إذا كان يمكن تقسيم أفغانستان إلى ثلاث مناطق إثنية، فإن المنطقة الشمالية أزبكية طاجكية، والمنطقة الوسطى فارسية شيعية، والمنطقة الجنوبية باشتونية ممتدة إلى عمق باكستان.

....
....
[وأتذكر أن صديقاً عزيزاً بادرني عندما قابلني في لندن قبل سنوات بقوله:
"لماذا لا تذهب لكي ترى طالبان، إنك رأيت وكتبت عن قيام الثورة الإسلامية "الشيعية"، والآن واجبك أن ترى وتكتب عن الثورة الإسلامية السنية في أفغانستان "يقصد حركة طالبان"!".
ولم أتحمس، وكان يكفيني أن أسمع بما جرى للتعليم وقد تحول كله إلى كتاتيب للحفظ والترديد ــ والرجال وقد فرض عليهم طول اللحي مع العمائم والجلابيب ــ والنساء وقد دخلن سجن الشادور الأسود ــ والفنون وقد صودرت كلها كلمة ورسماً وصوتاً وصورة ــ والأطفال وقد حُرِّم عليهم حتى اللعب بطائرات الورق، كأنه يراد إقعاد أحلامهم على الأرض لا تفارقها.
مع ملاحظة أن أعداء طالبان ليسوا أفضل منها ولا أكثر استنارة ولا أوسع عقلاً!. والحقيقة أن انتقال أفغانستان من حكم طالبان إلى حكم التحالف الشمالي هو رحلة من كابوس إلى كابوس!]
....
....

**

على أن الطرف الأهم في تحالف التوقيت هو أوربا ــ ألمانيا وفرنسا وإيطاليا أساساً ــ ثم بعيداً عن أوربا: كندا واستراليا.
والشاهد أن هذه الدول بدرجات متفاوتة هي في الواقع نصف شريك، لكن استدعاء دولة بقضها وقضيضها إلى كل موقف تفريط في القوة لا تدعو إليه ضرورة، وأفضل منه توزيع الأدوار على المواقع المناسبة من مجرى الصراع.
وتقدر الولايات المتحدة وهي تدير عملية التحالف، دولا ــ أو مهام ــ أو توقيتات، أن بعض أصدقائها لهم رؤى ومصالح وحتى ثقافة، يمكن أن تكون مغايرة. وأنه من العقل والعدل معاً أن تترك لكل منهم هامش حركة يشغله كما يختار ثم يقع استدعاء كل منهم لمهام التوقيت حين يكون الدور عليه.
"وذلك هو موضع دول أوربية كبرى مثل فرنسا وألمانيا وإيطاليا".
ويلاحظ أن هذا الهامش من المرونة يتسع ويضيق حسب تطورات الحوادث، ومن الملحوظ أن واشنطن تريده أقرب إلى الضيق منه إلى الإتساع، فهي بالنسبة لأوربا تريد حلفاء ولا تريد شركاء، وهي تعتقد أن فرنسا ــ على وجه التحديد ــ تبحث لنفسها عن ساحة أوسع تتحرك فيها.
وفي لقاء "بوش" و"شيراك" في واشنطن كان الاحتكاك بين دور الحليف ودور الشريك ملحوظاً، وعلى سبيل المثال فإنه حين قال الرئيس "جورج بوش": إن التحالف مع الولايات المتحدة هو البديل الوحيد للتحالف على الإرهاب" ــ لم يستطع "شيراك" أن يمنع نفسه عن الرد بقوله: "نحن نحارب الإرهاب بمقتضى قرار من مجلس الأمن يمثل إرادة مجتمع الدول".

وحين حاول الرئيس "شيراك" أن يلفت نظر الرئيس "بوش" إلى أهمية تحريك قضية السلام في الشرق الأوسط، حتى يرفع العالم العربي والإسلامي تحفظه على الحرب ضد الإرهاب في أفغانستان، كان رد "بوش" بحدة:

"إنه سوف يواصل معركة أفغانستان ضمن حربه على الإرهاب سواء تحركت قضية السلام في الشرق الأوسط أو توقفت"!

وأضاف الرئيس الأمريكي: "إنه إذا تصور بعضهم أنهم يستطيعون المقايضة "واحدة بواحدة" هنا فإن تصورهم سوف يخيب".

وحين ألح "شيراك" ــ تنازل الرئيس الأمريكي خطوة بقوله: "إن أسلافه من رؤساء أمريكا كانوا يتحفظون على قيام أوربا بدور في أزمة الشرق الأوسط، وأما هو فليست لديه الآن تحفظات وهو لا يمانع أن تقوم أوربا ببعض الجهود لــ "تليين" مواقف الأطراف العربية".

....

....

[وفي هذا السياق فإن الرئيس "بوش" رفض أن يتضمن خطابه أمام الجمعية العامة شيئاً عن أزمة الشرق الأوسط فيما خلا عبارة وردت فيها إشارة إلى "دولة فلسطينية" وإزاء رجاء وإلحاح عربي ودولي وعد "بوش" أن وزير خارجيته "كولين باول" سيعرض بالتفصيل أمام الجمعية العامة ما اختصره الرئيس في خطابه"!

ثم قيل بعد أيام أن كولين باول لن يتحدث أمام الجمعية العامة "لأن خطاب الرئيس يكفي" ولذلك فإن حديثه سوف تكون له مناسبة أخرى قريبة. وبعد أيام أعلن أن وزير الخارجية الأمريكي سوف يتحدث باستفاضة عن أزمة الشرق الأوسط وأن حديثه سوف يكون في جامعة "لويفيل" "وهي الجامعة المحلية لولاية "كنتكي" الشهيرة بمزارع الدواجن".

ثم تواردت من واشنطن معلومات "رسمية":

□ إن كولين باول لن يتقدم في خطابه بمقترحات أو صياغات أو أفكار جديدة "لأن تلك مسئولية أطراف النزاع أنفسهم"!

□ إن السيدة "كونداليزا رايس" أبلغت وزير الخارجية أثناء إعداد مشروع خطابه أن "الرئيس" لا يرغب في كتابة عبارات "تثير غضب الإسرائيليين أو تثير شكوكهم".

□ إن على وزير الخارجية "إن يأخذ في علمه" أن الرئيس سوف يبعث بنسخة من خطاب وزير خارجيته إلى رئيس وزراء إسرائيل مسبقاً، ولهذا فإن الأفضل توخي الحذر من البداية.

□ إنه بما أن الحكومة الإسرائيلية سوف تقوم بتسريب خبر اطلاعها مسبقاً على الخطاب فقد يكون ملائماً اطلاع بعض أعضاء وفد التفاوض الفلسطيني على نص خطاب "باول مع إبلاغهم أنها "للإطلاع" فقط!

□ إن نسخة الخطاب التي وصلت إلى رئيس الوزراء الإسرائيلي عادت وعليها ستة تحفظات واقتراحات بتعديلات أخذ بها جميعاً ــ حذفاً وإضافة!

[وعندما ألقى "كولين باول" خطابه في النهاية كان المزعج ـ وبحق! ـ أن عددا نم العواصم الأوروبية تحفظت عليه لكن عدداً من العواصم العربية رحبت به!]

....

....

ولم تكن واشنطن سعيدة بما ترامي إليها عن اجتماع عدد من كبار قادة أوربا "وفيهم شيراك وشرودر وبلير وبرلسكوني"، وقد جلسوا على عشاء في بيت رئيس الوزراء البريطاني، وتحول حديث السهرة بينهم "إلى شيء" من نميمة تهمس بأن الولايات المتحدة تحاول "الهيمنة على الحاضر لكي تتسلط على المستقبل".

لكن النميمة محصورة، لأن أوربا وأمريكا في النهاية مصلحة متقاربة وإلى سنوات طويلة قادمة، ومع ذلك وتحسبا لمستقبل بعيد، فإن الولايات المتحدة تفضل أن تكون مع الدول الأوربية الكبرى ضمن "تحالف توقيت" ــ تلك حدودها الآن!

والغالب أن أهمية التحالف الأوربي سوف تزيد في المراحل القادمة من الصراع، وخصوصاً إذا تقرر توسيع مسرح العمليات في أفغانستان إلى ما وراءه وإلى ما حوله، ثم امتدت ألسنة النار إلى مواقع لها في الأوضاع الراهنة حساسية خاصة مثل العراق، "يتبعه جنوب لبنان، والسودان واليمن، وليبيا والصومال، وربما غيرها".

والمشكلة أن التوجيه الاستراتيجي الموجه في البيت الأبيض إلى القيادة المركزية الأمريكية التي يتولاها الجنرال "تومي فرانكس" وهو القائد المسئول عن العمليات في الشرق الأوسط! وضمنها أفغانستان ـ توجيه مفتوح كأنه تفويض على بياض.

وقد استمعت بنفسي إلى الجنرال "فرانكس" وهو يقول:

"ليس هناك موقع مقصود بذاته، وليس هناك موقع مستبعد من الأصل، لأن التوجيه الرئاسي الصادر إلى بتحديد الهدف الاستراتيجي للعمليات هو بالنص:

"عليك أن تعثر على ـ وتقوم بتدمير ـ قواعد ومواقع وخطوط شبكة الإرهاب العالمي والقوى التي تساعده على أن تكون البداية بـ: "تنظيم القاعدة ونظام طالبان"."

والتوجيه بهذا النص مطلق في الطول والعرض وممتد في الزمن إلى بعيد، ومع الزمن مواقع ونتائج، لها تداعياتها وبعد التداعيات مسئوليات وترتيبات.

**

وفي هذه الأنواع والمستويات من التحالفات "الدول ـ والمهام ـ والتوقيتات"، فإن البيت الأبيض في واشنطن هو مقر القيادة العليا.

ـ هناك أولا يجري "الفرز" لكي يتحدد "من يصلح" ومن "لا يصلح"، ومن "المستعد" ومن "المتردد" ومن "الجاهز" ومن الذي "يستحق التجهيز"؟

ومن هناك يكون القطع النهائي بـ: "من"؟ و"كيف"؟ و"متى"؟

ومن هناك تتقرر مستويات التعامل مع كل طرف طبقاً لما يستحق.

وفي هذا الصدد قام نائب الرئيس "ديك تشيني" بعملية تقييم للأحجام والأوزان، فقال لزائر عربي كبير المقام ما معناه:

"بعض الناس يكبرون في الأزمات وبعضهم يصغرون: الجنرال "برفيز مشرف" "رئيس باكستان" كبر في هذه الأزمة وطالت قامته، كذلك "أجاويد" "رئيس وزراء تركيا" ـ وإلى حد ما فإن "خاتمي" "رئيس الجمهورية الإسلامية في إيران" ـ أصبح أكبر".

الإشارة السادسة

أين العرب؟ وأين إسرائيل؟

لندن:

وهنا سؤالان هما في الحقيقة وجهان لعملة واحدة:

□ السؤال الأول: أين إسرائيل في خريطة هذه التحالفات متعددة الأنواع والمستويات: من "تحالفات الدول" ـ إلى "تحالفات المهام" ـ إلى "تحالفات التوقيت"؟!

□ والسؤال الثاني: لماذا تلوح الآن في العلاقات العربية الأمريكية ـ بغير مقتضى حقيقي أو واضح ـ علامات على سوء فهم تسري فيه "برودة شتاء" قبل أن يجيء موسم الشتاء الطبيعي في الإقليم؟

والإجابة عن السؤال الأول هي أن: إسرائيل حليف مشارك بنصيب في جميع أنواع التحالفات التي توظفها الولايات المتحدة الأمريكية في الأزمة الحالية أي: تحالف الدول ـ وتحالف المهام ـ وتحالف التوقيت.

وقد سمعت ـ وسمع معي الصديق الأخضر الإبراهيمي "وزير خارجية الجزائر الأسبق، ومساعد وممثل السكرتير العام للأمم المتحدة في أزمة أفغانستان حالياً" ـ سمعنا نحن الاثنين معاً في نفس "المقام" في ذات العاصمة الأوربية من يقول:

"لتكن الأمور واضحة:

إسرائيل صديق وحليف، ونحن نسلم أنها حليف متعب ومشاكس ـ لكنها حليف، وهي حليف قادر، يستطيع أن يعتمد على نفسه في تحقيق مطالبه "ومطالب أصدقائه"".

وعلى الناحية الأخرى:

"فإن العرب أصدقاء، لكنهم ليسوا حلفاء ـ ونحن نسلم أنهم صديق طيب ومريح ـ لكنه صديق، لا يستطيع أن يعتمد على نفسه في تحقيق مطالبه "ويطلب من غيره أن يحققها له" "!

....

....

[وبهذه الإجابة الصريحة يظهر وجهاً العملة في السؤالين: وجه عليه نقش يحدد قيمته وقوته ظاهرة وواضحة بحيث لا يقع عليها خلاف ـ والوجه الآخر عليه صورة تذكارية لا تستطيع وحدها أن تشتري شيئاً، ثم إنها مثل كل الصور تحتمل النظر إليها من كل الزوايا، ومن كل زاوية موقع نظر].

....

....

ويستطرد القائل: "لا يعرف العرب أن الولايات المتحدة لها سياسة هي التي ترسمها، وأن لهذه السياسة أولويات لا يحددها الآخرون"!

وسألت القائل ـ ولم يسأله غيري ـ: "إذا كانت الأطراف العربية صديقاً، وصديقاً له قيمته ولو بالرمز بصرف النظر عن أي شيء آخر، فما هو السبب في برودة الشتاء ـ تسابق الفصول ـ في التأثير على أجواء العلاقات بين الولايات المتحدة وأصدقائها العرب". وكان ملخص الرد على هذا السؤال: "في واشنطن وبصفة عامة وفي الظروف العادية قدروا موقف أصدقائهم العرب، لكن طلبات هؤلاء الأصدقاء، زادت على حدها: معظمهم لهم طلب مستمر طول الوقت من الولايات المتحدة بأن تضغط على إسرائيل ولا تفعل شيئاً آخر، وكأن السياسة الأمريكية في المنطقة وظيفة يمكن اختزالها في: "مواصلة الضغط على إسرائيل". "

"وفي الأزمة الراهنة: أضاف الأصدقاء العرب إلى طلباتهم من واشنطن نداءات إضافية: نداء بعدم توسيع نطاق العمليات خارج أفغانستان، ونداء بتقصير مدة الضرب في أفغانستان، وأخيراً نداء بوقف الضرب في شهر رمضان"، "ولعلها رحمة للجميع أن نظام طالبان تبعثر فعلا مع رؤية هلال رمضان!".

أضاف القائل: "وأسوأ من ذلك فإن النداءات العلنية إلى الولايات المتحدة تمثل نصف الحقيقة: فلم يكن كل أصدقائنا العرب يطالبون بقصر نطاق العمليات على أفغانستان، لأن بعضهم كان وما زال يلمح إلى أنها فرصة متاحة لإنهاء ما بقي معلقاً بعد حرب الخليج، محرضاً على "أن نظام صدام حسين أخطر من نظام طالبان"!. ثم إن الذين نادوا بتقصير مدة الضرب، كانت نصيحتهم تكثيف الضرب بحيث تنتهى المهمة بسرعة. وأما عن وقف الضرب في شهر رمضان، فإن واشنطن أبلغت الجميع عندكم "أنهم شنوا حرباً في شهر رمضان، بل وأسموها في أدبياتهم حرب رمضان".

....

....

[ولحسن الحظ فإن التطورات رفعت الحرج عن الكل وأوقفت الإلحاح على وقف الضرب في الشهر الفضيل!]

....

....

ويواصل القائل كلامه:

لقد سمحت واشنطن لبعض الأطراف العربية بأن يعلنوا على الملأ آراء ومواقف مخالفة لما تسمعه منهم في الاجتماعات المغلقة، وكان ذلك عن تقدير لعلاقة هؤلاء الأطراف مع شعوبهم. لكننا الآن في ظرف لا يحتمل هذه الدرجة من المرونة، وهي في رأيهم ميوعة.

وربما تتذكر "أنهم" في إسرائيل يقولون للناس كل شيء وهذا يطمئن، لكنه على الجانب العربي لا يعرف الناس عما يجري إلا أقل القليل".

والخاتمة في قول القائل:

"إنه لا تستطيع أن يكون صادقاً مع الآخرين من لا يستطيع أن يكون صادقاً مع أهله، ولعلم الجميع فإن الحكومة الأمريكية لم تطلب من أي طرف عربي شيئاً إلا واستجاب للطلب بالكامل.

ومع ذلك راح بعض العرب يقولون إنهم "تحفظوا" و"رفضوا" و"منعوا"، وكل ذلك يخصم من أرصدة الصديق العربي، ويخصم من بند مهم فيه، وهو بند الثقة بالنفس والاستناد عند التصرف إلى شرعية معترف بها من الكل، مقبولة في تعبيرها عنهم، بما لا يضطرهم إلى التغطية على "التصرف" بالإخفاء أو بالتمويه!".

والكلمة الأخيرة في القول:

"هناك نقطة لا يعطيها الساسة العرب قدرها من الاهتمام مع أنها ظاهرة أمام كل زائر للبيت الأبيض أو راصد للأجواء فيه، هذه النقطة هي أن "الرئيس" يستعد من الآن لانتخابات المدة الثانية لرئاسته".

والمسألة شديدة التعقيد:

من الأصل كان الرئيس "بوش" ومعه كبار مساعديه ومستشاريه يأملون في تحقيق إنجاز كبير يتأكد لهم به رصيد من الأصوات أعلى، بحيث يوفر للرئاسة الثانية أغلبية واضحة، ولا يكرر ما جرى في انتخابات المدة الأولى، حين تعلق النجاح والفشل بمئات من الأصوات تفرز ويعاد فرزها بالطعون لستة أسابيع كاملة.

**

لكن حوادث ١١ سبتمبر قذفت إلى البيت الأبيض بكارثة يثق الرئيس وكذلك معاونوه أنها سوف تكون المحور الذي تدور عليه معركة سنة ٢٠٠٤ التي تبدأ عمليا سنة ٢٠٠٢ بانتخابات التجديد النصفي للكونجرس وبعدها مباشرة حملة الرئاسة.

و"التقصير" في توقع ما جرى يوم ١١ سبتمبر ــ والفشل الأمني والعسكري في توقيه، سوف يطرح نفسه. والحزب الديمقراطي الآن بالفعل تسبقه المراكز التابعة له يسعى إلى جمع البيانات، ويسجل، ويحلل لمعركة انتخابية سوف تدور على "صياغة جديدة" للسياسة وللدفاع للسنوات المقبلة من هذا القرن.

في مواجهة مثل هذه الأخطار الانتخابية على المدة الرئاسية الثانية للرئيس "بوش" فإن استراتيجيته واضحة الآن:

١ــ الخط الأول فيها هو التغطية على يوم ١١ سبتمبر بانتصارات ضخمة يصعب على المعارضة إنكارها.

٢ــ وذلك يعني أن تكون أفغانستان التي وقعت عليها مسئولية "تنظيم القاعدة" عن ١١ سبتمبر ــ دواءً أو شفاء لما أحست به الولايات المتحدة في ذلك اليوم.

٣ـ وذلك يعني تسوية حساب أفغانستان بما يجعل الميزان متعادلاً: ضربة إزاء ضربة ـ لكن الرئيس "بوش" يتطلع إلى ما هو أكثر ـ يريد ما يكفي من الانتصارات حتى يميل الميزان لصالحه على نحو لا يقبل تشكيكاً أو "إعادة فرز" للأوراق.

٤ـ ومن حسن الحظ أن المواقع التي تركزت عليها حملات الكراهية الأمريكية كلها "مرهقة ومنهكة" ـ ولذلك فإن الانتصار عليها بأقل التكاليف يعطي "بوش" أمام الرأي العام الأمريكي صورة "السوبرمان" القادر على المعجزات وهو ذاهب إليها لا ينتظر أحدا.

وهنا فإن أمام الساسة العرب في علاقتهم مع البيت الأبيض مرحلة صعبة:

لا تحاسب أحداً على ما فعله أو لم يفعل ـ ما قاله أو لم يقله في معركة أفغانستان، ولكن التعامل مع كل طرف سوف يكون على أساس ما فعله أو لم يفعله ـ ما قاله أو لم يقله ـ مما يساعده على زيادة فرص الرئيس الأمريكي في انتخابات المدة الرئاسية الثانية.

وأسرة بوش باختصار لا تريد لابنها أن يدخل التاريخ مثل والده "رئيس ولاية واحدة"، وإنما تريده الأسرة رئيس ولايتين ـ على الأقل مثل "بيل كلينتون"! وهذا هو مأزق أمريكا وأصدقائها العرب (هذا الشتاء) (الملتهب).

**

ومع ذلك فإن مناخ العلاقات العربية الأمريكية ينزل في برودته أحياناً درجة الصقيع.

....

....

[وقد حدث مع السيد ياسر عرفات أنه كان مطروحاً من عدة شهور احتمال عقد لقاء بينه وبين الرئيس جورج بوش في البيت الأبيض بمناسبة زيارة "عرفات" للولايات المتحدة لحضور الجمعية العامة للأمم المتحدة، وكان المفروض أن يكون اللقاء تعبيراً عن معنى التزام الرئيس الأمريكي بما أعلن عنه من اهتمام بالصراع العربي ـ الإسرائيلي، حتى وصل "كما قال" إلى التفكير في تقديم مشروع تسوية أمريكي ـ كان ينوي إعلانه ـ قبل ١١ سبتمبر.

لكن الرئيس الأمريكي في لحظة صقيع سياسي، رأى إلغاء اجتماعه في البيت الأبيض مع رئيس السلطة الوطنية، وحين بدا أن بعض الدول العربية محرجة ـ من إلغاء اجتماع البيت الأبيض المقترح بين بوش وعرفات، وأنها كانت تتمناه ولو كمجاملة تشيع بعض الدفء في الأجواء ـ أشار المندوب الأمريكي الدائم إلى أنه يمكن للرئيس بوش أن يلتقي بالرئيس عرفات لقاء "مصادفات" في ممرات الأمم المتحدة حين دخول وخروج الرئيس الأمريكي ووقوفه لبضع دقائق مع عدد من رؤساء الوفود.

و"لقاءات المصادفات" أسلوب يمارس بالتمهيد والتوافق، والغرض منه أن يكون حلاً وسطاً بين لقاء "بالشكل" وبين اجتماع "للموضوع".

وكان أن أحد رؤساء الوفود العربية أراد أن يتأكد أن "لقاء المصادفات" ـ بين بوش وعرفات ـ له مناسبة على خريطة زيارة الرئيس الأمريكي للأمم المتحدة، حتى لا يحدث خطأ يمكن حسبانه إهانة مقصودة، لكن الوفد الأمريكي رفض أن يعطي التأكيد المطلوب، وكان رد رئيسه: "إن التحديد بالتأكيد على خريطة تواجد الرئيس بوش في مبنى الأمم المتحدة يرقى إلى مرتبة تحديد موعد، وهذا غير مطروح، ولذلك فإن المصادفات يستحسن تركها للمصادفات"].

....

....

الإشارة السابعة:

ظلام فوق ظلام في أفغانستان

لندن:

إن ما سموه بـ: "الحرب في أفغانستان" قارب نهايته، لكن البركان سوف يواصل الفوران، وصحيح أن طالبان تبعثرت، لكن طالبان لا تزال حية، ولا تزال طرفاً في الاقتتال الأهلي والتناحر الطائفي والقبلي، الذي نزل ظلاماً فوق ظلام على أفغانستان، على أن مشكلة طالبان في كل أحوالها أنها طرف لا يمكن رؤية حساباته، لأن كل حساب لا بد له من قواعد يقاس عليها في زمنه. وقد عاشت طالبان حتى الآن خارج الزمن وليس مؤكداً إذا كانت الكارثة التي حلت بها سوف تعلمها حسابه، وإذا حدث فأمام طالبان أربعة احتمالات:

□ احتمال أن يرى أصحابها أن فرصتهم ضاعت، ومن ثم فإنه الوقوع في الأسر أو الانعطاف إلى النسيان.

□ أو احتمال مواصلة المقاومة عن طريق حرب عصابات تساعد عليها طبيعة أفغانستان الوعرة، وميزة حرب العصابات أنها تحرر طالبان، من مسئولية "المدن" وهي حصار للحركة وارتهان لمطالب كتل ضخمة من السكان في مدن مثل "مزار شريف" و"كابول" و"جلال آباد" على أن المتفق عليه أن حرب العصابات لا تؤثر إذا لم يكن وراءها حجم واسع من التأييد الشعبي، وفي الغالب فإن ذلك ليس متوفراً لطالبان ولا حتى في مركز قوتها الرئيسي وهو إقليم "قندهار" وسكانه من "البشتون".

□ والاحتمال الثالث أن تعاود طالبان تأهيل نفسها للاشتراك في ائتلاف حزبي أفغاني، والمأزق أن الأطراف المرشحين لهذا التحالف الحزبي، غاصوا جميعاً في مستنقع الوحل والدم ـ بحيث لا يستطيع أحد منهم إنقاذ نفسه أو إنقاذ أفغانستان.

□ والاحتمال الرابع أمام طالبان هو "الكمون" في انتظار أن يتورط غيرهم من أطراف التحالف الشمالي في تدمير بعضهم البعض فيقوم "رباني" "الطاجيكي" بمحاولة تصفية "حكمتيار" "البشتوني"، أو يقوم الجنرال "عبد الرشيد دوستم" "الأوزبكي" بالانقضاض على غيره من أمراء الحزب والعلماء والمشايخ، أو ينجح الملك السابق "ظاهر شاه" في إزاحة الجميع ليجد نفسه أمام أفغانستان لم يعرفها من قبل رغم أنه جلس على عرشها أكثر من أربعين سنة!!

وكانت مرحلة ما بعد طالبان هي سؤالي طوال أربع ساعات متواصلة قضيتها في حوار مع الصديق "الأخضر الإبراهيمي" وهو المكلف ــ باعتباره مساعد الأمين العام للأمم المتحدة والمفوض بقرار من مجلس الأمن ــ بترتيب مستقبل أفغانستان في مرحلة ما بعد طالبان.

كان الأخضر قادماً من باريس ليوم واحد في لندن "قضى صباحه في مقر رئاسة الوزارة البريطانية"، وكان على الطريق إلى نيويورك يقدم أول تقرير إلى السكرتير العام للإمم المتحدة ليعرضه على مجلس الأمن.

**

وتقابلنا في الساعة السابعة بعد الظهر وافترقنا في الحادية عشرة قبل منتصف الليل.

وكان الأخضر ــ وهو رجل بطبيعته متفائل ــ متقلاً طوال ذلك النهار مهموماً يتحسب للعمل الذي ينتظره في أفغانستان في مناخ وخضم أزمة خبرها قبل خمس سنوات حين سقطت "حكومة المجاهدين" في كابول، وزحفت "قوات طالبان" تقيم دولتها ــ إمارة المؤمنين ــ هناك!

وقال الأخضر في سياق كلامنا الطويل، إنه عندما كلّف بالمهمة بادئ الأمر كان تكليفه: "تأمين المعونة الإنسانية للسكان الأفغان ــ ثم محاولة إنشاء ائتلاف داخلي بين القوى والزعماء يحكم أفغانستان ولو لمرحلة انتقالية".

وكان تقديره من أول لحظة أن التكليف شبه مستحيل، فهو ــ في الجانب الإنساني ــ من مهمته يعرف حجم "الشح"، في الإمدادات مقابل "وفرة" في عدد المحتاجين ــ وبينهم ستة ملايين لاجئ ــ ومع أنه شديد الثقة في فريقه الذي يعمل معه في هذا المجال على الأرض فعلاً، فإن الأمر يحتاج إلى تخصيص مائتي باخرة، ومائة طائرة، وخمسة آلاف شاحنة تعمل كلها ليل نهار حتى يمكن تجنب "حالة مجاعة" حقيقية وليست مجازية.

وهو يدرك مقدماً إن مجتمع الدول غير مستعد لمثل ذلك الجهد الكثيف مع وجود احتياجات إنسانية كبيرة للمعونة في مناطق أخرى من العالم غير أفغانستان.

وعلى الجانب السياسي من هذه المهمة فهم يعرف زعماء أفغانستان، ويدرك عمق ما بينهم من أحقاد وثارات، لكنه يصلى عسى أن يكون سنوات طالبان قد علمتهم شيئاً.

وبرغم أثقال هذين التكليفين الإنساني والسياسي، فإنه "الأخضر" وجد أن هناك مهمة أخرى مطلوبة منه وهي: "العمل على بناء نوع من نظام الدولة في أفغانستان".

وهنا يقول الأخضر: "وجدت أن ما هو مطلوب مني ليس "شبه مستحيل" وإنما هو "المعجزة وزيادة".

والمعجزة أمامها فرصة ــ فقط ــ إذا أمكن التزام بعض المبادئ:

أولها: إن أي حل للأزمة لا بد أن يكون أفغانياً، حتى يكتب له الاستمرار بعد توقف النيران.

وثانيها: تقدير أن الدمار الذي حل بأفغانستان دمار ليس له شبيه نعرفه في التاريخ الحديث، فالبلد من الأصل فقير ومعزول، والحرب الأهلية ربع قرن دون توقف لم تترك له شيئاً يبنى عليه.

وثالثها: إن مشكلة حفظ الأمن حتى يمكن البدء في أي بناء مشكلة مخيفة، لأن البلد ألف نار السلاح في يده ــ وتعود سيل الدم أمام عينيه؟

ورابعها: إن إقامة نظام دولة أو شبه نظام ليس مسألة كتابة تقارير، وإنما مسألة إرادة أفغانية تعمل بتجرد! وإرادة دولية تساعد بسخاء.

وخامسها: تعاون صادق من دول الجوار الأفغاني وأولها باكستان وإيران.

ويستطرد الأخضر:

"اتفقنا السكرتير العام للأمم المتحدة وأنا على أن أهم ضمانة للنجاح ــ إذا كانت هناك فرصة ــ أن يظل دور الإمم المتحدة في أفغانستان مدعوماً بتأييد القوى العظمى وخصوصاً الولايات المتحدة ــ ودون تردد أو فتور".

وهو يتذكر أنه في الأزمة الأفغانية الماضية قبل خمس سنوات وحين تعثّرت الأزمة على الأرض ــ تفرقت القوى العظمى واختفت سريعاً وراء الأفق الأفغاني.

وهذه المرة لا يجب أن يتكرر ما جرى قبلها.

هناك أيضا أننا نريد أن نضع مسافة بين

دور الأمم المتحدة في أفغانستان وبين الأدوار السياسية للقوى العظمى وحتى لغيرها!

سألت الأخضر: هل ذلك ممكن؟

وجاء رده: "لا بدن أن يكون ممكناً، والحقيقة أنني قبل أيام كنت في البيت الأبيض مع أحد المستشارين الكبار فيه ودخل علينا نائب الرئيس "ديك تشيني" وجلس معناه لنصف ساعة، وطرحت أمامه مخاوفي، وقد أبدى تفهماً لضرورة أن يكون عمل الأمم المتحدة في أفغانستان متجاوزاً للمطالب السريعة والمناورات السياسية "للدول"."

....

....

وقاربت الساعة منتصف الليل وخرجنا من حيث كنا في حديثنا الطويل إلى رصيف شارع "ابيوري"، ووقفنا وكل منا ينتظر سيارته تحمله إلى حيث يقيم. وكان مطار لندن حفيا بزوارها حتى في هذه الساعة من الليل، وفجأة سألني الأخضر بلهجته الجزائرية: "جول لي ياخوي"؟ ورددت نفس كلماته باللهجة المصرية بصفة الجواب: "قل لي يا أخي" ــ واستكمل الأخضر سؤاله:

"ماذا فعلنا بالأمة العربية، وقضاياها، وحاضرها ومستقبلها؟!".

وقلت وكانت سياراتنا قد وصلت إلى حافة رصيف شارع "ابيوري":

"هل تريد السهر هذه الليلة حتى الفجر؟!".

**

وأجدني استغرقت كل المساحة المخصصة لهذا الحديث، وتعطلت أمام الإشارات، لم أصل بعدها إلى الموضوع الذي قصدته من البداية، وهو القول المأثور عن الرئيس "دوايت أيزنهاور" والذي لخص فيه تجربة حياته بقوله "إن السياسات الطيبة لا تضمن النجاح أكيدا، ولكن السياسات السيئة تضمن الفشل محققاً"!

وذلك يعني أن للحديث بقية.

دفاتر أزمة!

ما الذي فعلناه بأمتنا العربية، وما الذي فعلناه بأنفسنا، وقضايانا، والمستقبل؟. أسئلة تذكر بها مناسبات:

○ المناسبة الأولى: إننا في نهاية عام أخذ وقته وانقضى، وفي بداية عام جديد تهل اليوم مطالعه، وقد تعود الناس في مثل هذه المناسبات أن يقوموا بعمليات جرد يفحصون فيها دفاترهم، ويراجعون بنودها، ثم يتفكرون فيما كان ويكون!

○ والمناسبة الثانية: إن الأمة وبشكل واضح تعيش حالة أزمة، والأزمات في التجربة الإنسانية الواعية أشد ما يدعو الناس إلى الفحص والمراجعة، لأن أحوال اليسر ـ تزين لهم بحقائق الأشياء أن يتساهلوا ويتفاءلوا، لكنه في أوقات العسر ـ فإن حقائق الأشياء تضغط عليهم بالتنبيه والتحذير قبل أن تتراكم الخسارة على الخسارة ويحل الإفلاس!

○ والمناسبة الثالثة: إن الأمة العربية "بكافة شعوبها" تحس أن ما جرى ويجري في أفغانستان وفلسطين اليوم، والمنطقة الواقعة بين أفغانستان وفلسطين غداً ـ يطوقها بحال حصار أو شبه حصار: عسكري وسياسي ـ اقتصادي وفكري. وكانت الأمة تستشعر قبل أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ "صواعق النار فوق نيويورك وواشنطن" أنها تنزلق إلى منحدر، وفي أعقاب ما تداعى بعد ١١ سبتمبر، اكتشفت الأمة أنها بالفعل على حافة الهاوية، وحولها ركام من بقايا حقائق وأكاذيب ـ وبقايا أحلام وأوهام ليس بينها "وتد" متين يمكنها التعلق به أو الاستناد إليه لتفادي السقوط ـ إلا إن تقع معجزة!

**

والمعجزة في حياة الإنسان فرد تحتاج إلى الخوارق أو شيء منها، لكنها في حياة الشعوب والأمم لا تحتاج لغير شرط واحد هو "يقظة الإرادة"، خصوصاً في حالة أمة وراءها تجربة في صنع التاريخ ـ ومعها ثقافة استوعبت عصوراً من شراكة الحضارة الإنسانية بدرجة زادت أحياناً وقلت ـ وفوقهما نضج صنعته قرون طويلة من صراعات القوة انتصرت فيها مرات أو عجزت.

والشاهد أن "يقظة الإرادة" تستدعي ثقافة التجربة، ثم إن ثقافة التجربة بدورها تستدعي حكمة العقل، برغم ما تدفع إليه مشاعر الخوف بهاجس أن مزالق الخطر لا تستطيع انتظار الحكمة، بل تستعجل سرعة الحركة. بينما الحقيقة أن الحركة بغير الحكمة رد فعل لا إرادي، عصبي أقرب إلى التشنج منه إلى القصد والفعل الواعي، كما أن الخوف وما يتعجل به آخر المطلوب عند الحافة وعندما تكون فرص النجاة معلقة بالمعجزة!

**

ولعل مساءلة النفس بقصد المراجعة والفحص هي النقلة الأولية والضرورية لناحية السلامة، ثم الابتعاد ـ ولو زحفا ـ عن الحافة نقلة بعد نقلة حتى يمكن الوقوف على القدمين بحثاً عن مخرج من حالة الحصار والعودة من جديد إلى مجرى الحياة.

والأمم والشعوب القادرة حين تسائل نفسها لا تفعل ذلك بقصد التفجع والندم فهي تعي أن حركة التاريخ زمان غير قابل للاستعادة حتى يمكن تعديل مساره بأثر رجعي، وهي تعي أيضاً أن حركة التاريخ تتأثر بعناصر لا إرادية، مجملها أن الأمم والشعوب لا تختار مواقعها من الأرض ومواردها، ولا تتحكم في جوارها ومحيطها كي تختار الأكثر أمناً فيه والأوفر غنىً.

وبالتحديد فإن حركة التاريخ احتكاك مطالب ومصالح، وضغوط مشاق ومصاعب، وتدافع أشواق تطلب الرقى والرفعة، وهي توفر لنفسها حق الاختيار إذا أحسنت التقدير، وتلك بالضبط مهمة السياسة، باعتبارها علم وفن استخدام إرادة المجتمعات في إدارة إمكانيات مواقعها ومواردها وطاقاتها الإنسانية لتحقيق طموحاتها حاضرا ومستقبلا.

وهنا يجيء ما يستحق الوقوف أمامه في ذلك القول المأثور عن الرئيس الأمريكي الأسبق "دوايت أيزنهاور" والذي جمع فيه خلاصة خبرته قائلاً: "إن السياسات الطيبة ليست ضمانا أكيداً للنجاح، لكن السياسات السيئة ضمان محقق للفشل".

**

وأمام مناسبات تدعو الأمة إلى التذكر والتفكر، وتفرض إعادة فحص الدفاتر ومراجعة الحسابات ــ فإن مساءلة النفس واردة وربما واجبة:

"كيف وصلنا إلى هنا؟ ــ عن أي طريق؟ ــ ولأي سبب؟

وتلك الأسئلة في الظروف الراهنة، مشروعة، عاجلة وملحة، وهي تستحق إجابات تقريرية وليست إنشائية، محددة وليست مطلقة، وذلك هو الأسلوب المعتمد في تقدير حسابات الربح والخسارة والمضاهاة حسب تعبير إيزنهاور "بين سياسات طيبة قد لا تضمن النجاح أكيداً، وسياسات سيئة تضمن الفشل محققا"!

والظاهر للجميع أن "الفشل المحقق" هو النتيجة التي ضمنتها السياسة العربية لنفسها بشهادة ما جرى ويجري اليوم في أفغانستان ــ وفلسطين ــ وغدا حولهما وفي المنطقة الواقعة بينهما من قلب آسيا حتى شرق البحر الأبيض ــ ومعنى ذلك بمرجعية إيزنهاور: أن السياسات العربية كانت سيئة ــ مع اعتبار أن أيزنهاور مرجعية يمكن الاعتماد عليها لأن تجربته كانت بشهادة النتائج ناجحة وكذلك شاملة:

ــ فـ: أيزنهاور هو الضابط العسكري رفيع الرتبة الذي قاد جيوش الحلفاء لانتصار الحرب العالمية الثانية، وتلك أقرب وأشهر قصة صراع في الذاكرة البشرية.

ــ وهو أيضا رئيس الدولة الذي أدار سياسة أمريكا ثماني سنوات من بداية إلى نهاية خمسينات القرن العشرين، وهي فترة شهدت مجيء الولايات المتحدة من وراء المحيط مصممة على أن يكون لها الدور المحوري في ترتيب شئون عالم ما بعد الحرب والنصر.

ــ ثم إن تلك السنوات الثماني كانت مرحلة الحرب الباردة مع الاتحاد السوفيتي، وفيها جرى اعتماد "السياسة" أو السياسات التي ثبت أنها حققت لأمريكا انتصارها في الحرب الباردة بدليل سقوط الاتحاد السوفيتي وانفراط عقده.

**

ومن المدهش أنه حين يسأل العرب أنفسهم: كيف وصلنا إلى هنا؟ وعن أي طريق؟ ولأي سبب؟ فإن المفاجأة التي تنتظرهم هي لحظة يكتشفون أن بداية الخلل في دفاترهم وأخطائهم في الرصد والقيد وقعت بإملاء أيزنهاور أو سياساته على الأقل.

والشاهد هو الملفات والأوراق!

الدفتر الأول

الورقة الأولى:

الحرب بإطلاق الأفكار وليس بإطلاق النار:

عندما استسلمت جيوش ألمانيا النازية بلا قيد ولا شرط أمام الحلفاء المنتصرين في الحرب العالمية الثانية بقيادة "دوايت أيزنهاور"، كانت القوى المسيطرة في أمريكا تفكر فعلاً في الحرب القادمة مع الاتحاد السوفيتي، رغم أنه كان شريكها الشرقي في النصر. وكان محسوساً وملموساً حتى من قبل نشوب الحرب، أن العداء لهتلر هو الذي جمع الأمريكيين على الروس مضطرين أكثر من مختارين، فالرأي الأصلي عندهم – قبل هتلر وبعده – أن المستقبل صراع إلى النهاية بين الرأسمالية وبين الشيوعية، أي بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي.

وفي اللحظة التي انتهت فيها الحرب العالمية الثانية – فإن القوى المتنفذة في أمريكا وقع اختيارها على قائد النصر ضد "هتلر" ليكون بنفسه قائد النصر ضد "ستالين"!

وكان ظاهراً – بدون إعادة السؤال مرتين – أن الحرب الجديدة ليست تكراراً للحرب السابقة، لأن السلاح الذي فصل في الحرب السابقة وهو القنبلة الذرية، لم يعد قابلاً للاستعمال في الحرب اللاحقة، لأن الولايات المتحدة خسرت احتكارها للأسلحة الذرية عندما لحقها الاتحاد السوفيتي إلى سرها بفاصل سنتين اثنتين.

وكان تأهيل "أيزنهاور" لقيادة الحرب الجديدة إعداداً يستحق النظر:

- ومثلاً فإنه عندما نشر "أيزنهاور" مذكراته عن سنوات الحرب – كان العنوان الذي "اختاروه" لها هو: "حملة صليبية في أوربا" "A Crusade in Europe"، وكان المقصود بالعنوان أنها "حرب ضد الجهالة" "النازية في تلك الحالة"، لكن الإشارة إلى الحروب الصليبية – الدينية – الإيمانية – كانت لها مقاصد ومعبأة بحمولات.
- وفي مثال آخر – فإنه عندما بدأ إعداد "أيزنهاور" للحياة المدنية، كان المنصب الذي "اختير" له هو منصب رئيس جامعة "كولومبيا" وهكذا فإن الرجل الذي خلع سترته العسكرية بنهاية خدمته قائداً عاماً لقوات الحلفاء، اكتسى بالرداء الجامعي يبدل هندامه ويرتبه للخدمة في البيت الأبيض رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية "وزعيماً للعالم الحر كما كان يقال تلك الأيام".

○ وحدث فيما بعد وعندما أراد "أيزنهاور" أن يكتب مذكراته عن سنوات رئاسته للولايات المتحدة، أن العنوان الذي "اختاروه" لها كان "شن السلام" ""Waging Peace، والعادة أن الحرب هي التي "تشن"، لكن السلام لا "يشن" وإنما يصنع بأسلوب آخر غير شن الحملات "صليبية أو غير صليبية".

لكن تلك كلها كانت إشارات محسوبة متعمدة، تومئ إلى تغيير رئيسي في الأسلحة تنتقل به الحرب من "إطلاق النار" إلى "إطلاق الأفكار".

**

كان التقدير أن الصراع بين الرأسمالية والشيوعية حتمي، وأن هذا الصراع لا يمكن أن يدور بين الاثنين مباشرة في ميادين قتال، لأنه في تلك الميادين معرض أي لحظة للتصاعد إلى المستوى النووي، وذلك فوق احتمال أي طرف حتى إذا سبق عدوه في حجم ما تكدس داخل ترساناته من رءوس نووية، ذلك أن إمكانية الردع المتبادل بحاملات الرءوس النووية من الصواريخ المتحركة "في أعماق البحر أو أعالي الفضاء" ــ تلغى الفاصل بين النصر والهزيمة بدمار مروع للطرفين، المهزوم فيه قتيل بالكامل والمنتصر ثلاثة أرباع قتيل، وكلا الاحتمالين مستحيل!

وإذن فهو صراع إلى النهاية بغير سلاح ــ وبغير نار!

ثم إنه صراع مزدوج:

○ طرفان كل منهما نظرية في ترتيب وإدارة شئون المجتمعات: مواقعها، مواردها، ومستقبلها. ومكمن الخطر أن كل نظرية تطلب التفوق تجسد نفسها ذات الوقت في قوة عظمى، ومؤدى ذلك أن النظريتين في النهاية قوتان نوويتان على طريق صدام.

وفي غيبة القدرة على فرض التفوق بالنار، فإن كل نظرية ليست لديها وسيلة غير أن تعرض ما لديها على الدنيا وعلى الناس باعتباره طريق الخلاص.

ومعنى ذلك أنها صور في الأحلام لها القدرة على صنع مثال في الواقع ــ يجذب قلوب وعقول آخرين بعضهم ينتمي إلى العالم المتقدم "وهم يريدون إعادة ترميم حياتهم بعد إعصار الحرب"، وبعضهم الآخر ينتمي إلى العالم المتخلف الذي أيقظه إعصار الحرب، "وقد هرولوا إلى الساحة باحثين عن حلم وعن مثال".

ومعنى ذلك ــ أيضاً ــ أن الصراع في شكله الجديد صراع نظريات "أفكار" لها القدرة على التحقيق "تجربة حية".

○ يصاحب ذلك إدراك عملي بأن احتكاك النظرية الرأسمالية والشيوعية ــ و"المثال" المجتمعي المتجسد للاثنتين في دولة، لن يكون بينهما مباشرة وإنما "يجوز" أن يكون عند غيرهما وعلى أرضه.

يلي ذلك أنه إذا وصل الاحتكاك إلى الدرجة التي يتطاير فيها شرر وينشب حريق، فإن النار يجب أن تظل بعيدة عن الترسانات النووية ــ أي هناك على أرض الآخرين!

وهكذا فهي بالدرجة الأولى حرب في قلوب وعقول هؤلاء الآخرين ــ ثم إنها في الدرجة الثانية وإذا حكمت الظروف ــ حريق على أرض هؤلاء الآخرين.

وكذلك انطلقت النظريتان، القوتان ــ إلى سباق يقطع الأنفاس وكانت تلك هي الحرب الباردة!، وقد توافقت بدايتها مع رئاسة "أيزنهاور" للولايات المتحدة الأمريكية، وكانت إدارته هي التي وضعت استراتيجياتها وخططها وسياساتها.

الورقة الثانية:

حول البحر الأبيض ...شرقاً وغربا:

وكانت الساحة الرئيسية على خريطة الحرب الباردة تدور حول البؤرة التي دار حولها التاريخ الإنسان المكتوب، وهي البحر الأبيض وما حوله في كل الاتجاهات: شمالاً وشرقاً وجنوباً.

ــ إلى الشمال: هناك أوربا الغربية وقد خرجت بلدانها بلا استثناء منهكة من الحرب "فرنسا وإيطاليا مثلاً"، أو مدمرة "ألمانيا وحتى بريطانيا".

ــ إلى الشرق: هناك الخلجان والوديان والصحارى الواقعة من البحر وحتى أقاصي الهند، وهي ما يطلق عليه وصف الشرق الأدنى أحيانا والشرق الأوسط أحياناً أخرى.

ــ إلى الجنوب: هناك الشواطئ الخضراء وبحار الرمال والغابات حتى قلب أفريقيا.

وهنا موقع العالم العربي في الوسط تماماً من هذه الرقعة الواسعة. وخارجها كانت بقية العالم بعيدة خصوصاً أن بعض الأقاليم تبدت مصائرها مقررة أو مؤجلة أو معزولة: أمريكا اللاتينية مقررة كمنطقة نفوذ للولايات المتحدة، والصين مؤجلة لأنها ــ الآن ــ فتحت أبوابها للشيوعية، وبلد مثل أستراليا بعيد بالمكان ــ وحتى بالزمان!

وكذلك تركز صراع الحرب الباردة حول البحر الأبيض: شماله "في أوربا"، وشرقه "العالم العربي وغلافه الإسلامي: بالذات تركيا وإيران وباكستان".

وباختصار فقد كانت للحرب الباردة ضفتان: ضفة غرب أوربية ــ وضفة شرق اوسطية، وكل منهما تحتاج إلى استراتيجية خاصة بها وإلى خطط وسياسات تصلح لها وحدها.

وبان للناظرين أن كل ضفة رسمت خريطتها بنفسها ــ أي بأحوالها وظروفها:

"بالنسبة للضفة الشمالية ــ الغرب أوربية ــ فإن بلدانها جميعا كانت دولاً متقدمة استنزفتها الحرب، والظاهر أن هذا الاستنزاف هو الذي يكشفها لغواية العقيدة الشيوعية ومثالها السوفيتي ــ مع ملاحظة أن هذه البلدان والدول وصلت بالتقدم الذي أحرزته قبل الحرب إلى درجة عالية من الديمقراطية سمحت ــ ضمن ما سمحت ــ بوجود أحزاب شيوعية، ومع الأوضاع المستجدة بعد الحرب فإن هذه الأحزاب يمكن تشجيعها وتوجيهها بحيث تتحول إلى قواعد موالية لموسكو داخل أوطانها، وإذا كان يراد حماية هذه الأوطان من غواية العقيدة الشيوعية ومثالها السوفيتي ــ إذن فإن الحل هو مساعدة هذه البلدان والدول بما يمكنها من العودة إلى سابق أحوالها المتقدمة ويضخ الحيوية في عروقها، ويحصنها بالرخاء ضد العثرات والمزالق، وذلك ما فعلته الولايات المتحدة الأمريكية

بمساعدتها السخية التي أتاحت للغرب الأوربي أن يعاود الوقوف على قدميه قادراً على مواصلة التقدم، متمسكاً بالتعددية الديمقراطية، وقد عرفها من قبل الحرب العالمية.

○ وأما بالنسبة للضفة الجنوبية ــ الشرق أوسطية ــ فإن واقع الحال كان مختلفاً، ذلك أن معظم بلدانها ودولها فاتتها عصور التنوير، والنهضة، ومنظومة القيم التي أتت معها، كما فاتتها عصور الانطلاق التجاري والصناعي والمالي واتساع الثروة التي راكمتها، وبالتالي فهذه البلدان والدول أمامها على طريق التقدم عقبات وعوائق يصعب اجتيازها ببرامج للمساعدات الاقتصادية مهما كانت سخية، ومع التخلف والضعف الذاتي زائداً عليها جاذبية صور التقدم التي تراها هذه البلدان والدول الشرق أوسطية متحققة أمامها في عوالم قريبة منها "على الضفة الأخرى شمال البحر الأبيض" ــ فإن هذه البلدان والدول ــ جنوب البحر ــ سوف تجد نفسها ممزقة بين واقعها وطموحها، وذلك يجعلها مكشوفة، فإذا أريد تحصينها ضد الغواية، إذن فهو الدين يعوض عن الدنيا، ويعد بجنة في الحياة الأخرى تشتريها هذه الحياة الأولى. والأرضية اللازمة لهذه المقايضة جاهزة لأن مادية الشيوعية بالقطع متصادمة مع روحانية الدين.

وكذلك رسمت الخرائط وكذلك تحددت وسائل الحرب الباردة وتحددت أسلحتها على ضفتي البحر الأبيض: شمالاً وجنوباً:

○ الضفة الغرب أوربية ــ فإن الوسيلة الرئيسية فيها "مشروع مارشال" يعطي للمتقدمين سابقاً فرصة استعادة التقدم ومعه الديمقراطية، والسلاح الحامي لاستئناف التقدم هو منظمة حلف الأطلنطي. والضفة الشرق أوسطية ــ فإن الوسيلة الرئيسية فيها هي الدين وأفضله ــ من وجهة نظر أمريكية ــ ماركز على استعادة القديم بدعوى الرجوع إلى الإصول ، والسلاح الضامن للإصول ــ في هذه الحالة ــ عمل من وراء ستار، لأن الولايات المتحدة لا تستطيع على المكشوف أن تقف وتدعو من شرفات المآذن أو أبراج الكنائس إلى التمسك بأهداب الدين والعزوف عن مطالب الدنيا رجاءً في نعيم الآخرة.

الورقة الثالثة:

خطف الأديان سبق خطف الطائرات!

عندما انتخب "دوايت أيزنهاور" رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية في شهر نوفمبر سنة ١٩٥٢ ــ ودخل البيت الأبيض أواخر يناير ١٩٥٣ ــ اختار معه رجلين لأعلى المناصب في إدارته، وتصادف أنهما شقيقان لأب قضى عمره وعمله قسيساً داعياً إلى ملكوت السماء!

○ الشقيق الأول: "جون فوستر دالاس" في موقع وزير الخارجية، وكان المبشر الأعلى صوتاً بأن "الدين" هو السلاح الأكثر فاعلية ونفاذا في العالم الثالث، لأنه الهوية التقليدية لشعوب وأمم ما زالت مع وعيها العذري الفطري، والدين بالنسبة لها عقد سياسي واجتماعي وحيد تقيم به جسراً بين الآخرة والأولى!

○ والشقيق الثاني: "الآن دالاس" في موقع مدير وكالة المخابرات المركزية التي أوكلت إليها مهمة إدارة الحرب الجديدة "الباردة" وسلاحها "إطلاق الأفكار وليس إطلاق النار"، وبما أن الاستراتيجية الأمريكية في العالم الثالث اعتمدت على سلاح الاعتقاد ضد تهديد الإلحاد، فإن وكالة المخابرات الأمريكية تجاسرت على اتخاذ شعارات الإسلام ــ وهي العقيدة الأكثر انتشارا في المنطقة ــ لتكون وسيلتها وذخيرة سلاحها.

**

وفي الشهر الأول من رئاسة "أيزنهاور"، كانت الخطوط الرئيسية لسياسة إدارته قد تم تحديدها، بل وتسميتها بوصف معركة القرن "نصف القرن في الحقيقة لأن القرن العشرين كان قد بلغ منتصف عمره!". وميدان المعركة هو الشرق الأوسط بالتحديد، والسبب حسب شرح الرئيس "أيزنهاور" في وثيقة توجيه استراتيجي بتوقيعه: "إن منطقة الشرق الأوسط هي المنطقة الوحيدة في العالم التي تعيش حالة انكشاف كامل أمام الاتحاد السوفيتي عسكرياً وسياسياً".

ــ عسكرياً: لأن حلف الأطلنطي يغطي أوربا الغربية، كما أن حلف جنوب شرق آسيا يدور على جوار الصين، لكن المنطقة بين الحلفين هي الثغرة المفتوحة والقلقة. والإمبراطورية البريطانية تزعم أنها قادرة على ملء الفراغ في هذه المنطقة، بينما هي عاجزة وحدها، ثم إنه عندما اقتنعت بريطانيا بأن الأمن في المستقبل ترتيبات جماعية وليس تفرداً إمبراطوريا ــ فإن الحكومة البريطانية أصرت أن تكون هي التي تعرض الترتيبات الجماعية للأمن الإقليمي في الشرق الأوسط، لكن دول هذه المنطقة تشككت على الفور في العرض البريطاني واعتبرته محاولة للتغطية على الوجود الإمبراطوري الذي طال على أراضيها، والآن يراد منحه رخصة متجددة للاستمرار بتمويه شكل حلف جماعي ،وكذلك كان الراي في واشنطن أنه إذا كانت بريطانيا في موضع الشك، فإن الولايات المتحدة تستطيع أن تطل على المنطقة بشيرا بوعد جديد ليس له ماض إمبراطوري "في الشرق الأوسط على الأقل"، وإذن فإنه يتعين على الولايات المتحدة أن تأخذ الأمور في يدها وتبادر هي وتعرض!

ــ وسياسيا: فإن شعوب منطقة الشرق الأوسط راودها حلم أن تستقل وتنهض بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، لكن هذه الشعوب فقيرة مستضعفة، فإذا كان على الولايات المتحدة أن تملأ الفراغ العسكري في المنطقة، فإن الفراغ السياسي يصبح مسئوليتها كذلك، ومن أجل ملء الفراغ السياسي في المنطقة فإن الولايات المتحدة عليها:

١ــ أن تساير القوى الجديدة في المنطقة بأن تدغدغ أحلامها بأسلوب وطريقة الحياة الأمريكية وبريقها، وتحاول مساعدتها ــ إلى حد يعطيها الفرصة للضغط عليها عن اللزوم ــ وتقديرها أن طموح هذه القوى الجديدة لا يستند إلى بنية أساسية حديثة: زراعية أو صناعية أو علمية قادرة ــ أو تراث تحرري له في الأرض جذور ــ بحيث تنطلق لتحقيق مشروعها بالطريق الديمقراطي، ومؤدى ذلك أن القوى الجديدة في الشرق الأوسط سوف تواجه ــ في الغالب ــ عقبات كبيرة تعطل أحلامها وتصيب شعوبها بالإحباط نتيجة التناقض بين "الوعد" والتأخر في "الوفاء بالوعد"!

٢ــ إن الولايات المتحدة عليها في الوقت نفسه أن تحتفظ بعلاقاتها وتدعمها مع القوى التقليدية في الشرق الأوسط؛ لأن هذه القوى هي الأقرب إلى أرض الواقع الراهن، يساعدها أن مسئوليتها فيه مأمونة، فهي ليست مطالبة بغير "المحافظة على الموروث"، وذلك على عكس التزام قوى التجديد "بالتغيير" ــ ولكل تغيير مخاطره.

يتصل بذلك وتلك حقيقة لا يصح أن تنسى ــ إن القوى التقليدية في الشرق الأوسط هي بذاتها السلطة الحاكمة في مناطق البترول، في شبه الجزيرة العربية "على الأقل إلى عقود قادمة"، ومعنى ذلك أن السياسة الأمريكية عليها حفظ ميزان شديد الحساسية بين القوى الفاعلة في الشرق الأوسط: تقليدية سابقة أو تجديدية لاحقة.

٣ــ ولأن حفظ هذا الميزان مسألة معقدة فإن مرونة السياسة الأمريكية أمامها امتحان صعب: كيف يمكن لها مسايرة قوى التجديد بحيث لا تتحول إلى تهديد تجمح به التطلعات إلى بعيد داخل المنطقة ــ أو خارجها؟

وفي المقابل كيف يمكن مساندة قوى التقليد بحيث تستطيع المحافظة على سلطتها إلى أطول زمان ممكن، لأن هذه القوى ــ فضلاً عن سلطتها في مناطق النفط ــ تستطيع تثبيت قوى التجديد في مكانها، وتعطلها إذا "شردت" بما يؤثر على استقرار وأمن المنطقة "من وجهة نظر أمريكية"؟

٤ــ وبما أن هذا الشد والجذب بالدرجة الأولى صراع أفكار في عقول الناس وقلوبهم، وبما أن ممارسته لا يمكن إدارتها بأي وسيلة من وسائل الإجبار ــ فإن وكالة المخابرات المركزية مكلفة بإدارة معركة القرن في الشرق الأوسط، ولها كل الصلاحيات في مسايرة قوى التجديد وحماية قوى التقليد، ولها في ذلك مساندة العنف إذا دعت الضرورة "مع ملاحظة أن عنف أجهزة المخابرات لا يكون في العادة حرباً مسلحة وإنما يكون انقلاباً من الداخل".

٥ــ ولكي يمكن إدارة معركة القرن بأمان فإن الضرورات تستوجب فك أجهزة التفجير في "بؤر التوتر" المشحونة بالخطر في المنطقة، وأولها الصراع العربي الإسرائيلي. فهذا الصراع هو "جهاز الاشتعال" الجاهز الذي يستطيع الاتحاد السوفيتي أن يلعب به، ثم إن هذا الصراع هو كذلك مخزن الوقود الذي يمكن أن تستولي عليه قوى التجديد "لتسخين" جماهيرها وتعبئة هذه الجماهير.

أي أن حل الصراع العربي ــ الإسرائيلي يصبح المهمة الأولى التي يجب أن تضطلع بها وكالة المخابرات المركزية" تساعدها وزارة الخارجية ووزارة الدفاع، كل في دورها وبإمكانياتها.

....

....

[وبالفعل فإن وثائق تلك المحاولات لحل الصراع العربي ــ الإسرائيلي تتكدس تلالا من الملفات السرية تحت عناوين مختلفة فيها: "العملية أو ميجا" "ترتب لسلام عربي ــ إسرائيلي عام" وفيها "العملية ألفا" "ترتب لصلح مصري ــ إسرائيلي منفرد.]

....

....

٦ــ وبينما هي تؤدي ذلك كله فإن الولايات المتحدة لا بد لها أن تتحمل بالتزام قطعي تجاه الدولة اليهودية في إسرائيل، فهذه الدولة كانت "تعهدا" بريطانيا تحول إلى "مشروع أمريكي، ومع ذلك التحول أصبحت إسرائيل هي

الدولة الأقرب في الإقليم إلى النموذج الأمريكي بجانب أن تقدمها ـ وضمنه قوتها العسكرية "على ذلك الموقع من شرق البحر الأبيض" ـ يجعل منها قاعدة ملجأ أخير Last Resort إذا تعقدت الأمور في الإقليم لسبب أو آخر بما يؤثر في مصالح وأمن الولايات المتحدة.

**

وفي أوائل عهد "أيزنهاور" ما بين انتخابه في نوفمبر ١٩٥٢ ودخوله إلى البيت الأبيض أواخر يناير ١٩٥٣ واعتماده لسياساته في الشرق الأوسط، شاءت الظروف أن أكون في الولايات المتحدة؛ لتغطية الحملة الإنتخابية "لأيزنهاور" "ضد منافسه "أدلاي ستيفنسون" "، ثم لمتابعة توجهات الإدارة الأمريكية الجديدة بعد ظهور نتائج الانتخابات.

وقد أشرت مرات من قبل إلى هذه الزيارة وإلى أطراف من وقائعها، وأهمها لقاء في وزارة الدفاع "البنتاجون" مع الجنرال "ألفريد أولمستيد" المشرف على برامج المساعدات العسكرية الأمريكية. ولأن سياق هذا الحديث يستقيم أكثر باستعادة وقائع هذه المقابلة وما جرى فيها، فإني أعود إلى روايتها "معتذراً عن التكرار":

....

....

[طرحت على الجنرال "أولمستيد" حاجة مصر إلى أسلحة أمريكية، وأشرت إلى أن نائب وزير الدفاع الأمريكي السابق "ويليام فوستر" وعد بذلك أثناء لقاء أجراه في شهر سبتمبر الماضي مع عدد من أعضاء مجلس قيادة الثورة في مصر بينهم اللواء "محمد نجيب" و"جمال عبد الناصر" وآخرون غيرهما. وقلت: "إنه بناء على هذا الوعد يزور واشنطن الآن وفد عسكري برئاسة قائد الجناح "علي صبري"، وقد أتى هذا الوفد ليتفاوض عملياً فيما وعد به مساعد وزير الدفاع الأمريكي قبل شهور. لكن هذا الوفد حتى الآن كما ذكر لي رئيسه " "علي صبري"" لا يفعل شيئاً إلا القيام برحلات منظمة إلى بعض القواعد العسكرية الأمريكية بمقولة "مشاهدة السلاح الأمريكي والتعرف إليه عن قرب"، والوفد الآن يطلب خطوة عملية على أساس ما جاء إلى هنا من أجله".

واستمع الجنرال "أولمستيد" إليّ بصبر ثم سألني بما ملخصه:

ـ "لماذا تريدون سلاحاً قبل أن تقرروا من هو العدو؟ أنتم حتى الآن اعتبرتم اسرائيل عدوكم، كان ذلك قبل التغيير الثوري في مصر "٢٣ يوليو ١٩٥٢"، ونحن حتى الآن لم نعرف من الجنرال "نجيب" ولا من الكولونيل "ناصر" إذا كان رأيهما في العداء لإسرائيل هو ما كان أيام "فاروق"، أو أن الدراسة العسكرية لكلا الرجلين وخبرتهما منذ ١٩٤٨، إلى جانب آمالهما للشعب المصري قد علمتهما أن الخطر على المنطقة ليس من إسرائيل وإنما الخطر من الاتحاد السوفيتي ومن الشيوعية.

أنتم كلكم في المنطقة دول إسلامية، والإسلام دين سماوي يتصادم مع الإلحاد الماركسي، أليس كذلك؟!"

قالها الجنرال ثم وقف من مقعده واستدار يلمس زراً كهربائياً انفتح به ستار كبير كان يبدو للناظر وكأنه جزء طبيعي من جدار المكتب، وبفتح الستار بانت خريطة بعرضه لمنطقة الشرق الأوسط وجوارها غرباً وشرقاً، وكان

جوار المنطقة على الناحيتين مغطى ببقع من الأعلام والدبابيس الملونة تشير وتلفت، في حين أن وسط الخريطة ظهر سطحاً خالياً إلا من الألوان الأصلية للخريطة.

ومد الجنرال "أولمستيد" يده فتناول مؤشراً وجهه نحو غرب القارة الأوربية وقال:

"هنا حلف الأطلنطي يصد الاتحاد السوفيتي ويحصره في الشرق".

ثم وجه المؤشر إلى ناحية رسم القارة الأسيوية وقال: "وهنا حلف جنوب شرق آسيا يصد الاتحاد السوفيتي والصين".

ثم عاد الجنرال بالمؤشر إلى وسط الخريطة ـ الشرق الأوسط ـ وواصل "عرضه": "هذه المنطقة بين القارات فراغ برغم أنها الأهم، وهي كما ترى خالية من أعلام أو دبابيس، ترمز إلى وجود قواعد عسكرية ومطارات وموانئ ومراكز للقيادة ونطاقات للدفاع ...أي أنه لا شيء في الشرق الأوسط حتى الآن إلا الفراغ.

وعاد الجنرال "أولمستيد" إلى مقعده وركز نظره عليَّ قائلاً ببطء بقصد إعطاء الفرصة لسامعه يتدبر ما سمع:

"نحن نعرف أنك صديق للكولونيل ناصر وهو الرجل القوي في النظام المصري الجديد، وإذا كنت تريد أن تخدم بلدك وتساعد صديقك فقل له أن يتذكر دروسه في الاستراتيجية، وأن يعرف أن أمن بلاده ليس معلّقاً بصفقة سلاح معنا، وإنما معلق بانضمام مصر إلى حلف عسكري يملأ فراغ المنطقة ويبنى حائطاً دفاعياً ضد الاتحاد السوفيتي كما حدث في أوربا الغربية وكما حدث في جنوب شرق آسيا".

وكنت أسمع الجنرال "أولمستيد" باهتمام واستطرد هو:

"الحلف المرغوب فيه والمطلوب عندكم جاهز وأساسه طبيعي متسق مع طبيعة الإقليم، الإقليم كله إسلامي، ولذلك فإن ما يطرح نفسه للدفاع عنه لا يمكن إلا أن يكون حلفاً إسلاميا".

وكنت ما زلت أسمع واستطرد الجنرال "أولمستيد":

"تصور لو أن حلفاً إسلامياً قام على أساس ثلاث ركائز: مصر وهي أعرق بلد إسلامي بالتجربة التاريخية ـ وتركيا وهي أقوى بلد إسلامي بجيش حسن التدريب والتسليح ـ وباكستان وهي أكبر البلاد الإسلامية من ناحية التعداد.

هذا الحلف يستطيع أن يجذب إليه بقية شعوب ودول المنطقة ـ من أفغانستان حتى المغرب. والدول الإسلامية تستطيع إقامة هذا الحلف في أربع وعشرين ساعة؛ لأن هناك كثيرون جاهزون للمساعدة لأن أمن المنطقة يهمهم، "مثلنا نحن والبريطانيين وربما قوى أوروبية أخرى"!

وبدا لي أن الجنرال أولمستيد لم يفرق بين أهتمامي بسماع ما يقول وبين اقتناعي به، فقد زاد في شرحه وفاض وصل إلى صميم الموضوع وقلبه قائلا:

"هذا الحلف لن يكون حلفا عسكريا فقط، ولن يكون مجرد تجمع دفاعي، وإنما سيكون تنظيماً له قوة جذب فكري غالب من الناحية الاستراتيجية العالمية؛ تذكر ـ تذكروا جميعا ـ أن هذا الحلف سوف يكون بمثابة "مغناطيس

جبار" يشد إليه كتلاً من المسلمين داخل الاتحاد السوفيتي وداخل الصين. لاحظ أن الجمهوريات الجنوبية في الاتحاد السوفيتي مسلمة: كازاخستان ــ طاجيكستان ــ تركستان ــ تركمانستان ــ آذربيجان ــ القوفاز بأسـرة تقريبـاً ــ كلهم يعتنقون الإسلام. وإذا كان تعداد الاتحاد السوفيتي ١٥٠ مليوناً "في ذلك الوقت" فمعنى ذلك أن داخـل الدولـة السوفيتية ما لا يقل عن ستين مليون مسلم. والصين نفس الشيء ــ لأننا نعرف الإسلام قوي في غـرب الصـين، تقديرنا أن هناك ثمانين مليون مسلم على الأقل في غرب الصين.

ــ هل تستطيع تقدير تأثير "مغناطيس إسلامي جبار" على جنوب الاتحاد السوفيتي وعلى غرب الصين؟

وختم الجنرال "أولمستيد":

في هذا الإطار مستقبلكم ومن داخله تحصلون على السلاح والمساعدات الاقتصادية، ويصعب عليّ تصـور أننـا نعطيكم سلاحاً دون أن تعرفوا ونعرف نحن أيضاً من هو العدو الذي تستعدون له.

تأكدوا أن إسرائيل ليست عدواً "طبيعياً" لكم في إطار إسلامي، وإنما هي عدو "مصطنع"، والحقيقـة أن التنـاقض بينكم وبينها يظهر عندما تضعون عملكم في إطار قومي ــ لكنه في إطار إسلامي يزول التنـاقض لأن إسـرائيل قريب لكم وابن عم "فأنتم جميعاً أبناء إبراهيم"!]

**

في نفس الزيارة إلى أمريكا قابلت لأول مرة وزير الخارجية الأمريكية العتيد "جون فوستر دالاس" وكان "دالاس" الذي يتأهب لزيارة الشرق الأوسط ــ حريصا علي أن يسمع عن أحوال المنطقة ما يستطيع سماعه قبـل أن يـرى بعينيه على الأرض. لكن اللقاء مع "دالاس" جاء مختصراً لم يزد على عشرين دقيقة بسبب ضيق وقتـه، علـى أن معظم هذه الدقائق العشرين أكدت اهتمام الإدارة الجديدة بالحالة الإسلامية للمنطقة، باعتبارها المحدد الرئيسي "فـي تقديرهم" لهويتها ولمستقبلها.

وحاولت أن أشرح لوزير الخارجية الجديد، أن هوية المنطقة عربية باللغة الواحدة والتاريخ المشترك على الأقـل ــ وأن المحتوى الحضاري للهوية القومية "إسلامي" بلا جدال، وهو في معظمه إسهام ثقافات عاشت قبل الإسلام ثم آمنت به وصبت فيه ثقافاتها مثلما فعلت مصر والشام "حافة الدولة البيزنطية" وفارس وتركيا وحتى أوربا المسـلمة في الأندلس ــ لكن وزير الخارجية الجديد لم يكن هاجزاً للكلام عن مكونات الحضارة وإنما كان يفكر فـي شـيء آخر وقد أفلت منه أثناء الحديث قوله "إن المنطقة عندكم تعوم على بحرين: بحر من البترول وبحر من الدين"!

ولم يكن على بالي وقتها أنها معركة حول "الافكار " وأن للإسلام فيها دورا مرسوما، وأن شعارات هـذا الـدين على وشك أن تصبح رهينة في يد "آلان دالاس" شقيق "جون فوستر دالاس" في معركة القـرن التـي بـدأت، وأن خطف العقائد في الخمسينيات سوف يسبق خطف الطائرات في السبعينات!

....

....

[وفيما بعد علمت "ومن مساعد وزير الخارجية والسفير الأمريكي بالقاهرة "هنري بايرود"" ــ أن إدارة أيزنهاور تأثرت في سياستها إزاء العالم العربي بدراسة قام بها فريق من أساتذة جامعتي "برينستون" و"شيكاغو" وعلى رأسهم الدكتور "بولك" ــ أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة شيكاغو ــ وقد ذهبت هذه الدراسة إلى أن الدولة الوطنية في العالم العربي ظاهرة حديثة وهشة، وأن المنطقة عاشت إلى مطالع القرن العشرين تحت سلطة خلافات إسلامية انتهت "بالعثمانيين" الذين حكموا من "استنبول" إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى].

[وأضافت الدراسة أنه حتى في قرون الحكم المملوكي الطويلة فإن أمراء المماليك غطوا فجوة الشرعية في دولهم بخلفاء من بقايا العباسيين حمل كل واحد منهم لقب "خليفة المسلمين"، ومع ذلك ظل ألعوبة في يد "الأمير المملوك".

أضافت الدراسة أيضاً أن مشايخ الدين ــ بمن فيهم علماء الأزهر ــ قاموا باستمرار بدور الوسيط بين الأمير "المملوك" وبين رعاياه المسلمين. وعن طريق هؤلاء المشايخ كانت الرعية ترفع للمملوك مظالمها، وإلى هؤلاء المشايخ كان المملوك وأعوانه يعطون التوجيهات ضماناً للسمع والطاعة.]

....

....

**

والدول العظمى لا تغير استراتيجياتها بسهولة ؛ لأن هذه "الاستراتيجيات" لا تصنع بالإلهام أو النزوة، ولا تتقرر بقيام حكم أو سقوط حكم، ولا يؤثر فيها أن يذهب رئيس ويجيء رئيس، فالاستراتيجيات إملاء جغرافيا وتاريخ، وقد تتغير السياسات المعبرة عنهما لتتلاءم مع متغيرات الظروف، لكن الاستراتيجية تعلم دارسيها أن الأهداف يمكن الاقتراب منها عن طريقين: اقتراب مباشر أو اقتراب غير مباشر، مع بقاء الهدف في الحالتين ظاهرا أمام عيون طالبيه حتى وإن أخذتهم "التضاريس" إلى الطرق الدائرية!

والذي حدث في المنطقة بعد ذلك معروف ومشهور:

ــ كانت مصر تدعو إلى العمل القومي وجاءت إليه بقوى التجديد، وفي المقابل أنشأت الولايات المتحدة حلف بغداد وجمعت فيه قوى التقليد العربية مضافا إليها القوى الإسلامية الموالية لها في المنطقة: باكستان وإيران وتركيا.

ــ وعندما سقط حلف بغداد بثورة العراق سنة ١٩٥٨، كان دالاس هو صاحب نظرية الحلف المركزي كي يضم دول النطاق الشمالي للعالم العربي وهي: باكستان وإيران وتركيا، وكلها إسلامية. على أنه من "معجزات تلك الفترة أن الحلف المركزي ما لبث أن سقط بدوره، وذلك عندما قام انقلاب في تركيا أطاح بعدنان مندريس "داعية حلف بغداد والحلف المركزي بعده" ــ وأكثر من ذلك فإن هذه الانقلاب حاكم مندريس وحكم عليه بالإعدام ونفذ حكمه!

ــ وكان أن السياسة الأمريكية توجهت في أعقاب ذلك ومباشرة إلى إنشاء "حلف إسلامي" صريح نقل مركزه إلى الجنوب والشرق خطوة أو خطوات، فبعد أن كان حلف بغداد يجمع في عضويته كلا من: العراق وباكستان تركيا وإيران، جاء الحلف المركزي ليجمع من عضويته: باكستان وإيران وتركيا "أي بدون العراق" وعندما تحول الحلف

المركزي إلى الحلف الإسلامي أوائل الستينات، فقد جمع في عضويته كلا من: باكستان وإيران "أي بـدون تركيـا التي عدلت مسارها والتفتت إلى أوربا ولو بالانتساب" ـ وأخيرا وفي نهاية المطاف أمكن تشجيع المملكة العربيـة السعودية ـ بعد حرب سنة ١٩٦٧ وضربتها القوية ضد الحركة القومية العربية ـ على إنشاء "منظمـة المـؤتمر الإسلامي".

الورقة الرابعة:

باكستان: دور خاص في الحرب الباردة!

في ذروة سنوات الحرب الباردة "من ١٩٥٥ إلى ١٩٧٥"، كانت معارك هذه الحرب على أشدها في آسيا وأفريقيا "والعالم العربي جسر واصل بين الاثنين".

وفي حرب قصد بها أن تدور ((بأسلحة الأفكار وليس بأسلحة النار))، فإنه بلدين ـ دولتين بقيت لهما ـ يعد كـل ما جرى لسياسة الأحلاف ـ أهمية خاصة في الحسابات الأمريكية لهذه المنطقة الشاسعة (آسيا وأفريقيـا والجسـر الواصل بينهما).

- البلد الأول هو المملكة العربية السعودية، باعتبارها موطن الإسلام الأصلي "ومع أن الإسلام هاجر شمالا فـي كل اتجاه ليحقق انتشاره ويصنع تاريخه ويقيم حضارته" ـ فإن ذلك البلد "ومهما قيـل عـن الانتشـار والتـاريخ والحضارة" بقي مقر الحرمين الشريفين بما لهما من هيبة وقداسة، لكن وساوس المملكة ظلت تؤرقها لأنـه حينمـا تكون القيمة غنى فإن القيمة ذاتها تصبح مصدر التهديد لأن الطمع حولها يزيد!

يضاف إلى ذلك أن الطبيعة خصت هذا البلد بثروة نفطية هائلة تمكنه من نفوذ سياسي يضيف إلى المكان مكانـة يساعد عليها قيام منظمة المؤتمر الإسلامي.

- وأما البلد الثاني فهو باكستان باعتبارها "دولة الإسلام" في شبه القارة الهندية، وربما في العـالم؛ لأن الإسـلام فيها هوية وطنية إلى جانب كونه عقيدة دينية. وقد نشأت باكستان بالعداء وبالانسلاخ عن الهند في وقت كان للهنـد فيه وضع خاص في حركة التحرر الوطني عبر القارات ـ وبهذه النشأة فإن باكستان شـعرت بوحشـة حاولـت تعويضها بصلات وثيقة مع الولايات المتحدة، وكان من هنا أن باكستان شاركت في كـل مشـروعات الأحـلاف الأمريكية للشرق الأوسط "حلف بغداد والحلف المركزي والحلف الإسلامي" ـ والمشكلة أن هذه الأحلاف جميعـا تعثرت على الطريق وسقطت، وبقيت دولة الإسلام وحيدة تبحث عن صحبة أو تبحث عن غطاء.

كانت باكستان موقعا وضعته الجغرافيا ملاصقا للهند ومجاورا للصين وقريبا مـن الاتحـاد السـوفيتي، وعلـى الخريطة فإن باكستان هي أقرب نقطة من جنوب الاتحاد السوفيتي إلى المياه الدافئة، وذلك حلـم الإمبراطوريـات الروسية من عصر بطرس الأكبر إلى عصر ستالين الرهيب.

بالزيادة على ذلك ومع اشتداد الحرب الباردة، فإن موقع باكستان جعلها بالضبط في منتصف المسافة بين عـالمين كلاهما يفور مثل بركان:

ــ عالم على الشرق منها يحتوي كوريا والهند والصين وفيتنام.

ــ وعالم على الغرب منها يحتوي الدول العربية وإيران، وكانت تلك الدول ــ تلك الأيام ــ وعلى خط ممتد مـن القاهرة إلى طهران تعيش مرحلة من التغييرات العنيفة سياسية واجتماعية، اندلعت فيها ثورات ووقعـت انقلابـات ونشبت صراعات أهمها بالطبع صراع العرب مع إسرائيل.

وفي المسافة بين العالمين ــ على الشرق وعلى الغرب ــ كانت باكستان أرضا واسعة وسماء مفتوحـة تنـادي القواعد العسكرية برية وبحرية وجوية. وبالطبع كانت الولايات المتحدة أول الراغبين.

وكانت باكستان بحكم التاريخ ــ بعد حكم الجغرافيا ــ تكوينا إنسانيا فريدا في تركيبته، ذلك أنه حينما أصر حزب الرابطة الإسلامية ــ بقيادة محمد علي جناح على تقسيم الهند ــ لأن الحياة داخل وطن واحد غدت مسـتحيلة بـين المسلمين والهندوس ــ فإن اللورد "لويس مونتباتن" نائب الملك "الأخير" في الهند قام بتشكيل لجنة عهد إليها برسـم خطوط تقسيم شبه القارة بين دولة هندية ــ هندوكية ــ وبين دولة جديدة "هندية في أعماقها"، إسلامية في تعبـدها وصلاتها ــ وكان المبدأ الذي جرى اعتماده عند رسم الخط الفاصل بين الدولتين، أن المناطق التي تحوي أغلبيـة هندوكية تبقى في الهند ــ وأما المناطق التي تكون أغلبيتها من المسلمين فإنها تتجمع مع بعضـها لتصـبح كيـان باكستان. وكانت عملية التقسيم أشبه ما تكون بسكين يقطع في اللحم الحي، وعلى الأرض فإنه لم يكن في باكسـتان غير ثلاثة أقاليم إلى حد ما هما إقليم "البنجاب" وإقليم "السند" وإقليم "البنغال" "الذي انفصل عن باكستان فيمـا بعـد وأصبح اليوم بنجلاديش"، وأما بقية الدولة فقد كانت قطعة من هنا وقطعة من هناك، وإضافة تلتحق بهذه الناحية أو تلتصق بالناحية الأخرى.

وترتبت على قيام باكستان بهذا الشكل خصائص حتمية:

ــ بما أن باكستان دولة جديدة جرى سلخها عن دولة قائمة ــ إذن فهي في خطر من البلد الأصلي الذي يعتبرها جزءا منه ــ ولذلك يتعين عليها أن تحمي نفسها ضده وتلك مهمتها الأولى.

ــ نتيجة ذلك ان الجيش الباكستاني الذي جاء إلى الدولة الجديدة شتاتاً لا بد من تقويته لأنه ربـاط الوحـدة فـي الداخل وحارس الأمن على الحدود، وبالتالي فهو لم يصبح فقط أهم جهاز في الدولة وإنما أصبح دولة داخل دولة.

ــ إن المخابرات العسكرية في هذا الجيش تحتاج إلى قوة نفاذ لأنها القادرة على استطلاع نوايـا الهنـد، وعلـى كشف عناصر الطابور الخامس ممن طوح بهم قرار التقسيم إلى الوطن الجديد، وبقي معهم انجذابهم سواء بالعادة أو بالحنين ــ أو حتى بالولاء ــ إلى الوطن الأصلي.

ــ وفي الحقيقة فإن الجيش والمخابرات بدورهما المحوري في أمن باكستان الخارجي والداخلي على السواء كانـا طاقة الاندفاع نحو ما شاركت فيه باكستان من أحلاف عسكرية "حلـف بغـداد ــ الحلـف المركـزي ــ الحلـف

الإسلامي". وكانت هذه الأحلاف "مع استحالة الحرب" غارقة إلى الآذان في العمل السري. ومع ضرورات التخفي في حروب العقائد، فقد جرى الخلط بين الدعوة الدينية والتجسس الأمني بما لذلك في معظم الأحيان من نتائج خطرة.

ــ إنه إزاء هوية باكستان الإسلامية فإن تعميق الوطنية يتأكد بتعميق الإيمان الديني، وفي العادة فإنه عندما تتداخل السياسة في الدين، فإن شدة الضغط والرغبة في التوظيف ــ تحول وهج الإيمان إلى نار تعصب. ومع أن الإيمان بالمضمون والجوهر عقل، فإن التعصب درجة من درجات الحمق!

وكان المناخ الذي صنعته هذه الأوضاع وتأثيراتها وتفاعلاتها قد جعل باكستان مسرحاً مثاليا لما تتمناه الولايات المتحدة الأمريكية وتطلبه. "وبينه ما سمعته بنفسي من الجنرال "أولمستيد" في مكتبه وأمام خريطته داخل البنتاجون سنة ١٩٥٣ وضمنه خطة المغناطيس الإسلامي الجبار الذي يجذب إليه كتلا إسلامية تعيش في جنوب الاتحاد السوفيتي ــ وقرب الصين الشعبية".

**

وهكذا أصبحت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية لاعبا رئيسيا في باكستان، وكذلك أصبحت هيئة الاتصال العسكري بين قيادة القوات المسلحة الباكستانية وبين البنتاجون. "وفي عصر رئاسة "أيزنهاور" " عملا مشتركا لقيادة عمليات مقرها مدينة بيشاور" ــ وجرى تقسيم العمل:

○ تولت باكستان مهمة الاتصال بعناصر المقاومة الإسلامية للدولة السوفيتية في الجمهوريات الجنوبية للاتحاد السوفيتي، وكانت بعض هذه العناصر على حق في مقاومتها للدولة السوفيتية التي طبقت سياسة نزعت إلى طمس الأثر الإسلامي في أقاليم ساهمت بنصيب وافر في التراث الحضاري للإسلام.

وكانت المخابرات الباكستانية قادرة على الوصول ــ بالمسالك الجبلية والوسائط القبلية عبر أفغانستان ــ إلى جمهوريات طاجيكستان، وأوزبكستان، وتركمانستان.

وفي هذا الإطار قامت المخابرات الباكستانية ووراءها المخابرات المركزية الأمريكية على تشجيع وإنشاء جماعات تنفذ أشكالا من عمليات المقاومة تنبه ــ على الأقل ــ إلى وجود معارضة إسلامية حية وفاعلة.

ومع أن "المقاومة" الإسلامية جنوب الاتحاد السوفيتي كانت لها حجة مشروعة ــ فإن القوى الوافدة التي جاءت لمساعدتها كانت موضع شبهة؛ لأن دافعها لم يكن حفاظا على الإسلام أو حرصا عليه، وإنما كان خطط حرب خفية تدور في الأفكار ــ ولا بأس فيها من شرر نار طالما كان محصورا وبعيدا عن الكبار ــ ومن المفارقات أن الاتحاد السوفيتي أصبح مكتوباً عليه أن يتألم في صمت، لأنه إذا اشتكى كشف ضعفه حتى إذا نجح في إثبات سوء نية خصمه.

والذي حدث هو أن السلطة السوفيتية راحت تقمع ــ وفي نفس الوقت تداري، وفي مقابل ذلك فإن نشاط المخابرات الباكستانية والأمريكية راح يواصل ضغوطه ويزداد إصرار.

**

وفي هذا الإطار وداخله بدأت طائرات التجسس الأمريكية الجديدة من طراز "يو ٢" ــ التي تحلق على ارتفاع عال لا تطوله الدفاعات السوفيتية ــ تقوم بمهام استطلاع في العمق الشرقي للاتحاد السوفيتي، وتلك هي المناطق التي اختارتها الدولة السوفيتية لمنشآتها العسكرية النووية والفضائية. فقد أراد السوفييت إبعاد هذه المنشآت إلى أقصى ما يمكن عن أوربا الغربية حتى لا يطولها التجسس الأمريكي، والآن ومن "بيشاور" "شمال باكستان" وعبر أفغانستان "وذلك أقصر طريق إلى قلب روسيا" وجدت الولايات المتحدة منفذاً سالكاً مفتوحاً أمامها لتطل وتراقب الموقع الحساسة للقوة السوفيتية.

وقد ظلت مهام الاستطلاع والتجسس من "بيشاور" تواصل عملها بطائرات "يو ٢" حتى ربيع سنة ١٩٦٠، حين تمكن صاروخ روسي من إسقاط إحداها، وتكتم السوفييت على أسر قائد الطائرة وحطامها، حتى فوجئ الرئيس "أيزنهاور" في باريس وأثناء افتتاح مؤتمر قمة للأربعة الكبار في العالم، وبالزعيم السوفيتي "نيكيتا خروشوف" يصرخ في وجهه ويرمي أمامه على المائدة بصورة تبدأ بقائد طائرة التجسس الكولونيل "فرانسيس باور" ملقى على الأرض ثم ممددا على سرير مستشفى ثم جالساً أمام صحفيين عسكريين، ومجموعة كبيرة لصور أخرى التقطتها الآت التصوير الدقيقة لطائرة التجسس وتظهر فيها تفاصيل بعض المنشآت العسكرية مبينة وكاشفة ــ وبعد الصراخ يمضي "خروشوف" ويصف "أيزنهاور" على مسمع من الرئيس الفرنسي "شارل ديجول" ورئيس الوزراء البريطاني "هارولد ماكميلان" بأنه "كذاب ومنافق" وهذه هي الأدلة!

**

في تلك الأوقات كان تدخل الجيش الباكستاني في شئون الحكم طاغياً، وكانت لهذا التدخل ذرائع جاهزة، فهو حارس الدولة الإسلامية وسط المخاطر، وهو الأمين على العقيدة بالمسئولية عن دولتها، وهو الشريك الرئيسي في التحالف الباكستاني الأمريكي، وخصوصا جانبه الأمني!

وأدى ذلك إلى تكرار الانقلابات العسكرية، وفي الحقيقة فإنها لم تكن انقلابات بالمعنى الدقيق للانقلاب، ذلك أن الذي قام بها في جميع الأحوال قيادة الجيش التي وجدت في بعض الظروف أن الساسة المدنيين ليسوا على مستوى الكفاءة المطلوبة للدولة ــ وكذلك قررت أن تتدخل لإزاحة هؤلاء الساسة المدنيين بغرض ضبط الأمور وتقويمها، وذلك تكرر من انقلاب الجنرال "أيوب خان" وحتى انقلاب الجنرال "برفيز مشرف".

ومن اللافت للنظر أن الجيش الباكستاني كان هو ــ أيضا ــ عنصر الوصل الأهم في الصحبة بين الدولتين الحائرتين "إسلاميا": السعودية وباكستان.

○ ومن ذلك أنه حين أحست الأسرة الحاكمة السعودية بالخطر من ضغط الحركة القومية عليها وتأثيرها المحتمل على القوات المسلحة السعودية ــ فإن الملك "فيصل" بمشورة أمريكية، استعان أو استأجر فرقتين من الجيش الباكستاني تتولى مدرعاتهما حفظ الأمن: أمن المملكة وأمن الأسرة.

وحتى هذه اللحظة لا تزال هناك قوات باكستانية تشارك في الأمن السعودي.

○ وفي إطار تلك الصحبة وعندما بدأ الجيش الباكستاني يشعر أن الهند تتقدم نوويا، وأن دولة الإسلام تحتاج قنبلتها الذرية حتى تصمد وتردع – فإن السعودية "وغيرها من الدول الإسلامية" بادرت تساعد، "وربما أنه كانت هناك رغبة أن تكون أول قنبلة ذرية ذات هوية إسلامية – وليس بالتحديد عربية – وكأن الأسلحة لها – في حد ذاتها – معتقدات".

وكذلك فإن الصحبة بين البلدين الحائزين إسلاميا: باكستان والسعودية أصبحت متجاوزة لدعوى العقيدة، وثيقة بمطالب الأمن والدفاع، وكان الصديق الأمريكي للاثنين سباقا باستمرار يمهد ويشجع ويساعد. ويرضى في بعض الأحيان عن الفعل المشترك "كما هو الحال في وجود فرق باكستانية لحماية الداخل السعودي"، ولا يرضى في أحيان أخرى "حين يجد أن المشروع النووي الباكستاني بمساعدات إسلامية بتقدم ويهدد الموازين الحساسة في المحيط الهندي".

الورقة الخامسة:

أفغانستان: سقف العالم

وسط معمعان الحرب الباردة ومع خطط إثارة الفتنة في الجمهوريات الجنوبية الإسلامية – للاتحاد السوفيتي أصبحت أفغانستان على صعوبة أرضها وعزلة شعبها، جسرا مزدحماً بأكبر عملية مخابرات سرية جرى تدبيرها وتنفيذها طوال القرن العشرين.

....

....

[وأتذكر سنة ١٩٦٨ وأثناء زيارة رسمية قام بها جمال عبد الناصر إلى الاتحاد السوفيتي يطلب مزيداً من السلاح؛ لأن الجيش المصري أتم مرحلة الدفاع على جبهته، وبدأ يستعد لعبور قناة السويس تحقيقاً لهدف إزالة آثار العدوان – أن الزعيم السوفيتي "ليونيد بريجنيف" قال لجمال عبد الناصر أثناء جلسة المحادثات الرسمية: إنه يريد أن يذهب معه إلى جناحه في قصر الضيافة؛ لأن لديه موضوعا يرغب في بحثه وهو يحمل في شأنه رجاء من القيادة السوفيتية".

واتضح أن طلب بريجنيف ورجاء القيادة السوفيتية لهما صلة بأفغانستان.

وكان ما قاله "بريجنيف" من واقع ملخص للاجتماع كتبه السيد "علي صبري":

"إن القيادة السوفيتية منزعجة من زيادة النشاط المناوئ للدولة في المناطق الجنوبية من البلاد، وهذه المناطق في غالبيتها إسلامية، والنظام السوفيتي منذ إقامته احترم عقائد وشعائر كل الأديان، ولم يتدخل في حرية أصحابها وحقهم في معتقداتهم، "وأنت يا سيادة الرئيس ذهبت بنفسك في زيارة سابقة إلى طشقند وزرت مساجدها والتقيت بشيوخها وصليت معهم واستمعت إليهم".

والحكومة السوفيتية لديها معلومات موثقة "وهي على استعداد لوضعها تحت تصرف صديقنا الرئيس ناصر"، وكلها تؤكد أن هناك جهداً منظماً تقوم به المخابرات الباكستانية لإثارة تعصب ديني "عدواني" ليس هناك ما يدعوا له. والمخابرات الباكستانية في ذلك مدفوعة بالمخابرات المركزية الأمريكية ونحن لا نعرف ما الذي يدعو باكستان إلى مثل هذه المغامرات، وقد سألنا رئيس باكستان الجنرال "أيوب خان" ما السبب الذي يدعوهم إلى ذلك، وكان رده: "إن ما يجري ليس سياسة الحكومة الباكستانية لكنه يعرف أن هناك عناصر في الجيش الباكستاني غاضبة من المساعدات العسكرية التي يقدمها الاتحاد السوفيتي للهند".

"يستكمل بريجنيف كلامه وفق الملخص الذي كتبه علي صبري".

"إن دوائر عربية معينة بدأت تدخل في جوانب من هذه الأعمال المعادية للسوفييت، وقد لاحظنا أن بعض الجهات السعودية وفرت أموالاً لبناء عشرين مسجداً في كازاخستان، ونحن لا نعترض على أي نوع من علاقات التعاطف بين المسلمين في الاتحاد السوفيتي وأبناء دينهم خارجه، ولكننا نريد أن نستفهم من أصدقائنا العرب عن الهدف الذي يقصدون إليه في تعاملهم مع المسلمين في الدولة السوفيتية. نحن نظن أننا نساعد العرب والمسلمين في معركتهم لتحرير أرضهم من عدوان إسرائيل ـ بتحريض الولايات المتحدة، كما أننا نساعد على التوصل إلى حل عادل لحقوق الشعب الفلسطيني في أرضه وفيها مقدسات إسلامية عزيزة عليهم ـ لكننا في بعض المرات نجد أن فهمنا للأمور يتعثر:

نحن نساعد القضايا العربية بقدر ما نستطيع، لكننا نجد على الجانب العربي بعض المرات تصرفات نستغربها ... أخيرا صادرنا شحنات من كتب وصل عددها إلى مليون، وقال خبراؤنا أن بينها مائة ألف مصحف وبقيتها كتب في الدعوة والتفسير، وقد سمحنا بالمصاحف؛ لأن المصحف كتاب مقدس، ومع أنه باللغة العربية ولن يعرفها أحد في جمهورياتنا الجنوبية سوى حفنة من الناس ـ فقد كان تقديرنا أن الناس يسعدون باقتناء الكتب المقدسة حتى وإن لم يستطيعوا قراءتها ـ أما بقية الكتب فقد تحفظنا عليها في المخازن، وقد رصدنا في أعقاب ذلك ظهور منشورات تحرض الناس على السلطة لأنها تصادر كتباً عن المعتقدات".

وقال الرئيس عبد الناصر "طبقاً لملخص المحضر" "إنه يشعر بأن الأصدقاء السوفييت يبالغون في الحساسية: فتوزيع المصاحف على أوسع نطاق مفيد روحيا لكل الناس، وأما بقية كتب الدعوة والتفسير فإن مصادرتها خطأ لأن ما فيها معروف ومحفوظ، ثم إنه إذا كان الناس لا يقرءون العربية إذن فليست هناك من الأصل مشكلة".

ومع ذلك وعد الرئيس عبد الناصر أن يتصل في هذا الشأن بالملك فيصل، وكذلك برئيس باكستان ورئيس وزراء أفغانستان السردار "داود خان".

"وذلك تم بالفعل وقامت الرئاسة في مصر بإبلاغ القيادة السوفيتية بنتائجه".

**

كانت أفغانستان جسراً غربيا، لكنه جسر مرصوف ومهيأ لكي تمشي عليه الفتن وتتحرك المؤامرات، لأن طبيعته الجبلية، ووديانه شبه المغلقة على نفسها بالقمم العالية، ومناخه القاري القاسي ـ يجعله نموذجياً للمطلوب منه، فهو

معزول وعازل، مطروق وإن كان بصعوبة ــ سالك ولكن بشروط، وأهم هذه الشروط هو التوافق مع نفر من أهل البلد الذين يعرفون المداخل والمسالك، وهم جميعا تركيب إنساني يمتزج فيه الضعف بالقوة، والخيال بالقسوة، والغنى النفسي بالفقر المادي، والكبرياء الفردي بالولاء القلبي، وما يترتب على ذلك كله في التعامل مع القوى داخل البيت وخارجه. وذلك يفتح للتعامل معهم وسائل وأساليب!

وموقع البلد وسط آسيا تماما ــ "في قلبها" ــ كما كان يقول اللورد كيرزون نائب الملك في الهند مع بدايات القرن العشرين، ثم إن الموقع هضبة مرتفعة تطل على شبه القارة الهندية وعلى القوقاز وعلى الصين وعلى إيران، حتى أن "ماركوبولو" الرحالة الإيطالي "الإسطوري" وصف أفغانستان بأنها "سقف العالم".

وأهل البلد أعراق وقبائل بعضها في أفغانستان وبعضها وراء حدودها، حتى تكاد أفغانستان أن تكون ثلاث مناطق عرقية مقسومة بعرض البلد بخطوط شبه فاصلة.

ــ الشمال: من العرقين الطاجيكي والأوزبكي، بعضهم في أفغانستان وبعضهم في جمهوريات الاتحاد السوفيتي الجنوبي "في ذلك الوقت" طاجيكستان وأوزبكستان.

ــ الوسط: ينتمي إنسانياً إلى عناصر "الحرازا" وثم بقايا هجرات مغولية عبرت من الشرق إلى الغرب واستقرت جحافل منها في أفغانستان وفاضت على شرق إيران.

ــ والجنوب: بأكمله من قبائل البشتون وأرض هذه القبائل ولغتها وثقافتها عائلة واحدة مع شمال باكستان.

وفي كل منطقة من هذه المناطق الثلاثة مدينة رئيسية هي الواجهة وفيها المفتاح.

"مزار شريف" مدينة الشمال وهي طاجيكية أوزبكية ــ ومدينة "هيرات" عاصمة الوسط وهي شيعية فارسية، وفي وقت من الأوقات كانت "هيرات" تمثل مجتمعاً يعكس صورة مصغرة للبلاط الشاهنشاهي في طهران ــ بمقدار ما أن "قندهار" عاصمة الجنوب توشك رغم بعد المسافات أن تكون ضاحية من ضواحي "بيشاور" عاصمة إقليم الحدود الشمالية الشرقية في باكستان وهو الإقليم الذي أضفت عليه قصص وأشعار الكاتب البريطاني الشهير "رديارد كيبلنج" لمسة من الغموض المثير، وربما أنه من "بيشاور" استوحى كيبلنج عبارته المأثورة بـ: "إن الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا"!

وقد عاشت أفغانستان تاريخها الحديث وسط صراع الإمبراطوريات التي تسابقت إلى التوسع في آسيا طوال القرن التاسع عشر:

ــ الإمبراطورية البريطانية تحاول تدعيم مواقعها حول درة التاج الغالية في الهند.

ــ وروسيا القيصرية تضغط جنوباً بأمل الوصول إلى المياه الدافئة في المحيط الهندي بعد أن أكملت توسعها شرقاً وأطلت على المحيط الهادئ.

ــ وفرنسا في الهند الصينية تحاول أن تقفز فوق الجبال نحو المواقع الأعلى لتراقب ما تفعله بريطانيا وما تفعله روسيا.

والطبيعة الأفغانية قاسية إلى درجة جعلت اللورد كيرزون نائب الملك في الهند "أوائل القرن العشـرين" يلخـص منطق الإمبراطورية قائلاً: "لا داعي لاحتلال أفغانستان، ألا رخص أن نشتريها"!

وكان شراء أفغانستان ممكنا؛ لأن توجهات الأجناس متضاربة، وولاءات القبائل لمن يقدم السلاح والذهب، وكـان الشعب الأفغاني أول من وصف أحواله بقسوة، ومنها قول ذائع مؤداه: "إن الله حين خلق الطبيعـة والنـاس، ووزع أجناس الأرض على أقاليمها وجد عنده بقايا من كل شيء: بقايا طبيعية وبقايا إنسانية وقد أخذ كل هذه البقايا وطوّح بها وسقطت كلها كومة واحدة على كوكب الأرض في مكان أصبح اسمه أفغانستان"!

....

....

[وأتذكر المرة الوحيدة التي زرت فيها أفغانستان والتقيت بآخر ملوكها "ظاهر شاه" في قصره وسط كابول، وبـدا لي الرجل ــ رغم مظاهر البروتوكول الصارمة في بلاطه ــ بسيطاً وادعا، وعندما قلت له: "إنني مبهور بالأجواء الأسطورية لسوق كابول الذي زرته قبل أن أتوجه إلى القصر للقائه ــ تبسم الملك برقة ورد بما معناه أنه "يخشى أن الجو الأسطوري الذي يراه الزائرون لبلاده يلفتهم عن الحقائق فيها".

وكان الملك "ظاهر شاه" محقاً فيما قاله بأكثر مما تصورت حين سمعت منه.

[وفي تلك الزيارة وبعد أيام من لقاء الملك كانت لدى فرصة أن أطوف وأرى ــ وقد أصابني شعور لم يغب طول الوقت بأن البلد "معتقل" في موقعه ــ معتقل في تاريخه، وقد ظللت معطلا في "كابول" ــ أياماً فوق مـا قـدرت ــ أنتظر الطائرة القادمة من "بيشاور"، فالعاصمة الأفغانية تحيط بها سلسلة جبال شاهقة يسـمونها "تخـت سـليمان"، والطائرة الوحيدة إلى "كابول" ــ تلك الأيام ــ تجيء من "بيشاور" في الضحى وتعود عند الظهر. لكن الطائرة لا بد أن تجد لها فتحة بين الضباب والجبل حتى تنفذ بينهما إلى مطار كابول على هذه الناحية من "تخت سليمان". وكـان أول ما أفعله كل صباح أيام الانتظار أن أقصد إلى ساحة قريبة من الفندق ــ الخان ــ الـذي أقـيم فيـه وأتطلـع ببصري إلى أعلى أقيس المسافة بين "تخت سليمان" وبين قاع السحاب، وأتساءل إذا كانت تسمح للطائرة أن تمر أو تعوقها؟ ــ وتثاقلت ثلاثة أيام والجو مغلق، وفي اليوم الرابع سمعت أزيز محركات الطائرة، وأعددت حقيبة السفر وهرعت بأسرع ما استطعت إلى المطار قبل أن تنزل كتل الضباب مرة أخرى تلف الذرى العالية وترقد فوقها على تخت سليمان!]

....

....

وفي أزمنة مستجدة فإن نشاط المخابرات الباكستانية والمخابرات الأمريكية عبر الجسر الأفغاني إلى الجمهوريات الإسلامية جنوب الاتحاد السوفيتي، ظل يتسع ويتزايد ويخلق مشكلاته وعقده، ويصنع تواترتـه وأزماتـه، حتـى ازدحمت الأجواء وضاقت بها سماء "كابول".

والذي حدث أن السردار "داود خان" وهو ابن عم للملك وصهر له ورئيس لوزرائه راح يحاول إقنـاع الاتحـاد السوفيتي بمساعدة أفغانستان ومساعدة نفسه ذات الوقت عن طريق تقديم أسلحة للجـيش ومسـاعدات أفغانسـتان

ومساعدة نفسه ذات الوقت عن طريق تقديم وساعد، ربما لأنه أراد أن يتوقى من بعيد ويصد التيارات "الإسلامية" التي تهب عبر أفغانستان.

لكن نشاط المخابرات الأمريكية والباكستانية على الجسر ــ وفي طبيعة أفغانستان وأحوالها وأجوائها ــ اخترق كل شيء أمامه، وإذا رئيس الوزراء يطيح بالملك، ثم يعلن أفغانستان جمهورية، وينصب نفسه رئيساً لها ويحاول أن يحكم بيد من حديد تضبط الإسلاميين الأصوليين، وتحجم العلمانيين اليساريين، وكانت مهمة "داود خان" مستعصية بين يمين يهرب إلى الجهل ويسار يندفع إلى المجهول!

وفي ظرف أقل من سنتين كان "داود خان" الواقع بين المطرقة والسندان قد سقط ضحية انقلاب يساري ساندته مجموعة من ضباط الجيش الذين درسوا في الاتحاد السوفيتي!

* *

ولم تكن تلك كما بدا على السطح نكسة للمخابرات الباكستانية والمخابرات المركزية الأمريكية ــ بل على العكس ــ فإنها بدت فرصة ملائمة بل وهدية من السماء إذا أحسن استغلالها؛ لأن النظام اليساري ــ وعناصره من الشيوعيين ــ هدف حي ومستفز يشجع على التصويب نحوه علنا وسرا!

ومع أوائل السبعينات كانت أفغانستان في حالة احتقان:

ــ المجموعة اليسارية الشيوعية تمارس الهواية الدائمة للحركات اليسارية وهي الانقسام والتشرذم والتفتت إلى درجة أن الفصيل الواحد يصبح ألف شظية!

ــ كذلك فإن "محمد تراقي" القائد المختار لرئاسة الانقلاب اليساري الأول ما لبث أن سقط ليحل محله ضابط أقوى منه شكيمة. والداعي أن المقاومة الإسلامية للنظام راحت تقوى وتنظم نفسها في تشكيلات مقاتلة، رفعت صيحة الجهاد، وراحت تطلب المساندة من ناحية الجسر الأخرى. وكانت المخابرات الباكستانية والأمريكية جاهزة تلبى أي طلب وتزيد عليه.

ــ ثم تأزمت الأمور وتعقدت عندما فوجئ الكل بقيام الثورة في إيران وإعلان دولتها الإسلامية في طهران، بعد سقوط "محمد رضا بهلوي" من فوق عرش الطاووس.

ووسط تلك التعقيدات وخشية تأثيرات الثورة الإيرانية على الجنوب الإسلامي في الاتحاد السوفيتي، دفع السوفييت إلى قمة السلطة بضابط من غلاة الشيوعيين هو "بابراك كارميل" الذي لم يكد يدخل القصر الجمهوري، حتى دعا الجيش السوفيتي إلى دخول أفغانستان بحجة أن الخطر داهم، وأن نشاط المخابرات الأمريكية والمخابرات الباكستانية على وشك أن يحدث انقساماً في الجيش الأفغاني يمهد الطريق ويفتحه لعناصر في كابول مستعدة للتفاهم مع الولايات المتحدة.

الورقة السادسة:

موسكو تقع في الفخ الأفغاني!

لم يكن قرار القيادة السوفيتية بدخول الجيش الأحمر إلى أفغانستان سهلا، بل كان اختيارا بالغ التعقيد فرض عليها ما لم تكن مستعدة له أو متفقة عليه. والحقيقة أن قرار التدخل أحدث انقساماً داخل المكتب السياسي للحزب الشيوعي، كما أنه أوقع خلافاً بين المكتب السياسي وبين القيادة العليا للقوات المسلحة السوفيتية. وطبقاً للوثائق "التي فتحت ملفاتها قبل أوانها بأمر من الرئيس الأسبق "بوريس يلتسين" بقصد تحديد المسئوليات في النهاية المؤلمة للنظام الشيوعي" ـ فإن أول إشارة واضحة عن احتمال دخول الجيش السوفيتي إلى أفغانستان وردت في مذكرة من الجنرال "ليونيد شيبارشين" الممثل الرئيسي للمخابرات السوفيتية في كابول والمذكرة "تشير إلى إتصالات سرية يقوم بها الجنرال "حفيظ الله أمين" مع "قيادات التمرد" الإسلامي نهايتها تمكين عملاء المخابرات الأمريكية من مقادير البلاد، وتظهر بعد ذلك في الوثائق السوفيتية رسائل من "بابراك كارميل" تشرح خطورة الأوضاع في كابول، ثم تتحدد الخطوط أكثر في مذكرة مشتركة قدمها إلى المكتب السياسي أربعة من أعضائه هم: "يوري أندربوف" المشرف على الأمن الداخلي، و"أندريه جروميكو" وزير الخارجية، و"ديمتري أوستينوف" نائب رئيس الوزراء ووزير الدفاع، و"بوريس بوناماريوف" مسئول الشئون العقائدية. وفي هذه المذكرة أبدى الساسة الأربعة "أن الموقف في كابول يقتضي دخول قوات من الجيش السوفيتي وإلا فإن أفغانستان سوف يجري تسليمها للولايات المتحدة الأمريكية وعملائها بكل ما يعنيه ذلك من انكشاف يعرض للخطر أمن الجمهوريات السوفيتية الجنوبية "الإسلامية".

وعندما عرضت المذكرة ـ وهي مكتوبة بخط اليد ـ على اجتماع المكتب السياسي يوم ٢٥ ديسمبر ١٩٧٩ ـ اعترض عليها خمسة من أعضائه وهم: "سوسلوف" ـ و"جريشين" ـ و"كيرلينكو" ـ و"بلش" ـ و"تيخونوف". وكان رئيس المكتب السياسي وهو الزعيم السوفيتي "ليونيد بريجنيف" موزعاً بين الفريقين، والداعي إلى حيرته أن ثلاثة من كبار القادة العسكريين الذين حضروا اجتماع المكتب السياسي اعترضوا هم ـ أيضاً ـ على إدخال الجيش السوفيتي أو وحدات منه إلى "ساحة الفوضى الأفغانية"، وكان الثلاثة هم: الماريشال "نيكولاي أوجاركوف" ـ والماريشال "سيرجي أخراموييف" من رئاسة أركان حرب الجيش ـ والجنرال "فالنتين فادينيكوف" وهو المستشار العسكري لرئيس المكتب السياسي "زعيم الاتحاد السوفيتي".

وطالت المناقشات طوال يومي ٢٥ و٢٦ ديسمبر وعند الظهر انضم "بريجنيف" إلى معسكر الداعين للتدخل، وبانضمامه إليهم رجحت كفتهم وصدر القرار، ومع غروب مساء يوم ٢٦ ديسمبر ١٩٧٩ نزلت وحدات من الجيش السوفيتي بالطائرات في مطار "كابول"، كما أن فرقة مدرعة من هذا الجيش بدأت عبور الحدود بسرعة متوجهة إلى العاصمة الأفغانية.

* *

وصباح يوم ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٧٩ نزل الرئيس الأمريكي "جيمي كارتر" إلى مكتبه البيضاوي في الساعة السادسة والنصف كما هي العادة كل يوم ليجد مستشاره لشئون الأمن القومي "زبجنيو برجينسكي" في انتظاره بنفاد صبره، ومع أن ذلك الاجتماع الصباحي موعد مقرر كل يوم بين الرئيس ومستشاره، فإن "كارتر" كان يعرف أن أخبار مثيرة تنتظره. فقد أيقظه (برجينسكي) من النوم من الساعة الثانية صباحا ليخطره بأن (الجيش السوفيتي دخل أفغانستان)، وكذلك كان (كارتر) يتوقع ـ وقد مرت أربع ساعات ونصف على هذا الإخطار المبدئي ـ أن مستشاره للأمن القومي ينتظره في المكتب البيضاوي حاملاً "سيلا من التفاصيل" و"قائمة من الخيارات": للعرض وللقرار.

....

....

[ومن المصادفات أنني سمعت بنفسي بعد عشر سنوات تفاصيل حوار الرئيس الأمريكي مع مستشاره للأمن القومي، وقد سمعتها من الطرف الأقدر على روايتها وهو "زبجنيو برجينسكي" نفسه، ووقتها كنا في أحد صالونات السفارة المصرية في موسكو ليلة ١٨ نوفمبر ١٩٨٩ ـ والسفير في ذلك الوقت هو وزير الخارجية المصري الحالي "أحمد ماهر".

وقتها كانت موسكو "أيام جورباتشوف وفترة الجلوسنوست أو الشفافية" تشهد اجتماعات مصارحة بين الروس والأمريكان، وكانت الاجتماعات تحت قيادة رجلين كلاهما يعرف الخبايا:

"أناتولي دوبرينين" السفير السوفيتي في واشنطن لربع قرن، وهو عضو في المكتب السياسي مع جورباتشوف ـ على الناحية السوفيتية.

وأما على الناحية الأخرى فقد كان "زبجنيو برجينسكي" مستشار "كارتر" للأمن القومي ـ هو الذي يتصدر المجموعة الأمريكية.

وكان "أحمد ماهر" بيقظة دبلوماسي مجرب قد دعا المجموعتين: الروسية والأمريكية إلى العشاء في بيت السفارة المصرية، وكان السفير الأمريكي في موسكو وقتها "ماتلوك" وكنت ـ الضيفين الوحيدين من خارج مجموعتي "المصارحة"!

وعلى مائدة العشاء دار كلام لاحظ فيه "أناتولي دوبرينين" أن الدبلوماسية في الزمن الجديد تقتضي تشاوراً مسبقا بين الأطراف لا تتخفي فيه النوايا وراء العبارات المبهمة، لأننا في عصر لم يعد في مقدور طرف أن يخبئ فيه شيئاً، وأن "الشطارة" الزائدة في السرية كما كان في عهود سابقة لم يعد لهم لزوم؛ لأن تصرفات الأطراف في أي زمة تدل عليها الخيارات المفتوحة أمامهم وضمنها حسابات قوتهم. ثم إن "مناخ السرية قد يوقع الجميع وبينهم أصحابه في خطأ التقدير وكذلك تبدأ ردود أفعال تصعب السيطرة عليها وتؤدى لأوخم العواقب"، وأشار "دوبرينين" على سبيل التدليل إلى قرار دخول الجيش السوفيتي إلى أفغانستان، وكيف أن سرية التصرف ومفاجآته أوقعت

الطرف الأمريكي في خطأ كبير عند تقدير النوايا السوفيتية، بمعنى أن السوفييت اعتبروا دخولهم إلى أفغانستان إجراء دفاعياً محضا، لكن الأمريكان "قدروه" هجوميا وتصرفوا على هذا الأساس".

وبعد أن غادرنا مائدة العشاء وجلسنا لتناول القهوة ومعها أحاديث السهرة، في ركن من الصالون الرئيسي لبيت السفارة، قلت لـ "برجينسكي" ولـ "دوبرينين" معا أن حكاية الدخول العسكري السوفيتي إلى أفغانستان والرد الأمريكي عليه واقعة مهمة في سياق الحرب الباردة تساوي التقصي والتدقيق، ولذلك أستاذنهم في العودة إليها.

والشاهد أنني لم أكن في حاجة إلى أكثر من سؤال واحد وجهته لدوبرينين، ورد عليه بقوله: بقوله: "صحيح ما زال اعتقادي أن أصدقاءنا الأمريكان أخطئوا في تقدير نوايانا: كان إجراؤنا دفاعياً صرفا وكان ذلك ظاهرا أمامهم، لكنهم أخذوه هجوميا وعدوانيا وكذلك فعلوا ما فعلوا"! ثم كان أن "برجنيسكي" تدخل وأفاض في الحديث ولقرابة ربع الساعة راح يتكلم ونحن جميعاً نصغي دون مقاطعة "وحين حاول السفير الأمريكي "ماتلوك" أن يتدخل في الحديث وجدتني دون قصد أشير إليه بيدي راجياً منه أن لا يقطع تدفق الرواية واستجاب الرجل".

قال "برجنيسكي" وبأسلوبه الذي تتدافع فيه العبارات وتتماسك الألفاظ وتجيء مخارج حروفها قائمة محددة موجها كلامه في البداية لدوبرينين:

"كيف كان يمكن لي – أو لغيري – فجر ٢٧ ديسمبر تقدير نواياكم باعتبارها "عملا دفاعياً" – بينما كانت الشواهد أمامنا تقول بعكس ذلك؟

يستطرد برجنيسكي وقد عاودته حرفته القديمة أستاذاً للعلوم السياسية:

○ أولاً: كانت الأجواء في المنطقة شديدة التوتر بقيام الثورة الإسلامية في إيران ونجاحها وسقوط النظام الإيراني بكل مؤسساته: العرش والحكومة والجيش – في يد آية الله الخميني قائد الثورة الإسلامية الذي راح يهاجم أمريكا باعتبارها الشيطان الأكبر، ولم تمض أسابيع حتى أنتج التحريض أثره وإذا السفارة الأمريكية في طهران – تقع تحت الحصار ويتحول كل من فيها رهائن لشباب إسلامي غاضب.

○ وثانيا "موجها كلامه لدوبرينين": إنكم تدخلتم في حرب أهلية أفغانية بين حكومة شيوعية وأغلبية من السكان مسلمة، وقد وجدناكم ذات صباح تقتحمون حدود أفغانستان وإذا القوات السوفيتية طرفاً في هذه الحرب الأهلية – ضد المسلمين!

○ وثالثا: إنني شخصياً وغيري من أعضاء مجلس الأمن القومي الأمريكي "الذي دعوته قبل اجتماعي الصباحي مع الرئيس". قدرنا أنه لا يمكن أن يكون تدخل الجيش السوفيتي نهاية النهاية في أفغانستان، وإنما لا بد أن يكون دخولكم بداية البداية.

يستطرد "برجينسكي":

"وعندما جلسنا أمام الرئيس "كارتر" صباح ٢٧ ديسمبر سألني عن تقديرنا لنواياكم وقلت له:

"سيادة الرئيس نحن أمام جيش سوفيتي يزحف جنوباً في أفغانستان ـ وأفغانستان هي أقرب طريق للسوفييت إلى المحيط والخليج، ونحن لا نستطيع على الإطلاق وبضمير مستريح أن نقطع بأنهم لن يذهبوا إلى أبعد من أفغانستان، وحتى من أفغانستان فإنهم اقتربوا أكثر مما ينبغي من المياه الدافئة للمحيط الهندي ومن منابع النفط في الخليج وذلك يدعونا إلى التصرف وتصرفنا يكون له هدفان:

الهدف الأول: وقف السوفييت لا يتقدمون بعد أفغانستان.

والهدف الثاني: إرغامهم على التراجع والخروج من أفغانستان.

وبصراحة فإنني قلت للرئيس أيضاً:

"سيادة الرئيس إن الروس وقعوا في فخ، وتلك فرصتنا كي نرد لهم جميل فيتنام، ولذلك يتعين علينا أن نعمل على سد الطرق أمامهم بحيث تتحول أفغانستان إلى مصيدة لا يخرجون منها إلا بفضيحة تهز هيبة الدولة السوفيتية وتكسر شوكتها".

الورقة السابعة:

أنجح عملية مخابرات في القرن العشرين:

في الساعة الثانية من صباح يوم ٢٧ ديسمبر ١٩٧٩ انعقد مجلس الأمن القومي بحضور الرئيس "كارتر" لبحث "الدخول العسكري السوفيتي في أفغانستان واستعراض الخيارات المفتوحة أمام الولايات المتحدة للرد عليه".

وكانت جلسة مجلس الأمن في الواقع حوارا نشيطا بين مستشار الرئيس للأمن القومي "زبجنيو برجينسكي" وبين الأميرال "ستانسفيلد تيرنر" مدير وكالة المخابرات المركزية، وطبقاً للوثائق الأمريكية ـ وضمنها مذكرات "كارتر" ووزير الخارجية "سايروس فانس" "ومذكرات برجينسكي نفسه" فإن اجتماع مجلس الأمن القومي استقر على الخطوط التالية:

**

١ـ إن ما عرضه مستشار الأمن القومي وما توافر لدى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ووكالة الأمن القومي ومخابرات وزارة الدفاع تقطع كلها بأن حجم التدخل العسكري السوفيتي في أفغانستان كثيف، وبالتالي فإنه "ضمن الاحتمالات التي لا يمكن استبعادها أن يكون الهدف التالي لهذه القوات عملاً سوفيتياً في اتجاه الخليج حتى بحر العرب والمحيط الهندي، وذلك تهديد للمصالح القومية الأمريكية".

٢ـ إن الولايات المتحدة لا تستطيع أن تتدخل علنا ضد السوفييت في أفغانستان لأنها لا ترتبط مع هذا البلد بأي اتفاقيات دفاع مشترك، ثم إن تدخلها الصريح حتى مع تجاوز الاعتبارات القانونية، يمكن أن يؤدى إلى صدام مباشر مع الاتحاد السوفيتية، ويمكن أن يستفز من ردود الفعل السوفيتي، مما يجعل الخطر على الخليج "حتى بحر العرب والمحيط الهندي" محققا وليس محتملا فقط.

٣ــ إن الولايات المتحدة مدعوة إلى تعزيز وجودها المسلح في الخليج، تحسبا لكل الاحتمالات، ولذلك فإن سفراءها المعتمدين عليهم والآن أن يطلبوا من "الأطراف المحليين" أن يسمحوا بهدوء وبغير صخب إعلامي ــ بتفعيل تفاهمات واتفاقيات سابقة في التعاون العسكري مع الولايات المتحدة.

٤ــ إن الولايات المتحدة عليها ان تشجع عناصر المقاومة في أفغانستان على تكثيف نشاطها بما يمكنها من تعطيل الجيوش السوفيتية، ثم الانتقال من حرب التعطيل إلى حرب التوريط ــ أي حرب استنزاف ترغم السوفييت في النهاية على الانسحاب من أفغانستان عسكريا في ظروف غير ملائمة سياسياً.

٥ــ وبما أن الولايات المتحدة لا تستطيع أن تظهر فاعلاً رئيسياً في النشاط العسكري المعادي للسوفييت في أفغانستان ــ حتى لا يؤدي ذلك إلى صدام مسلح بين القوتين فإن عليها "الولايات المتحدة" أن تجد قيادة بديلة لهذه الحرب الخفية في أفغانستان، ولا بد أن تكون لهذه القيادة أهلية تعطيها نوعاً من مشروعية "التدخل عملياً" ضد السوفييت في أفغانستان.

٦ــ بما أن المقاومة الأفغانية التي أدى نشاطها إلى خلخلة الأوضاع في أفغانستان بما أوصل إلى التدخل السوفيتي مقاومة إسلامية، فإنها لا بد أن تستمر كذلك وتتصاعد باستنفار كافة أصدقائها ومناصريها في العالم الإسلامي والدول الإسلامية، والوصول في ذلك إلى حد تكوين تحالف إسلامي واسع يحمل عبء محاربة ضد السوفييت في أفغانستان.

٧ــ وهذه المقاومة لا بد لها من مصدر سلاح وذخيرة لا ينقطع، وحين سأل أحد الحاضرين عن مصدره كان الرد عليه "من برجينسكي": لا بد أن نحصل عليه من أي مكان، نشتريه، نستأجره، نسرقه إذا أدى الأمر.

٨ــ ومن الأفضل أن يكون السلاح سوفيتي الصنع حتى يصعب اتهام الولايات المتحدة بأنها مصدره، وذلك يعطيها فرصة أن تقول للسوفييت إذا سألوها، إن هذا سلاح سوفيتي تحصل عليه المقاومة الإسلامية من الاتحاد السوفيتي أو قواته في أفغانستان "أي من عندهم"!

٩ــ إن المملكة العربية السعودية قدمت من قبل دعمها إلى العناصر الإسلامية في أفغانستان، وفيما تقول به التقارير، فإن المملكة العربية السعودية التي تشعر الآن بضغط الثورة الإسلامية في إيران عليها، وترى أن سقوط الملكية في إيران نذير شؤم للأسرة الحاكمة ــ على استعداد لأن تتخلى عن حذرها التقليدي وتوظف "موارد المملكة المعنوية والمادية" في "جهاد إسلامي مقدس ضد الإلحاد السوفيتي، وإذا تحمست المملكة للدعم فإن السلاح يمكن ضمانه بالشراء من مصادر عديدة "والمال عصب كل أنواع الحروب بما فيها الجهاد الإسلامي!".

١٠ــ ومن باب الاحتياط لاحتمال أن تتحرج المملكة "بترددها الدائم" في الخروج وحدها إلى هذا الجهاد المقدس، فإنه من الضروري تدعيمها مبكرا بشراكة إسلامية واسعة راسخة وقوية، بحيث يكون من ذلك إغراء لها بدور قيادي على رأس تجمع إسلامي يخوض "الجهاد" دفاعاً عن الدين والشرع.

والسعودية في الواقع جاهزة لهذا الدور إذا وجدت تشجيعاً عليه؛ لأن الثورة الإيرانية حركت قلقاً إسلامياً في المملكة وتظهر في وسط قيادات متشددة من الوهابيين الذين علا صوتهم بالنقد لتصرفات الأسرة الحاكمة في ثروة المملكة، كذلك فإن الثورة الإيرانية كان لها ردود فعل في المناطق الشرقية من المملكة وهي مناطق شيعية المذهب وعلاقتها بالنظام من الأصل متوترة.

....

[ولم أكن أتصور درجة عداء الوهابيين للمذهب الشيعي حتى لقاء مع الملك فيصل في فندق فلسطين بالإسكندرية في شهر يونية ١٩٧١، وخلال حوار طال أكثر من ساعتين سمعت الملك فيصل يمتدح شاه إيران "محمد رضا بهلوي" بحرارة ويستفيض في وصفه كرجل ذكي و"مقدام" ثم يستدرك فجأة قائلاً بالحرف:

"لا عيب فيه ــ طال عمرك ــ إلا أنه شيعي".]

....

١١ــ إن مصر يمكن إقناعها بان تقدم سنداً قويا للسعودية في "تدخل إسلامي معاد للسوفييت في أفغانستان"، والرئيس "أنور السادات" متحفز في أي وقت للعمل ضد الاتحاد السوفيتي وهو بالفعل منهمك في نشاطات متنوعة في هذا الاتجاه بموجب اتفاق "نادي السافاري" الذي يضم السعودية ــ والمغرب ــ وإيران ــ ومصر ــ وفرنسا، ومع أن تجمع السافاري يركز نشاطه على أفريقيا ــ فإنه ليس صعباً إقناع الرئيس السادات بفتح جبهة أخرى لهذا النشاط يقوم عليها عمل جهادي ضد السوفييت في أفغانستان.

وهناك مغريات إضافية تقنع الرئيس السادات بذلك:

ــ إن الثورة الإسلامية في إيران تشغل باله "أي الرئيس السادات" خشية زيادة نفوذ الجماعات الإسلامية في مصر ولو بالعدوى. وهو "أي الرئيس السادات" غاضب من الثورة الإيرانية لأنها أنهت حكم أسرة "بهلوي" وعزلت صديقه "محمد رضا بهلوي" شاه إيران.

ــ إن الرئيس السادات راغب إلى أقصى درجة ــ وإلى آخر حد في التعاون مع الولايات المتحدة عن اعتقاده لديه من أيام إدارة نيكسون وكيسنجر بأن "٩٩ % من أدوار حل قضية الشرق الأوسط في يد الولايات المتحدة وحدها". وهو لم يقصّر في إعلان ما يعتقده ولا في التصرف على أساسه.

....

....

[وكانت هذه العلاقة بين الرئيس "السادات" وبين شاه إيران من مفارقات السياسة المصرية وعجائبها ــ! ذلك أن شاه إيران كان ــ باستمرار وبغير انقطاع ــ أقرب الأصدقاء إلى إسرائيل، كما أن بترول إيران كان وقود أسلحة الجيش الإسرائيلي في البر والجو والبحر طول معارك السويس ١٩٥٦، وسيناء ١٩٦٧، والاستنزاف ١٩٦٨ إلى ١٩٧٠، والعبور سنة ١٩٧٣.

ولكن الرئيس "السادات" روى في معرض دفاعه عن استضافته لشاه إيران في مصر بعد طرده من الولايات المتحدة الأمريكية ــ وليس فقط من إيران ــ بقوله: "إنه استضاف شاه إيران حتى يرد له جميلاً سبق به "الرجل"

إلى مساعدة مصر وتمثل بشحنة بترول كان المجهود الحربي ــ في أكتوبر ١٩٧٣ ــ يحتاجها وطلبها "الرئيس السادات" من شاه إيران، فقام الشاه بتحويل إحدى ناقلات البترول الإيرانية بكامل حمولتها من عرض البحر إلى مصر بدلاً من وجهتها الأصلية.

وتلك واقعة فيها من العواطف أكثر مما فيها من الحقائق "فيما أعرف من مسار الحرب وقد كنت قريباً منه، مقيماً طول الوقت تقريباً في قصر الطاهرة الذي كان الرئيس السادات يمارس منه قيادته، كذلك لا يظهر للواقعة أثر في الملفات الرسمية ذات الصلة، وقد بحثت فيها زيادة في طلب التأكيد"، والأرجح أن الرئيس السادات كان يحاول البحث عن ذريعة لاستضافة الشاه، ومع أن الذريعة الإنسانية كانت تكفيه إلا أنه قصد في مواجهة المناخ المتعاطف مع الثورة الإيرانية ذلك الوقت، أن يستدعي الوطنية المصرية لتسهيل قبول قراره باستضافة الشاه.

والمدهش في الأمر أن الإطار الواقعة مستعار من قصة حقيقية جرت سنة ١٩٦٥ أثناء الخلافات بين مصر والولايات المتحدة على اتفاقيات توريد القمح بمقتضى القانون رقم ب. ل، ٤٨٠ وذلك أنه في نهاية صيف ذلك العام أوقفت واشنطن شحنات القمح إلى مصر، وطلبت مصر شراء قمح سوفيتي، ولم يكن لدى الاتحاد السوفيتي فائض، لكن رئيس الوزراء "اليكسي كوسيجين" بعث يقول: "إن المحصول السوفيتي من الحبوب هذه السنة جاء أقل من المتوقع، مما اضطر الاتحاد السوفيتي أن يدخل سوق القمح مشترياً من السوق الكندية، لكنه بالنظر إلى تعرض مصر لضغوط أمريكية، فإن القيادة السوفيتية أمرت بتحويل شحنات قمح مشتراة للاتحاد السوفيتي إلى مصر، وسوف تتوجه البواخر الحاملة للقمح وهي الآن في المحيط الأطلسي إلى ميناء الإسكندرية على البحر الأبيض بدلاً من الذهاب إلى ميناء "أوديسا" على البحر الأسود!"

وهذه الواقعة منشورة في وقتها ــ معلنة ومسجلة "الصفحة الأولى من الأهرام، العدد الصادر صباح ٢٥ يونية ١٩٦٥".

ويظهر أن الرئيس "السادات" في رغبته لمساعدة شاه إيران، استعار له مشهداً من قصة العلاقات المصرية ــ السوفيتية وأعاد صياغته بما يناسب هواه في ظرف مختلف.

وذلك مسلك يستطيع علم النفس تفسيره في "حالة" تقوم فيها "الرغبة" باستعارة مشهد من واقعة حقيقية وتقوم بــ: "تلبيسه" على واقعة أخرى ــ وهو نوع من إعادة تركيب الصور وتوظيف قدرتها على خلق الانطباع "حتى وإن كانت الصورة مركبة!"]

....

....

وعلى أي حال فقد انتهت مداولات مجلس الأمن القومي الأمريكي برئاسة "جيمي كارتر" صباح ٢٧ ديسمبر ١٩٧٩ بتوجيه رئاسي يقضي بــ:

"أن يتوجه مستشار الرئيس للأمن القومي "زبجنيو برجينسكي" إلى منطقة الشرق الأوسط بادئاً بالقاهرة لمقابلة الرئيس "أنور السادات" والبحث معه في تنظيم جهد إسلامي شامل يساند المقاومة الإسلامية الأفغانية في مواجهتها

لجيش الاحتلال السوفيتي، ثم يتوجه مستشار الأمن القومي بعد القاهرة إلى الرياض لمقابلة الملك خالد وولي العهد الأمير "فهد" ووزير الدفاع الأمير "سلطان" ويجري معهم محادثات تضمن حشد موارد السعودية ونفوذها لقيادة "جهاد اسلامي" ضد الشيوعية في أفغانستان، وإذا نجح "برجينسكي" في مهمته مع الرئيس السادات فإنه يستطيع أن ينقل إلى القادة السعوديين ما يطمئنهم إلى أنهم ليسوا وحدهم "في ساحة الجهاد"".

"وأخيرا يتوجه مستشار الأمن القومي إلى باكستان ليقوى موقف الحكومة فيها بموارد السعودية ونفوذها ــ وبثقل مصر ووسائلها ــ وحتى تثق هذه الحكومة في إسلام آباد أنها سوف تكون وسط عمل إسلامي يلتف فيه من حولها ويجمع على أرضها قوى الإسلام وإمكانياتها".

وكان ذلك حلم باكستان الذي بدا بعيد المنال ــ والآن أصبح في متناول اليد!

وطوال الأسبوع الأول من شهر يناير ١٩٨٠ كان "زبجنيو برجينسكي" مستشار الرئيس "جيمي كارتر" للأمن القومي في زيارة سرية ممتدة للشرق الأوسط.

يوم ٣ يناير قابل الرئيس "أنور السادات" لمدة ثلاث ساعات ونصف الساعة، وفي اليوم التالي ٤ يناير كان في جدة يقابل الأمير "فهد" والأمير "سلطان"، ويوم ٥ يناير وصل "برجينسكي" إلى إسلام آباد ليرتب الأرضية للجهاد باسم الإسلام ضد الإلحاد.

**

لكن العملية كما اتضح الآن كان وراءها أكثر مما ظهر منها ــ لأن الجهاد الإسلامي الذي أعلن ضد الاتحاد السوفيتي لم يكن رد فعل طبيعياً لدخول الجيش السوفيتي، وإنما كان: خطوة وسط سياق جرى قبلهما واستمر بعدها:

ــ كانت الخطوة الأولى قراراً أمريكياً بإزعاج السوفييت في جمهورياتهم الجنوبية من قواعد في أفغانستان.

ــ والخطوة الثانية تصعيد هذا النشاط وتكثيفه إلى درجة تضطر السوفييت إلى التدخل العسكري.

ــ وأخيرا تجيء الخطوة الثالثة وهي إعلان الجهاد عندما يقع الدخول السوفيتي المأمول والمطلوب.

وذلك سياق الحقائق التي تكشف أخيراً أن "برجينسكي" كان يتستر عليها بأستار سميكة من الغموض، لكنه أخيرا فتح خزائن ذاكرته "وأوراقه" واعترف في حديث طويل مع المجلة الفرنسية "لا نوفيل أوبسرفاتور" اعترافا كاملاً وافياً ــ وقد جرى الحديث بالنص التالي:

[سؤال: إن المدير السابق لوكالة المخابرات الأمريكية "روبرت جيتس" كتب في مذكراته التي صدرت أخيراً بعنوان "من الظلال" أن المخابرات الأمريكية بدأت تساعد "المجاهدين" في أفغانستان بشكل مكثف قبل ستة شهور من دخول الجيش السوفيتي إلى ذلك البلد، وقد كنت أنت في تلك الأيام مستشاراً للأمن القومي لرئيس الولايات المتحدة، ومعنى ذلك أنك تعرف وأنه كان لك دور، فهل ما ذكره "جيتس" صحيح؟

برجينسكي: نعم. طبقا لما تقول به السجلات الرسمية، فإن الولايات المتحدة لم تدخل بثقلها في أفغانستان إلا سنة ١٩٨٠ بعد أسابيع من دخول القوات السوفيتية إلى كابول، لكنه في التاريخ الحقيقي "بصرف النظر عما تقول به السجلات" فإن التدخل الأمريكي لمساندة "المجاهدين" بدأ قبل ذلك بستة شهور.

إنني يوم ٣ يولية سنة ١٩٧٩ عملت على إصدار توجيه رئاسي من "كارتر" بتقديم كل المساعدات الممكنة إلى العناصر المعادية للسوفييت في كابول، وفي ذلك اليوم كتبت للرئيس مذكرة قلت فيها: "إن موقف السوفييت يزداد صعوبة في أفغانستان مع كل يوم، وأعتقد أننا إذا رفعنا الضغط درجة، فاعتقادي أن الاتحاد السوفيتي سوف يرغم على التدخل عسكرياً ومباشرة في أفغانستان".

سؤال: معنى ذلك أنك فعلت ذلك عامداً الاستفزاز السوفييت؟

برجينسكي: ليس بالضبط، نحن لم نقم بـ "زق" الروس حتى يتدخلوا، ولكننا عارفين بما نفعل ـ رفعنا درجة احتمال تدخلهم ـ وقد حصل.

سؤال: هل معنى ذلك أن الروس كانوا على حق في تبرير دخولهم إلى أفغانستان على أساس أنهم اضطروا إليه لمواجهة عملية سرية تقوم بها الولايات المتحدة ضدهم؟ كانوا يقولون ذلك ولم يكن أحد يصدقهم والآن يظهر أن فيما قالوه شيئاً من الحقيقة، وذلك أمر يدعو إلى الأسف!

برجينسكي: الأسف على ماذا؟ إن العملية السرية التي قمنا بها كانت فكرة رائعة، لقد أدت إلى دخول السوفييت في فخ تمنينا أن يدخلوا في مثله وقد دخلوا، فهل تريدون أن أقول لكم أنني آسف على مخطط وضعناه ونفذناه ونجح بامتياز؟

يوم تدخل الروس بجيشهم في أفغانستان كتبت للرئيس "كارتر" مذكرة قلت له فيها: "إن أمامنا الفرصة الآن لكي نجعل الاتحاد السوفيتي يذوق مرارة الكأس التي شربناها في فيتنام، والحقيقة أننا ولمدة عشر سنوات جعلنا الروس ينزفون دماً ولا يستنزفون جهدا فقط؛ فهم حين دخلوا أضروا باقتصادهم وأرهقوا سلاحهم وأضعفوا معنويات جنودهم وأضروا بهيبتهم، وذلك أدى في النهاية إلى تمزق الإمبراطورية السوفيتية.

سؤال: هل تعرف أن ذلك معناه أنكم أعطيتم السلاح للإرهابيين الذين أصبحوا أعداءً لكم؟ ...أنكم خلقتم بذلك صورة الإسلام الإرهابي.

برجينسكي: أيهما أفضل للغرب: انهيار الاتحاد السوفيتي، أو ممارسة الإرهاب بواسطة بعض الجماعات الإسلامية؟ أيهما أخطر على الغرب: طالبان أو الاتحاد السوفيتي؟

سؤال: لكن الإرهاب الإسلامي يمكن أن يتحول إلى موجة عالمية؟

برجينسكي: هذا كلام فارغ، يخلط بين الإسلام وبين ظواهر العولمة، لننظر إلى الأحوال الإسلامية بدون تهييج، هناك دين له احترامه وله أتباع يقدر عددهم بمليار ونصف المليار من الناس، لكن الدين لا يجمع هؤلاء سياسياً في التحليل الأخير. ما الذي يجمع مسلماً أصولياً من السعودية، أو مسلماً عسكرياً من باكستان، أو مسلماً معتدلاً من المغرب، أو مسلماً متعلماً من مصر، أو مسلماً قبلياً من وسط آسيا؟ ـ لا شيء يجمع هؤلاء إطلاقاً، لا يجمعهم إلا ما يجمع المسيحيين في العالم وهو في الواقع لا شيء!]

هكذا تكلم الرجل الذي "صمم" و"هندس" مشروع الجهاد الإسلامي في أفغانستان" ــ متواصلاً فيه مع استراتيجية أمريكية ثابتة جرى وضعها من قبل زمنه وزمن رئيسه "جيمي كارتر" ــ بهدف كسب معركة كان عليها أن تدور في أفكار الناس وعقولهم، والهدف تتفوق الرأسمالية الأمريكية ومثالها ــ الإمبراطوري.

**

وتلك معركة بدأها "دوايت أيزنهاور" "ومعه الأخوان فوستر وآلان دالاس" ــ وواصلها "جيمي كارتر" "ومعه برجينسكي وستانسفيلد تيرنر" ــ وأخيرا وصلت المعركة إلى "جورج بوش" "ومعه دونالد رامسفيلد وكونداليزا رايس"، وكان وصولها إلى "بوش" في ظروف متغيرة ذابت فيها ثلوج كثيرة فوق جبال أفغانستان، وذابت قربها إمبراطوريات.

وكان الدفتر الأول من دفاتر الأزمة قد بلغ آخره وانطوى، وانفتح غلاف دفتر ثان على بقية لمعركة إطلاق الأفكار قبل إطلاق النار ــ على أن إطلاق النار في الدفتر الجديد جاء أكثر من إطلاق الأفكار!

وكان الدفتر الأول تسجيلاً لتطور العمليات ــ لكن الدفتر الثاني يجيء ومعه نتائج الحسابات وهي خسائر على طول الخط وحريق "في المخازن" ــ كما هي العادة مع الخسائر حين يريد "بعضهم" إخفاء مسئوليته عنها ــ بالإهمال أو بالجريمة ــ وتحويل الدفاتر والأوراق من شاهد صادق وأمين إلى رماد صامت وحزين ينتظر هبة ريح تطويه في النسيان!

واشنطن تؤذن للجهاد في كابول!

الدفتر الثاني

في يوم قادم من المستقبل سوف تقف الأمة العربية محاسبة، تطلب التحقيق في شأن السياسات التي ساقتها إلى تلك المغامرة على جبال أفغانستان وفي أعماق كهوفها. ومع أني تابعت معظم فصول ومشاهد هذه المغامرة، فإني أوثر الآن أن أترك روايتها لغيري، طلباً لأقصى قدر متاح من الموضوعية، ذلك أنه عندما يتحدث طرف من الأطراف عن مسألة له فيها وجهة نظر، فالخشية دائما أن وجهة نظره تنعكس على رؤيته، وبالتالي على روايته!

ومن حسن الحظ أن هناك وفرة في المصادر الدولية التي تعرضت بالتقصّي والبحث في دخائل وخفايا ما جرى على جبال أفغانستان وفي كهوفها وضمنه دور السياسة العربية هناك. وكذلك اخترت أن أستند في هذا الحديث على ثلاثة مصادر ــ بين عشرات غيرها ــ أعرف أن وراءها جهدا دءوبا، وصلات وثيقة، ومصداقية تقنع أي باحث عن الحقيقة بأنه وجد جواباً لسؤاله ــ كي يبدأ من هنا حقه العام أن يعرف وأن يتخذ لنفسه ولو بالضمير موقفاً!

والمصادر التي اخترتها عماداً لهذا الحديث ثلاثة كتب:

1ــ كتاب "طالبان: الإسلام والنفط والصراع الكبير في وسط آسيا" ومؤلفه عميد الصحفيين الباكستانيين "أحمد رشيد"، وقد ظهر هذا الكتاب ونشر في لندن لأول مرة سنة ٢٠٠٠، ثم أعيد نشره من جديد ثلاث طبعات سنة

٢٠٠١ "وأعرف أن هذا الكتاب كان أمام الرئيس الأمريكي جورج بوش ورئيس الوزراء البريطاني توني بلير في نفس الوقت من أواخر شهر سبتمبر الماضي".

2ــ كتاب: "الحروب غير المقدسة: أفغانستان، أمريكا، والإرهاب الدولي"، ومؤلفه الصحفي الأمريكي المخضرم "جون كولي" الذي قام بتغطية منطقة الشرق الأوسط سنوات طويلة لكبرى وكالات الأنباء الأمريكية A B C، وقد نشر الكتاب لأول مرة عام ١٩٩٩، وأعيدت طباعته مرة ثانية سنة ٢٠٠٠، ومرة ثالثة سنة ٢٠٠١.

3ــ كتاب: "غسيل الواقع" "وتلك هي الترجمة الأقرب إلى معنى العنوان الإنجليزي White Out"، والسطر الثاني من هذا العنوان هو: "وكالة المخابرات المركزية الأمريكية والمخدرات والصحافة"، وقد اشترك في تأليف الكتاب اثنان من نجوم التحقيق بالعمق، أولهما "ألكسندر كوكبيرن" وهو الآن محرر مجلة"ذي نيشن"، وكاتب مجموعة من أكثر الكتب رواجاً. والثاني "جيفري سان كلير" وهو صحفي مشهود له في متابعة نشاط أجهزة المخابرات الدولية ــ وقد نشر الكتاب عام ١٩٩٨ في لندن، وكانت هناك جهود ملحة نجحت فيما سعت له، ولم يطبع الكتاب في نيويورك كما كان مقدرا.

الورقة الأولى:

التحالف ضد "الإلحاد" وأطرافه الأربعة!

تتفق الكتب الثلاثة ــ عشرات من المصادر غيرها ــ على مجموعة من الحقائق الأساسية ــ تتصل بإدارة الولايات المتحدة لحربها الباردة ضد الاتحاد السوفيتي "وهي الحرب التي بدأت أول الخمسينات من القرن العشرين، واستراتيجيتها إطلاق الأفكار قبل إطلاق النار، وخطف العقائد والأديان واستخدامها ضد الخصم الشيوعي الأخطر" ــ وهذه المجموعة من الحقائق الأساسية تظهر في مصادرها مترابطة ومتكاملة:

1ــ إن المخابرات المركزية الأمريكية متعاونة مع المخابرات العسكرية الباكستانية، سبقت إلى إدارة عمليات "حرب نفسية"، هدفها إثارة المشاعر المعادية للاتحاد السوفيتي داخل جمهورياته الجنوبية وفيها غالبية إسلامية، مستغلة في ذلك فجوة أو جفوة طبيعية بين النظام السوفيتي "المادي" في فلسفته، وبين الإسلام "الروحاني" في مبادئه وبالطبع فإن دافع المخابرات الأمريكية لم يكن "الحرص على الدعوة أو صدق الإيمان"، وإنما "إقلاق وإزعاج" الاتحاد السوفيتي في أكثر المواقع إثارة للمواجع!

2ــ إن استعمال أفغانستان قاعدة لإدارة وتوجيه عمليات إقلاق وإزعاج الاتحاد السوفيتي، بدأ على استحياء أوائل الخمسينات، واشتد في الستينات، وبلغ الذروة أواخر السبعينات ــ حين أصبح هدف مجلس الأمن القومي الأمريكي وعلى رأسه في ذلك الوقت "زبجنيو برجينسكي" "مستشار الرئيس كارتر للأمن القومي" ـــ استفزاز الاتحاد السوفيتي بتصعيد النشاط المعادي له في أفغانستان من المستوى النفسي إلى المستوى العملي والوصول في ذلك إلى

درجة ترغمه ــ ولو كارها ــ على التدخل عسكرياً في أفغانستان، فإذا تحقق ذلك فهذه هي الفرصة لتحويل ذلك البلد إلى فيتنام سوفيتية تؤثر عليه بمقدار ما أثرت فيتنام الأمريكية على أصحابها!

٣ــ وكان تقدير "برجينسكي" ــ كما عرضه على الرئيس جيمي كارتر "وبالاعتماد على روايات كارتر وبرجينسكي قبل أي مصدر غيرهما" ــ أن الولايات المتحدة لا يصح لها أن تظهر علانية في أفغانستان "عندما تتحول إلى فيتنام سوفيتية"، وإنما الأفضل أن تظل بعيدة بمسافة كافية، وأن تترك المعركة للمسلمين يخوضونها بإسم "الجهاد الإسلامي" ضد "الإلحاد المادي". وأهم من ذلك يتكفلون بتمويلها لأن العبء أثقل مما تستطيع وكالة المخابرات المركزية أن تحمله على ميزانيتها، كما أنه أكبر مما يقبل به الكونجرس في الموافقة على اعتمادات لعملية سرية تقدم إليه "مستقلة لوحدها"، زيادة على ذلك فإن الذهاب إلى "لجنة الأمن" "المتفرعة من لجنة الشئون الخارجية" لطلب الموافقة على مبالغ بهذا الحجم يؤدي إلى كشف العملية "لأن الكونجرس "مبنى من الفخار"، ما فيه يرشح خارجه"، وذلك يحرج السياسة الأمريكية، والإحراج في مثل هذه الحالة خطر؛ لأنه قد يؤدى لتعقيدات دولية من الأفضل تجنبها!

وكان معنى ذلك في تقدير "برجينسكي" "كما عرضه في مذكرة للرئيس "جيمي كارتر"":

ــ إن الولايات المتحدة لا بد لها من ترتيب يمكنها من "العمل على الأرض"، والصرف على العمل وإدارته تحت إشرافها، دون أن يظهر دليل يثبت عليها شيئاً تتورط بسببه فيما لا ضرورة له!

ــ يتداعى من ذلك أن الولايات المتحدة وهي تخوض معركة استنزاف الاتحاد السوفيتي في أفغانستان بـ: "سلاح الجهاد"، عليها أن تجد "وكالة إسلامية" معتمدة تحمل المسئولية على الأرض ــ وتدفع تكاليف العمل ــ وتتلقى التوجيهات بشأن خططه وتوقيتاتها من الأجهزة الأمريكية المعنية.

ومع أن هذه المواصفات لما هو مطلوب أمريكيا في أفغانستان بدت شبه المستحيل في معادلاتها ــ فإن "برجينسكي" عرض تصورات رآها قادرة على شبه المستحيل!

ــ وقد كان في حسابات "برجينسكي" أن "الوكالة الإسلامية الجهادية" المرغوب فيها والمطلوبة بمواصفاتها قائمة الفعل وعاملة في الواقع، وكل ما يلزمها الآن: إثارة همتها، وتطوير وسائلها، وتنشيط خططها وتركيز فعلها وتعبئته في إطار "جهاد إسلامي" صريح ومعلن ضد الاتحاد السوفيتي "الذي اعتدى على ديار الإسلام"!

الورقة الثانية:

توزيع الأدوار في سيناريو "برجينسكي"

وتجمع الكتب الثلاثة التي يستند إليها هذا الحديث ــ على أن "برجينسكي" خطا بعد ذلك خطوة في عرض تصوراته على الرئيس "كارتر" وعلى مجلس الأمن القومي في البيت الأبيض فتقدم بـاقتراح لتوزيع مسئوليات "الجهاد الإسلامي" المبتغى في مرحلة جديدة على أدوار رئيسية ثلاثة:

○ أولاً: دور لباكستان تصبح به "دولة الإسلام الأنقى" قاعدة للعمليات في أفغانستان كما كانت باكستان في مرحلة سابقة قاعدة للعمليات عبر أفغانستان "جسراً إلى الجمهوريات السوفيتية الجنوبية".

وكان تقدير "برجينسكي" أن "إسلام آباد" مهيأة نفسيا وسياسيا لتطوير عملها في أفغانستان، فهناك مصالح قامت بالفعل وترسخت خلال المرحلة السابقة من العمل في الجمهوريات الجنوبية للاتحاد السوفيتي، وهناك دواع سياسية تغري باكستان بقبول مسئوليتها في "العمل الجهادي" داخل أفغانستان إذا ضمنت تأييداً إسلاميا أوسع يلتف حولها. والجيش الباكستاني ــ وهو السلطة الأقوى في "دولة الإسلام الأنقى" ــ متحفز. وحتى إذا قامت في "إسلام آباد" حكومة مدنية ترى في قضية "الجهاد" رأياً آخر، فإن المخابرات العسكرية الباكستانية لا تعتبر نفسها ملزمة بطاعة ساسة "إسلام آباد" لأن رأيها فيهم بالغ السوء من كثرة ما تعرفه عن دخائلهم، وإذن فإن تعاون المخابرات العسكرية في باكستان على هذا الأساس مضمون، وذلك المطلوب الأهم.

○ ثانياً: دور للمملكة العربية السعودية تصطف به المملكة وراء باكستان مباشرة وكان تقدير "برجينسكي" أن الرياض جاهزة بدليل أن المملكة ساعدت من قبل ــ ولا تزال تساعد ــ في عملية إحراج السوفييت عبر أفغانستان، فإذا أصبح الإحراج "جهاداً إسلاميا" داخل أفغانستان ذاتها، فإن المملكة سوف تكون أكثر من مستعدة، خصوصاً أن الرياض مهتمة بدور متميز في قيادة العالمين العربي والإسلامي؛ لأن غياب مصر ــ بعد صلحها مع إسرائيل ــ ترك الساحة العربية خالية ــ وبالتالي مهيأة لدور تستطيع المملكة أن تقوم به، فإذا جمعته إلى دورها القيادي في منظمة المؤتمر الإسلامي وزادت عليه وضعها داخل منظمة الدول المصدرة للبترول الأوبك ــ فقد أصبحت المملكة رسميا وفعليا دولة الرجاء والأمل ــ عربيا وإسلاميا. فإذا أضافت الرياض إلى هذه القائمة دعوة جهاد مقدس ضد الإلحاد، فإن ذلك يوفر لها ظروفاً مثالية؛ لأنه يعطيها القيادة العربية الإسلامية دون أن يفرض عليها بالضرورة أن تتحمل بمسئولية المواجهة مع إسرائيل، وهي مسئولية تخشاها وتحاذر يوماً أن تجد نفسها وجهاً لوجه أمامها. وفي ظروف عادية فقد كان شبه مؤكد ــ إذا أصبحت المملكة هي القيادة المعترف بها في العالم العربي والإسلامي ــ أنه سوف يقع استدعاؤها بهذه الصفة إلى فلسطين، لكنها حين تستبق استدعاء فلسطين بدعوة إلى أفغانستان جهاداً من أجل الإسلام ــ فإنها بذلك تضع نفسها في موقف إسلامي يصعب على أحد أن يطلب منها زيادة عليه.

وكذلك كان تقدير برجينسكي، أن السعودية سوف تتحمس.

○ وثالثاً: دور لمصر على أساس أن الرئيس "أنور السادات" يمكن إقناعه ــ أن "يتعاون" حتى يقوى عزيمة باكستان "المنقسمة على نفسها"، ويطمئن وساوس السعودية "وهي حاضرة كل وقت"، وكان ظن "برجينسكي" أن الرئيس السادات تواق إلى إرضاء الولايات المتحدة التي تملك في حساباته المُعلنة ٩٩ % من أوراق حل قضية الشرق الأوسط، وهو بمشاعره كاره للسوفييت ومنغمس بالفعل في نشاط معاد لهم في أفريقيا ضمن التنظيم الذي أقترحه الكونت، "ألكسندر دي ميرانش" الرئيس الأسطوري للمخابرات الفرنسية وأطلق عليه وصف "نادى السفارى"

"وذلك التنظيم يضم كلا من السعودية وإيران والمغرب ومصر" ويقوم بالفعل بنشاط معاد للسوفييت في القرن الأفريقي ـ "أيضاً في غرب أفريقيا ـ أنجولا والكونجو".

والراجح ـ وذلك تقدير "برجينسكي" ـ أن السياسة المصرية النشيطة ضد السوفييت في أفريقيا لن تجد مانعاً من تحويل نشاطها أو جزء منه إلى أفغانستان، خصوصا أن الرئيس السادات بذلك يسابق الثورة الإسلامية في إيران وهو لا يغفر لها أنها أسقطت حكم صديقه الشاه "محمد رضا بهلوي" "وفقاً لما يقوله ويعلنه"!

**

وطبقاً لكتاب "الحروب غير المقدوسة" "صفحة ٣١"، فإن "زبجنيو برجينسكي" مستشار الرئيس الأمريكي "جيمي كارتر" لشئون الأمن القومي كان جالساً أمام الرئيس السادات يوم ٣ يناير ١٩٨٠، ينقل له رسالة من "جيمي كارتر" تدعو "مصر الإسلامية" أن تقوم بدور في "جهاد إسلامي" ضد الإلحاد السوفيتي الذي غزا بجيوشه بلدا إسلامياً.

وطبقاً لتعبير "برجينسكي" فإن الدعوة التي حملها للرئيس المصري طلبت إليه أن "يدخل في الفريق" الجهادي الإسلامي في أفغانستان "Join The Team"، وكانت الحجج التي عرضها لإقناع الرئيس السادات:

1 ـ "إن مصر بمكانتها الخاصة في العالم الإسلامي مؤهلة لدور في الدفاع عن العقيدة الإسلامية"!

2 ـ "إنه لا يصح ترك "شعارات الإسلام العظيمة" يحتكرها "آية الله الخميني" لنفسه أو للإسلام الشيعي"!

3 ـ "إن دخول مصر في هذا "العمل الجهادي" يعطي الرئيس السادات نفوذا أوسع في المنطقة إزاء أطراف عربية تعارض سياسته في السلام مع إسرائيل، ومنها سوريا والعراق وليبيا".

4 ـ "إن قيام الرئيس السادات بدور في "الجهاد الإسلامي" يرد بشدة على أولئك الذين يتهمونه "بالتفريط" في فلسطين، ويهيئ له قاعدة إسلامية أوسع من "الحيز المحدود" لدول الجامعة العربية".

5 ـ "إن مصر تملك مؤهلات تيسر لها العمل في أفغانستان بينها أنها بلد الأزهر الذي يقبل المسلمون مرجعيته، كما أنها موطن جماعة الإخوان المسلمين التي تأثرت بها أو تفرعت منها جماعات إسلامية عاملة في باكستان وأفغانستان، والرئيس السادات كرئيس لمصر يملك سلطاناً على الأزهر، وكسياسي فهو يحتفظ بعلاقات طيبة مع بعض زعماء الإخوان، وبرغم حساسيات "يعرف بها برجينسكي"، فإن ميدان الجهاد الإسلامي يستطيع جمع السلطة المصرية، والأزهر، والإخوان المسلمون على عمل مشترك يواجه شرور الإلحاد من ناحية، ومن ناحية أخرى تذوب به حساسيات ـ مع الإسلام السياسي ـ مترسبة من ظروف سابقة أو تلين معه مفاصل في العلاقات بين الطرفين متصلبة ـ في الوقت الراهن"!

6 ـ "إن مصر لن تتكلف شيئاً لأن الولايات المتحدة سوف تنشيء صندوقاً خاصاً للجهاد في أفغانستان تشارك بنفسها في تمويله وتدعو للمشاركة عددا من دول الخليج، أولها المملكة العربية السعودية. وهو يحمل رسالة حول هذا الموضوع من الرئيس "كارتر" إلى الملك والأمراء في السعودية، وهو "برجينسكي" على ثقة بأن المملكة سوف تستجيب سياسياً ومالياً"!

7 ــ "إن مصر تستطيع أن تستفيد "بأكثر من أجر الجهاد وثوابه"؛ لأن الجهاد في أفغانستان يضمن عقوداً سخية للصناعات العسكرية المصرية؛ لأن ذلك الجهاد ــ بالذات! يلزمه سلاح سوفيتي الصنع والنوع".

"وكان "برجينسكي" يقصد بذلك إغراء الرئيس "السادات" بأن "الجهاد الإسلامي" سوف يحتاج أن يشتري من مصر أسلحة سوفيتية الصنع لم تعد تريدها، أو أسلحة سوفيتية النوع ــ قامت بتصنيعها في منشآتها "الصناعات الحربية"، ولا تجد مشتريا لها، لأن المنطقة تشهد تحولاً ظاهرا إلى الأسلحة الأمريكية!"

8 ــ وكان الختام في حجج "برجينسكي" كالمعتاد "أن مشاركة مصر في "الجهاد الإسلامي" ضد الاتحاد السوفيتي في أفغانستان تساعد الرئيس "كارتر" على مواجهة أصدقاء إسرائيل في الكونجرس ــ لأنها ترد على دعايات يقوم بها "مناحم بيجن" "رئيس وزراء إسرائيل وقتها" تزعم "أن مصر ليست صديقاً للولايات المتحدة إلا بمقدار ما تريد منها أن تضغط على إسرائيل" وتلك حجة سوف تبطل عندما يظهر أن مصر على رأس التصدي الإسلامي للسوفييت في أفغانستان".

وتجمع الكتب الثلاثة "وغيرها من المصادر وضمنها مذكرات برجينسكي نفسه" أن "برجينسكي" خرج من مصر متوجها إلى السعودية وقد وجد نفسه رسولاً مكلفاً من الرئيس "السادات" "أيضاً"، إلى جانب تكليفه من الرئيس "كارتر"، لأن الرئيس المصري خوله إبلاغ الملك وولي العهد ووزير الدفاع في السعودية عندما يلقاهم أن ينقل إليهم رسالة إضافية منه مؤداها أنه "جاهز ومستعد للعمل، والتعاون معهم "اليوم قبل غد" في عمل جهادي ضد الإلحاد!"

....

[ومن مفارقات السياسية المصرية أن أحد الرجال الظاهرين في صفوف ثوار ٢٣ يوليو وهو السيد "مجدي حسنين" الذي أشرف على أول مشروع كبير لاستصلاح أراضي الصحراء في مصر باسم مديرية التحرير ــ وقد أصبح بعد ذلك سفيراً في تشيكوسلوفاكيا ــ بعث إلى "جمال عبد الناصر" مذكرة شهيرة حول الفوائد المحتملة "للإلحاد في العالم الشيوعي"!

وكان رأي "مجدي حسنين" في مذكرة بخط يده إلى "جمال عبد الناصر": أن وجود الاتحاد السوفيتي "وبقية حلفائه" بغير دين ــ أي ملحدين ــ باب مفتوح لدعوة تقنعهم بالإسلام، باعتبار أن وجودهم بلا دين يجعلهم أكثر تقبلاً من آخرين لهم دين ورثوه ويتمسكون به. وكانت رؤية "مجدي حسنين" أن "الإلحاد الشيوعي" "منطقة محايدة" إيمانيا، وبالتالي فإن الدعوة للإسلام فيها ممكنة.

وفي ختام مذكرته، قال "مجدي حسنين": "تصور يا سيادة الرئيس لو أن الاتحاد السوفيتي والصين وشعوب الكتلة الشرقية دخلت الإسلام، وقتها لن تصبح إسرائيل مشكلة ولا حتى أمريكا وبريطانيا"!

وقد قرأ "جمال عبد الناصر" هذه المذكرة، ثم كتب على هامشها بخط يده تأشيرة موجهة إلى المشير "عبد الحكيم عامر" نصها بالحرف:

"حكيم

اتصل بمجدي واطلب منه أن يكف عن هذه الخزعبلات"!

جمال

وفي الحقيقة فإن هؤلاء الذين وجدوا في "الإلحاد" فرصة سانحة لدعوة الإسلام في منطقة محايدة إيمانياً ــ لم يكونوا أكثر شططاً من الذين وجدوا في الإلحاد فرصة سانحة للجهاد باسم الإسلام بمقتضى فتوى من "زبجنيو برجينسكي"![

....

الورقة الثالثة:

توزيع الاختصاصات على أطراف التحالف

يوم ٥ يناير ١٩٨٠ كان "زبجنيو برجينسكي" في السعودية، ومع أن الملك "خالد" كان لا يزال رسمياً على العرش، إلا أن السلطة انتقلت منه إلى ولي العهد الأمير "فهد" "الذي كان حريصاً أن يكون انتقال السلطة الفعلي إليه محسوساً على المستوى الرسمي أيضاً، ولعله من هنا كان يتعمد في كل الاحتفالات والاجتماعات العامة التي يحضرها مع الملك أن يكون وصوله لاحقاً لوصول الآخرين، وحتى يقوم الجميع وفيهم الملك ليصافحوا ولي العهد بما يؤكد أنه الرجل القوي في النظام فعلياً"!

والذي حدث "وهو المتوقع" أن الملك "خالد" أحال ضيفه إلى أخيه الأمير "فهد"، وقد أبدى الملك لبرجينسكي قبوله للمبدأ؛ من منطق أن العمل الإسلامي ضد الاتحاد السوفيتي ــ ومن أفغانستان ــ كان موضع اتفاق سابق معتمد من الملك فيصل. والآن وقد تحول الأمر إلى جهاد مقدس في أفغانستان ذاتها فإن تعاون المملكة طبيعي ومؤكد، وأما التفاصيل المستجدة فهي "عند ولي العهد".

وأبدى الأمير "فهد" رضاه عندما سمع من "برجينسكي" أن الرئيس "السادات" تعهد بوضع الثقل المصري بكامله وراء السعودية في "ساحة الجهاد"، على أن ولي العهد لم يكن يريد قصر دور المملكة على تقديم المال فقط، وإنما كان يريد لها دوراً أكبر في الجهاد. وكان رأيه ــ وأَيَّده فيه بعض إخوته وبالذات الأمير "سلطان" ــ أن إدارة الجهاد ينبغي أن تكون للمملكة، وقيادته من فوق أرضها، وبعد ذلك تكون ترتيبات التنفيذ كما هو "مناسب"!

وفي الترتيب العملي فإن ذلك اقتضى الاتفاق على خطوط سياسية عريضة:

1 ــ التمويل مشترك وبالتساوي بين الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة العربية السعودية عن طريق صندوق دوار، يتأسس في "جنيف" بمبلغ قدره ألف مليون دولار تتجدد تلقائياً بمقدار ما يصرف منه.

2 ــ والجهات المكلفة بالإشراف على التنفيذ من الجانب الأمريكي ــ وكالة المخابرات المركزية ــ "وفيها الأميرال ستانسفيلد تيرنر في ذلك الوقت"، ومن لجانب السعودي: هيئة المخابرات العامة "وفيها الأمير "تركي بن فيصل" الذي جاء إلى هذا المنصب خلفاً لخاله السيد "كمال أدهم" مؤسس الهيئة".

3 ــ التوجيهات والاتصالات السياسية مع قيادات الجهاد الإسلامي من اختصاص المملكة تجنباً للحرج، مع العلم بأن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية لها مكتب معروف في "بيشاور". ومع أن الجيل الأول من الزعماء الأفغان الكبار مثل رباني ــ حكمتيار ــ مسعود، "على اختلاف ما بينهم" تعاملوا من البداية مع وكالة المخابرات المركزية ــ حينما كان نشاطهم داخل الجمهوريات الإسلامية للاتحاد السوفيتي ــ فإنهم الآن والميدان على أرض بلادهم ــ يفضلون أن يكون التعامل مع السعودية "لتكون الوسائط إسلامية"!

"ومن غرائب ما حدث باسم الإسلام في تلك الفترة ــ على حد رواية عميد الصحفيين الباكستانيين ــ أن زعماء القبائل والمليشيات الأفغانية الذين جرى اعتمادهم قادة للجهاد، وقع تنصيبهم "للحرب المقدسة" بإجراءات اقترحها أحد "الخبراء" "من مستشرقي وكالة المخابرات المركزية على الأرجح"، وكانت مراسم هذه الإجراءات تقضي بأن يُفتح باب الكعبة للقائد المرشح، ثم يدخل الرجل منه إلى قدس الأقداس، فيؤدي الصلاة أمام كل جدار من جدران الكعبة، باعتبار أن كل ناحية من داخل الكعبة "قِبْلة"، ثم يخرج الرجل وقد وقع ترسيمه "أميراً" للجهاد ضد الإلحاد!".

4 ــ تختص مصر بتوريد الأسلحة والمعدات والذخائر مما لديها "من أسلحة سوفيتية: سوفيتية الصنع وسوفيتية النوع"، وعليها أيضاً أن توفر للجهاد الإسلامي دعما دينياً وسياسيا وإعلامياً، وفي إطار ذلك المطلب فإن بعضا من أهم المؤسسات الدينية في مصر صدرت لها التعليمات بأن تتقدم باجتهادات وفتاوى تؤيد وتزكى أسبقية الجهاد ضد الإلحاد، كما أن بعض وسائل الإعلام الشهيرة فتحت أبوابا ثابتة تدعو للجهاد في أفغانستان وتجمع الأموال له.

**

وفي تلك الأوقات كان التقدير المشترك للطرفين الأمريكي والسعودي أن دخول مصر "بثقلها" إلى ساحة "الجهاد الإسلامي" في أفغانستان سوف يشجع عناصر قومية وإسلامية شديدة الإخلاص لمعتقداتها على أن تهرع إلى الساحة. وبحيث يظهر فعلا أن هناك أهدافا عربية وإسلامية تستحق العزم والبذل، وأن العمل في سبيلها ثواب يسعى إليه تقربا وزلفى!

ويروى "جون كولي" في كتابه: "حروب غير مقدسة" "الفصل الثاني من صفحة ٢٩ إلى صفحة ٤٣ وعنوان الفصل كله: أنور السادات" ــ أن الرئيس "السادات" كلف نائب الرئيس "حسني مبارك" وهو المسئول وقتها عن أجهزة الأمن الداخلي والخارجي، بالإشراف على المجهود المصري في "الجهاد الأفغاني" . "لكن "مبارك" لم يلبث إلا شهورا حتى ترك المهمة وأحالها إلى المشير "عبد الحليم أبو غزالة"، وبدوره أحالها المشير أبو غزالة إلى غيره".

ثم يعود " جون كولي" ليقول "ص٣٢"، أنه بعد أيام من لقاء الرئيس "السادات" مع "زبجنيو برجينسكي" في يناير ١٩٨٠ــ أعطى الرئيس المصري إذنا باستعمال مطار "قنا العسكري" قاعدة للتخزين والتشوين لخدمة "العمل الجهادي" في أفغانستان، وكانت طائرات الشحن الأمريكية العملاقة تهبط في هذا المطار كل مساء ويجري تحميلها بالأسلحة والذخائر لكي تطير قبل منتصف الليل، وتهبط قبل الفجر في المطارات العسكرية الباكستانية. وفي بعض

المرات كان هناك "أفراد" مصريون يصحبون هذه الشحنات لإتمام إجراءات التسليم والتسلم، كما أن ميناء "بورسعيد" تحول إلى قاعدة خلفية للتخزين والشحن إلى "كاراتشي".

وكانت الشحنات من مصر بالدرجة الأولى أسلحة وذخائر ومعدات سوفيتية الصنع أو سوفيتية النوع ويقول "جون كولي":

"إن المخازن العسكرية المصرية كلها أفرغت ما كان فيها من أسلحة، بعضها مما كان مستخدماً في الجيش المصري وجرى الاستغناء عنه، وبعضها ما أنتجته المصانع العسكرية المصرية وفيها مصنع في حلوان وهو الذي جرى تعديل بعض آلاته لكي ينتج رشاشات سوفيتية التصميم".

وابتداء من ربيع ١٩٨٠ وبعده فصولاً متوالية إثر فصول: كانت الحركة على الجسر الجوي بين مطار "قنا" العسكري وبين مطار "بيشاور العسكري" ــ وبين بور سعيد وكاراتشي ــ فيضاً يتدفق ليلا ونهاراً ودون توقف!

....

....

[وفيما يظهر في عدد من الروايات فإن بعض حماسة الإدارة المصرية في شحن الأسلحة إلى الجهاد الأفغاني، كان دافعها الرغبة في التخلص من السلاح السوفيتي؛ لأن تغير الأحوال قضى أن يكون تسليح الجيش المصري أمريكيا يعتمد على مساعدة عسكرية أمريكية ملحقة باتفاقية كامب دافيد، وبمقتضاها يجري تخصيص مبلغ ١،١ بليون دولار سنوياً لمشتريات سلاح أمريكي يتفق عليه].

....

ومن المفارقات أن السلاح الأمريكي الوحيد الذي وصل إلى أيدي المجاهدين في أفغانستان هو الصاروخ المتقدم ضد الطائرات من طراز "ستنجر"، وقد "باعت" منه وزارة الدفاع الأمريكية إلى صندوق الجهاد الإسلامي في أفغانستان ٩٠٠ صاروخ ــ ثم راجت شائعات بأن مجموعة من هذه الصواريخ وقعت في يد إيران أو على الأقل معروضة عليها للبيع. وسارعت وكالة المخابرات المركزية تشتري من قادة الجهاد ما وصل إلى أيدي رجالهم من صواريخ "ستنجر"، وكانت الوكالة الآن تطلب استعادة كل صاروخ منها بما يوازي خمس مرات سعر بيعه الأصلي. وتمكنت الوكالة من استعادة ٢٦٠ صاروخا، وما بقي منها في ساحة الجهاد بعد ذلك جرى اعتباره مفقودا مع تعهدات من القادة بأنه إذا ظهر من هذه الصواريخ شيء، فالاستعداد لشرائها ــ وبالسعر الأعلى ــ ما زال قائما، والظاهر أن إيران كانت قد حصلت بالفعل على بضع عشرات من صواريخ "ستنجر"، والراجح في "أسواق السلاح" أنها قامت بتصنيع نموذج إيراني له، دخل إلى الخدمة العاملة في قوات الحرس الثوري!

وفي أول أبريل ١٩٨٠ أعلن الرئيس "السادات" في حديث صحفي نشرته وسائل الإعلام في مصر ما يمكن اعتباره "قراراً رسمياً بالتدخل في أفغانستان" وكان نص ما قاله الرئيس "السادات" في ذلك الصدد:

"إننا على استعداد بأسرع ما يمكن لكي نساعد في أفغانستان وأن نتدخل لنصرة إخواننا المجاهدين هناك سواء طلبوا منا المساعدة أو لم يطلبوها".

وحين سئل متحدث رسمي من إدارة الاستعلامات المصرية عن تصريح الرئيس "السادات"، وهل تتضمن مساعدته لمجاهدي أفغانستان شحنات أسلحة؟ كان رده "بالإيجاب". ثم أضاف: "أن ما سوف نعطيه لإخواننا من الأسلحة هو بعض ما كان عندنا ولم نعد في حاجة إليه وذلك أبسط واجب نؤديه نحو إخواننا في الإسلام".

....

....

[وقد أدى "هذا الواجب البسيط نحو إخواننا في الإسلام" ــ إلى خلط شديد لحق بالخطاب الإسلامي في مصر ولم يحسن إليه ولا صان مكانته.

والشاهد أن الإسلام عرف دائماً أربعة ألوان من الخطاب الديني:

ــ خطاب تقليدي "يمثله الأزهر ودار الإفتاء".

ــ وخطاب تجديدي "حمل لواءه مجتهدون كبار ابتداءً من الإمام "محمد عبده" إلى العلامة "حسين فضل الله" ".

ــ وخطاب شيعي "تمثل مرات في نشاط الطرق الصوفية ومرات في جماعات مثل الإخوان المسلمين، خصوصاً في سنوات نشأتها الأولى".

ــ وخطاب وطني "نموذجه الأصدق نضال "حزب الله" بقيادة السيد حسن نصر الله لتحرير جنوب لبنان من الاحتلال الإسرائيلي".

ــ وفي الظروف المستجدة ــ مع الجهاد ضد الاتحاد السوفيتي ــ فقدت امتلأت الساحة بأنواع طارئة من الخطاب الإسلامي، فيها:

ــ الخطاب الدعائي: يحرض على القتال في أفغانستان غافلا أو عارفاً! أنه "تحت توجيه وإشراف قيادة الوكالة المخابرات المركزية الأمريكية".

ــ والخطاب الفضائي: وقد طلع على الناس حين تحولت الفتوى إلى صورة ولون وأداء، استغنت جميعها عن الاجتهاد الحق ومقتضياته وأولها الرسوخ في العلم!

ــ والخطاب "المرائي": وذلك نوع طارئ من الخطاب الديني يتحرك سياسياً بتوجيه غامض ويحمل في ظاهره وفي باطنه ما يريب، لأن هدفه كما يتضح من حركته تصفية ما تبقى من الصراع العربي ــ الإسرائيلي نفسياً ومعنوياً بمقولات من نوع "حوار الأديان" و"مجموع الأديان" والدم المشترك بين "أبناء العم" من نسل إبراهيم ــ وغير ذلك من مقولات، وكان هذا "الخطاب المرائي" هو الذي أوقع الخطاب الإسلامي التقليدي في ورطة الخوض في مزالق أساءت إلى دوره التاريخي وإلى وزنه العلمي وإلى قيمة مرجعيته!]

....

ثم كان الأغرب "في أبسط واجب نؤديه لإخواننا في الإسلام" ما سجله "جون كولي" في "صفحة ٣٢"، وهو أن إسرائيل عرضت على وكالة المخابرات المركزية الأمريكية كمية من السلاح السوفيتي، قالت إنها استولت عليه

أثناء حروبها مع الجيوش العربية، وقبضت إسرائيل ثمن هذه الأسلحة من الصندوق المشترك لدعم الجهاد الإسلامي في أفغانستان"!

الورقة الرابعة:

كيف دفعت أمريكا حصتها في صندوق الجهاد؟

وفي السنة الباقية من إدارة الرئيس "كارتر" وهي آخر إقامته في البيت الأبيض بعد أن خسر الانتخابات أمام (رونالد ريجان)، من توفمبر عام ١٩٨٠، لم تدفع المخابرات الأمريكية حصتها بالكامل في الصندوق المشترك مع السعودية لدعم الجهاد الأفغاني، بل كان ما دفعته أقل من نصف ما تعهدت به، مع أنها هي التي اقترحت حجم الصندوق شراكة متساوية مع المملكة العربية السعودية. وأما "الرياض" فقد دفعت نصيبها وزيادة، سواء في مبالغ جرة إنفاقها داخل المملكة وبينها الصرف على زعماء سياسيين أفغان زاروها لبحث "أمور الجهاد"، أو طلبوا مساعدات عاجلة يصعب عليهم انتظار صندوق جنيف عندما يقررها. وكانت السعودية بالإضافة إلى ذلك قد أنشأت ما أسْمي بـ: "مكتب الخدمات العامة" بحيث يكون ــ وليس المخابرات ــ واجهة الترتيب والتنظيم والمتابعة. وكانت مهمة هذا المكتب أن ينظم الدعوة ويستقبل المتطوعين ويرتب إقامتهم في السعودية، حتى تتم إجراءات إلحاقهم بصفوف المجاهدين، وأهم هذه الإجراءات، سحب جوازات سفرهم الأصلية وتزويدهم "ببطاقات خدمة" معها تصريحات "مرور خاصة" تمكنهم من السفر إلى باكستان والوصول إلى "بيشاور"، حيث يتولّاهم هناك فرع أمامي "لمكتب الخدمات العامة" مهمته توزيعهم على "مواقع الجهاد" التي تكون قيادتها في حاجة إليهم.

وقبل نهاية السنة الأولى في تاريخ الجهاد الأفغاني وهي سنة ١٩٨٠، كان مكتب الخدمات العامة في السعودية وفرعه المتقدم في "بيشاور" قد نشطا تحت قيادة الشيخ "عبد الله عزام" وهو أستاذ أردني من أصل فلسطيني، كان عضوا في "حزب التحرير الإسلامي" الذي تعاون في الخمسينات مع حلف بغداد.

ومع نهاية هذه السنة كان الرئيس "كارتر" ومستشاره للأمن القومي قد غادرا البيت الأبيض.

**

وعندما انتخب "رونالد ريجان" "نوفمبر ١٩٨٠" لرئاسة الولايات المتحدة، وفتحت أمامه مسألة الجهاد الإسلامي في أفغانستان ــ حتى قبل دخوله إلى البيت الأبيض ــ جاءته ملفاتها ومعها مطالبات من المخابرات الأمريكية تلح في السماح لها باعتمادات إضافية تسد تعهدات واشنطن في الصندوق المشترك مع الرياض ــ وقد تحمس "رونالد ريجان" للعملية بعد أن أقنعه مستشاروه، وفي مقدمتهم صديقه الأعز "ويليام كايسي" "الذي اختاره لرئاسة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية" ــ بأهمية اصطياد الجيش السوفيتي في أفغانستان باعتبارها "الأكبر" بين كل عمليات الحرب الباردة "وكان ذلك صحيحا".

ومعنى ذلك أن "رونالد ريجان" ومن قبل أن يتولى مقاليد السلطة ويفكر في خطوط أول ميزانية لإدارته – كان عليه أن يوفر مبالغ طائلة للجهاد الأفغاني تسدد الحصة الأمريكية عن السنة الأولى في الصندوق المشترك مع السعودية، وتعتمد المقرر للسنة الثانية وتدفعه، وتزيد فوقه ما يتناسب مع المستوى الذي بلغته العملية واحتمالاتها غير المحدودة.

ويروى كتاب "الحرب غير المقدسة" أنه في أوائل شهر ديسمبر التقى الرئيس المنتخب "رونالد ريجان" في لوس أنجلوس بنائب مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية في ذلك الوقت: الجنرال "فيرنون والترز" وهو جندي منت تحت السلاح بدأ حياته في المخابرات العسكرية أيام الحرب العالمية الثانية، ثم برز في العمل السري في أوربا بطريقة لافتة للأنظار حملته إلى أرقى المناصب في مؤسسات الأمن وأوصلته نائباً لمدير المخابرات المركزية.

وفي هذا الاجتماع في لوس أنجلوس – أوائل شهر ديسمبر ١٩٨٠ – كان "فيرنون والترز" يريد أن يشرح للرئيس المنتخب – وفي حضور عدد من أقطاب إداراته وبينهم "ويليام كايسي" المرشح مدير الوكالة المخابرات المركزية الأمريكية "وهو صديق قديم لوالتز" – كافة الاحتمالات الواعدة للجهاد الأفغاني – وكذلك مشكلاته!

وأهمها حسب ما طرحه الجنرال والترز:

- إن تكاليف العملية تتزايد على نحو متصاعد بسبب النجاح وليس بسبب الفشل.
- أن الوكالة لا تقدر من ميزانيتها العادية أن تفي بالنصيب الأمريكي في الصندوق المشترك مع السعودية لأن ميزانيتها لا تحتمل!
- إن الوكالة أمامها مشروعات مهمة في تضييق الخناق على الاتحاد السوفيتي في أوربا الشرقية، وبحيث يتم حصر الاتحاد السوفيتي بين غرب آسيا وشرق أوربا في الوقت نفسه – وبالذات من بولندا مع مجيء "بابا" جديداً لروما "جون بول الثاني" من مواطني ذلك البلد الذي تتحرك فيه الآن منظمة علنية معادية للشيوعية تحت اسم التضامن يتزعمها "ليخ فاليسا" رئيس نقابات عمال بناء السفن في جدانسك – ومعنى أن تتكفل الوكالة بتدبير ما هو لازم لأفغانستان – من ميزانيتها الحالية – أن يسقط مشروع بولندا على الأرض كطائرة تعطلت محركاتها ووقعت أجنحتها!

وبدا أن الرئيس ريجان حائر إزاء ما طرح عليه؛ لأن أهم بند في حملته الانتخابية كان التوقف عن التمويل بالعجز، وترحيل ذلك العجز سنة بعد سنة إلى الدين العام، وعليه فهو مطالب أن يضغط الإنفاق ولا يزيد منه، لكنه في الوقت نفسه على حد قوله:

"وقع في غرام عملية أفغانستان"، لأنها بدت له – وهو "العدو الشرس" للشيوعية، حيث تكون – نموذجاً مثالياً لسفح دم السوفييت، جزاء ما تسببوا فيه "من سفح دم أمريكي غزير في فيتنام"!

ولعل أهم ما تجمع عليه المصادر مما حدث في ذلك الوقت "وكله ظاهر في الكتب الثلاثة التي يستند إليها هذا الحديث" هو الطريقة التي تمكنت بها إدارة الرئيس ريجان عندما تولت السلطة من تدبير الاعتمادات اللازمة "للجهاد في أفغانستان" دون أن يتكلف دافع الضرائب الأمريكي بسنت واحد!

**

ويركز كتاب "الحروب غير المقدسة" بالتحديد "واستنادا إلى وثائق اطلع عليها مؤلفه إلى جانب شهادات سجلها ـ ومنها أقوال خمسة من رؤساء أجهزة المخابرات الأمريكية والأوربية ـ إلى جانب تقارير سرية عرضت على لجنة المخابرات في مجلس الشيوخ الأمريكي لثماني سنوات متعاقبة" ـ على رواية تفاصيل وافية عن الطريقة التي تمكنت بها إدارة ريجان من دفع نصيبها في صندوق "الجهاد الأفغاني".

وابتداءً من صفحة ١٢٨ من كتاب " الحروب غير المقدسة" تتدفق تفاصيل هذه الطريقة "وهي مزعجة" على النحو التالي:

بعد حفل تنصيب "رونالد ريجان" بثلاثة أيام، استقبل رئيس الولايات المتحدة في مكتبه البيضاوي شخصية أحيط وصولها إلى البيت الأبيض بجو من السرية شديد، زاد منه أن أجتماع "ريجان" بهذه الشخصية حضره الجنرال "فيرنون والترز" الذي عين مستشاراً لرئيس الولايات المتحدة للمهام الخاصة التي يشرف عليها مجلس الأمن القومي، كذلك حضره وزير الدفاع الجديد "كاسبر واينبرجر"، والجنرال "روبرت ماكفرلين" مساعد مستشار الأمن القومي للرئيس، الذي كان عليه أن يسجل وقائع الاجتماع لمكتب الرئيس في "محضر مختوم" لا يفض قبل خمسين سنة!

وكان الزائر هو رئيس المخابرات الفرنسية الخارجية "SDECE" ذائع الصيت الكونت "ألكسندر دي ميرانش" وهو صديق وثيق الصلة بـ "كايسي" وبـ "والترز" من تعاون ورفقة عمليات سابقة.

"أشار "دي ميرانش" فيما بعد إلى ذلك اللقاء مع "ريجان" في حديث صحفي نشرته مجلة تايم في عددها بتاريخ ١٣ يونية ١٩٩٢".

وطبقاً لجون كولي و"لمحرر مجلة "تايم" " فإن "دي ميرانش" عرف من صديقيه "كايسي ـ ووالترز" أن الرئيس الأمريكي مشغول بتوفير نصيب أمريكا في الجهاد الأفغاني، وكان لديه الحل ـ ثم إن لديه الفرصة الآن ليعرضه على "ريجان" بنفسه، وقد دخل في الموضوع مباشرة قائلاً:

"السيد الرئيس Mr President، هل أستطيع أن اسأل ما الذي تفعلونه بالمضبوطات التي تصادرها الوكالة المختصة بتنفيذ قانون مكافحة الإدمان DEA أو مكتب التحقيقات الفيدرالي إلى FBI أو هيئة الجمارك FCA؟!

وقال الرئيس "ريجان": "إنه لا يعرف ـ لكنه يفترض أن هذه المضبوطات يجري حرقها تحت رقابة مشددة"، وقاطعه "دي ميرانش": "هذه غلطة يا سيادة الرئيس"!

واستطرد "دي ميرانش" يقول لرئيس الولايات المتحدة ـ "وفي مكتبه البيضاوي داخل البيت الأبيض" ــ "إنني أفهم أن تصادروا هذه الشحنات من المخدرات ولكني لا أفهم لماذا تحرقونها"، واقتراحي ـ سيادة الرئيس ـ أن

تعملوا على توصيل جزء منها إلى معسكرات الجيش السوفيتي في أفغانستان لنشر الإدمان في صفوف رجاله؛ لأن ذلك يتكفل بإنهاك القوى القتالية لجنوده. أضاف الكونت "دي ميرانش"، و"ريجان" يسمع مأخوذا: أليس ذلك ـــ سيادة الرئيس ـــ ما فعله "الفيت كونج" "المقاومة الوطنية" في فيتنام؟ وأليس ذلك ـــ سيادة الرئيس ـــ ما أدى إلى هبوط معنويات الجنود الأمريكيين في تلك الحرب"؟

"أقر "دي ميرانش" بهذه النصيحة فعلاً وتحمل مسئوليتها في مذكراته التي نشرها "ديسمبر ١٩٩٢" بعنوان "Perception et Action" رؤى وأفعال ـــ لكن "دي ميرانش" لم يشر في كتابه إلى بقية النصيحة".

كانت بقية نصيحة "دي ميرانش" تدعو "سيادة الرئيس" إلى تخصيص باقي مضبوطات المخدرات ـــ بعدما يجري تسريبه إلى معسكرات الجيش السوفيتي في أفغانستان ـــ بحيث يجد طريقه إلى الأسواق "العالمية" ويعاد بيعه عن طريق "شبكات أهلية"، ويكون من عائده فائضاً يدفع نصيب الولايات المتحدة في "الجهاد الأفغاني".

ويسجل كتاب "حروب غير مقدسة" "صفحة ١٢٩"، أن الرئيس ريجان أطرق مفكراً بضع ثوان ثم رفع رأسه قائلاً: "هذه فكرة عظيمة A Great Idea" ثم التفت إلى معاونيه المشاركين في اجتماعه مع مدير المخابرات الخارجية الفرنسية وقال: "إن أحداً لم يقترح علي فكرة على هذا المستوى من قبل" ورفع الرئيس "ريجان" سماعة التليفون وطلب توصيله بـــ "وليام كايسي" "الذي لم تمكنه مهمة عاجلة من حضور اجتماع البيت الأبيض"، وقال له: "أريدك أن تقابل صديقنا الفرنسي؛ لأن لديه اقتراحات أراها بديعة وأريدك أن تسمعها منه".

وكان "كايسي" قد سمعها من صاحبها قبلا، ولعله لم يحرص على حضور الاجتماع في البيت الأبيض حتى لا يشارك في إقناع "ريجان" بتلك الفكرة البديعة، ومن ثم يتحمل مسئوليتها القانونية في يوم من الأيام إذا تسرب سرها! وقد رأى الأفضل له أن يأتيه بها أمر من رئيس الولايات المتحدة.

وكذلك التقى "دي ميرانش" في اليوم التالي بـــ "وليام كايسي" وبحث معه تفاصيل فكرته وتحويلها إلى خطة!

الورقة الخامسة:

أساطير الأفيون وأمواله الخرافية!

لم تكن المخدرات بعيدة عن أفغانستان، ولا غريبة عن جماعات المجاهدين الذين يقاتلون "الإلحاد" متمثلا في القوات السوفيتية التي دخلت أفغانستان.

والشاهد أن أفغانستان كانت من الأصل واحداً من بلدين لهما النصيب الأكبر عالميا في زراعة وصناعة "الأفيون" "بورما هي البلد الثاني".

وطبقاً لكتاب "طالبان" "لأحمد رشيد صفحة ١١٩" فإن إنتاج أفغانستان من الأفيون "وقتها" كان يصل سنوياً إلى ما بين ٢٢٠٠ ـــ ٢٤٠٠ طن، وذلك تقدير الأمم المتحدة.

"وقد زاد هذا الإنتاج عدة مرات تحت ضغط "مطالب الجهاد" حتى أصبح يضخ في اقتصاد أفغانستان سنويا ما يزيد على ستة بلايين دولار سنويا، هي عماد اقتصاد البلد، وأهم مورد للثروة فيه".

وكانت زراعة الخشخاش وصناعة وتقطير الأفيون من زهرها وثمرها هي شاغل معظم زعماء القبائل والعشائر الأفغانية، وعندما أصبح هؤلاء الزعماء في مقدمة صفوف الجهاد، فإن كل واحد منهم حاول أن يبني مليشيا مسلحة تتناسب مع مقامه قبل أن يتقدم في طلب نصيبه من الصندوق المشترك لمساعدة المجاهدين في أفغانستان.

وفي مرحلة لاحقة "مرحلة طالبان" وعندما أصبح للحرف في أفغانستان قادة للجهاد لا يملكون أرضا ولا زرعا ولا معامل تقطير، فإن هؤلاء القادة وجدوا لأنفسهم مكانا على الخريطة حين أمسك كل منهم بمدخل طريق أو تقاطع طرق، ثم أقام هناك حاجزا ينظم مرور شحنات الأفيون ويسمح بها مقابل رسوم.

ويستعين "محمد رشيد" "كتاب طالبان" بتقارير لمنظمة مكافحة المخدرات التابعة للأمم المتحدة وفيها "١٢٠" صفحة تقرير يقول:

"لقد حدث ما يشبه الانفجار في تجارة المخدرات القادمة من أفغانستان، لأن ما متوسطه ٧٠ % من حجم المخدرات المتداولة في العالم أصبح يجيء من هذه المنطقة، وهناك أدلة قاطعة على وجود صلة بين القائمين بهذه العمليات وبين عناصر نافذة في الإدارات الرسمية لأكثر من حكومة".

ويرى "محمد رشيد" أن الإشارة واضحة هنا إلى المخابرات المركزية الأمريكية والمخابرات العسكرية الباكستانية، ويورد نماذج واقعية اضطرت فيها السلطات الباكستانية ـ تحت ضغوط دولية ـ إلى التبرؤ من عمليات الأفيون ونقل بعض ضباطها الذين أشارت إليهم تقارير الأمم المتحدة بالاسم إلى مواقع أخرى.

ويزيد كتاب "طالبان" إلى ذلك "صفحة ١٢١" ـ بالوقائع والأسماء كيف أن بعض ضباط مكاتب مكافحة المخدرات التابعة للأمم المتحدة في "بيشاور" اضطروا إلى الاستقالة من وظائفهم كنوع من الاحتجاج؛ لأنهم اكتشفوا أن المخابرات المركزية الأمريكية والمخابرات العسكرية الباكستانية تعرقل جهودهم.

**

وطوال حقبة الثمانينات كانت أموال الجهاد ضد الإلحاد في أفغانستان تتدفق سيلا في العالم العربي، فالمصادر أصبحت سخية والحسابات طرية الفرص مفتوحة على الآخر لمن يستطيع الوصول والدخول!

والشاهد أن ثروات هائلة "بالملايين وعشرات الملايين ومئات الملايين" تحققت لأصحابها في هذه الفترة في السعودية ولبنان والأردن والمغرب ومصر، والأساس فيها فيض الخير من أموال الجهاد في أفغانستان.

وفي مصر على سبيل المثال فإن هذه الأموال أغرت كثيرين تواجدوا في ميدان الأعمال أصلاً ـ أو سعوا إليه "خفافا" باعتقاد أن هناك فرصة متاحة للغنى الفورى!

وتظهر التقارير أن عددا من "رجال الأعمال" ـ القدامى والجدد، عرفوا باتصالاتهم أن هناك طلبا على أنواع من الأسلحة بالذات لم يعد منها كفاية في المخازن العسكرية المصرية، وقد سارعوا ـ خفافا أيضا ـ إلى توريدها،

وقصد بعضهم إلى بلدان أوربا الشرقية وبالذات بلغاريا والمجر وتشيكوسلوفاكيا يشترون من هناك بسرعة ما أصبح نادراً هنا.

وكانت فوارق الأسعار في بعض الأوقات خرافية لكن الاحتياجات كانت ملحة والطلبات عاجلة!

....

[ومن غرائب تلك الأيام أن "الجهاد" في أفغانستان احتاج إلى بغال ألفت مسالك الجبال واكتسبت مهارات صعودها، وأفتى أحد العارفين بأن البغال المصرية لا تصلح للغرض وأن أنسب البغال للمطلوب ما هو موجود في جزيرة قبرص، لأن طبيعة الجزيرة جبلية، والبغال فيها من أيام ثورة الأسقف "مكاريوس" ضد بريطانيا، تعودت وحصلت بالمران خصائص تنفع الجهاد الإسلامي الآن "كما نفعت البطريرك الأرثوذكسي من قبل!".

وكذلك توجه أحد رجال الأعمال إلى قبرص يشتري "٢٠٠٠" ألفي بغل قبرصي قادرة على الحياة والعمل على سفوح وقمم الجبال في أفغانستان.

وكان بادياً مرة أخرى أن إغراء الربح وفيراً وسريعاً يرفع الأسعار بطريقة مبالغا فيها. ومن الغريب أن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية تحوطت لذلك ووضعت ضمن هيئة السفارة الأمريكية في القاهرة ــ في ذلك الوقت ــ ممثلا لمجلس الأمن القومي في البيت الأبيض برتبة وزير مفوض اسمه "جوكس كوفي" وكان مجتمع القاهرة يحس بقرون استشعار مرهفة لديه أن مركز "جوك" لا يقل نفاذا عن مركز "فرانك ويزنر" السفير المعتمد للولايات المتحدة الأمريكية في القاهرة أيامها، ولعله لم يخطر ببال أحد أن "كوفي" الذي كان معروفاً "وذلك صحيح" أنه يمثل البيت الأبيض وليس وزارة الخارجية ــ هو المسئول المكلف بالإشراف على تزويد "الجهاد الأفغاني" بما يحتاجه من مصر أو عن طريقها. وكذلك كان "كوفي" يطلب، وكان يوافق، وكان يأذن بالصرف من اعتمادات الصندوق المشترك في جنيف، وكان الرجل بالتأكيد يلاحظ أن "رجال الأعمال"" المشتغلين باحتياجات الجهاد "يبالغون" ــ لكن الضرورات لها اعتباراتها، وكانت لــ "جوك "كما كان أصدقاؤه ينادونه اختصارا أو تدليلاً" ــ كلمة مشهورة تقول: "إن الجهاد أيضا يحتاج إلى حوافز"!]

....

....

الورقة السادسة:

الرجل الغامض وسط الأساطير!

وتجمع الكتب الثلاثة: "طالبان" و"الحروب غير المقدسة" و"غسيل الواقع" على أن الجهاد في أفغانستان تكلف ما بين ١٢ إلى ١٤ بليون دولار، وذلك حساب الصندوق المشترك الدوار الذي كانت السعودية والمخابرات المركزية الأمريكية تصرفان منه. لكن الموارد الإضافية الطارئة أضافت إلى ذلك المبلغ أضعافه، إذ يقدر كتاب "طالبان" "لأحمد رشيد" صفحة ١٨ أن ما صرف في هذه الحرب يقدر بمبلغ ٤٥ مليار دولار" وتلك ثروة عصية حتى على

القانون، وبالفعل فإن هذه الثروة فلكية أطاحت ببنك "الاعتماد والتجارة" بعد أن قام لسنوات طويلة بدور "الممر المالي" الظاهر لأموال "الجهاد الإسلامي" في أفغانستان.

كان هذا البنك مشروع رجلا علا نجمة مرة واحدة أوائل الثمانينات وهو السيد "أغا حسن العابدي" مؤسس ورئيس مجلس إدارة بنك الاعتماد والتجارة ــ والرجل باكستاني خبر أعمال البنوك ولمح فرصته حين رأى الطوارئ الجديدة، وقدر حاجتها إلى بنك أكثر مرونة من غيره. وقد حصل على الترخيص بتأسيس البنك في الإمارات العربية المتحدة، ثم ضم إليه شركاء واصلين من أبرزهم السيد "كمال أدهم" مدير المخابرات السعودية ومستشار الملك فيصل "وخال الأمير تركي الذي خلفه على إدارة المخابرات السعودية".

وفي سنوات قليلة أصبح هذا البنك ومقره مدينة أبو ظبي عاصمة الإمارات العربية المتحدة ــ واحد من أقوى بنوك الشرق الأوسط وأظهرها في الأسواق المالية، كما أن مؤسسه "أغا حسن العابدي" أصبح شخصية مرموقة في عواصم المال والأعمال في العالم كله، بل وقد حاول الرجل أن يعطي نفسه مكانة تجعله أكثر من مجرد رئيس مجلس إدارة بنك!

....

....

[وقد شاءت المصادفات أن أكون طرفا في تجربة مباشرة مع "أغا حسن عابدي"، "وأهمية التجربة دلالتها على أن حكومات أوربية أو هيئات نافذة في أوربا ــ عرفت مبكرا عن "دور" الأفيون في تمويل النصيب الأمريكي في عمليات أفغانستان"، فقد حدث في شهر مارس سنة ١٩٨٦ أن صديقاً قديماً هو السفير "عظيم حسين" الذي كان ممثلاً فوق العادة للهند في القاهرة سنوات الخمسينات بعث إليّ بخطاب وقعه معه صديق مشترك لنا هو السير "ساني رامفال" الذي كان وقتها سكرتيراً عاماً لمنظمة الكومنولث. وكان خطاب الاثنين دعوة لكي أنضم عضوا في مؤسسة باسم "العالم الثالث" ــ ضمن نشاطها أن تقوم على منح جائزة سنوية باسم "جائزة العالم الثالث" لشخصية عالمية لها إسهام مرموق في الحياة الدولية. وقد أضاف الصديقان في خطابهما أن جائزة العالم الثالث سوف تكون في إطار الأمم المتحدة. وبالفعل وقع بينما كنت أفكر في العرض أن اتصل بي من نيويورك الصديق السفير "علي تيمور" وهو وقتها مدير المكتب الخاص للسكرتير العام للأمم المتحدة "بيريز دي كويلار" وكان "علي تيمور" ينقل إلى رسالة مؤداها أن السكرتير العام يضم صوته إلى أصوات أخرى سبقته في إقناعي بقبول عضوية مؤسسة العالم الثالث ولجنة الجائزة التابعة لها، ثم عرفت من السفير "عظيم حسين" أن الجائزة تحددت قيمتها بمبلغ مائة ألف دولار، وأن هذا المبلغ سنوي وكذلك تكاليف مراسم الاحتفالات سوف تقدم هدية من "مؤسسة العالم الثالث" وهي مؤسسة لا تستهدف الربح، مسجلة في نيويورك ويرأسها "أغا حسن العابدي" الذي هو في نفس الوقت رئيس مجلس إدارة بنك الاعتماد والتجارة.

ونظرت في القائمة المقترحة لعضوية لجنة الجائزة بالتحديد ووجدت سبعة من ألمع الأسماء بينهم العالم الباكستاني الذائع الصيت الدكتور "أمير عبد السلام" "الحاصل على جائزة نوبل في الطبيعة النووية عام ١٩٧٩، والذي تبرع

بقيمة جائزته لإنشاء معهد دولي في مدينة "تريستا" شمال إيطاليا يكون أكاديمية لتدريس العلوم النووية لشباب من أبناء العالم الثالث، وكان الدكتور "أمير عبد السلام" يعْتبر أستاذا لكل مهندسي المشروعات النووية الكبرى في آسيا".

وبينما كنت أفكر جديا في الموضوع لحقتني رسالة جديدة من السفير "عظيم حسين" يقول فيها: "إنه تلقى اقتراحا بأن تكون الجائزة في المرة الأولى من نصيب "ويلي برانت" مستشار ألمانيا الغربية السابق"، ويسألني رأيي؟

....

....

[كان "ويلي" عمدة برلين الغربية في ذروة الحرب الباردة، وحين كانت ألمانيا مقسومة إلى شرق وغرب، وكذلك عاصمتها "برلين" التي وضعت تحت إدارة دولية مشتركة تحميها قوات الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا، ثم إن "ويلي برانت" أصبح فيما بعد مستشارا "أي رئيس وزراء" لألمانيا الغربية، وكان هو الذي ابتدع سياسة التوجه إلى الشرق "Ostpolitik" مع بداية الوفاق – ثم أصبح بشخصه ودوره أكبر رموز هذا الوفاق والآمال التي تعلقت به لتفادى صدام – نووي – بين القوتين الأعظم].

....

وربما أن ترشيح "ويلي برانت" لهذه الجائزة كان العامل الحاسم في قبولي بما عرض علي "من عضوية مجلس العالم الثالث وعضوية لجنة جائزته"، وتقرر أن نتقابل جميعا – بالذات أعضاء لجنة الجائزة – في نيويورك وأن ننزل معا في فندق بلازا الأمم المتحدة، ومبناه في مواجهة مبنى الأمم المتحدة مباشرة، والانتقال بين الاثنين لا يقتضي غير عبور الشارع من الرصيف إلى الرصيف. وكان السكرتير العام للأمم المتحدة قد خصص قاعة لاجتماعات لجنة الجائزة، كما ارتأى أن يكون احتفالها بمنح جائزتها للمرة الأولى – إلى "ويلي برانت" في قاعة اجتماعات الجمعية العامة.

وسارت أعمال اللجنة على ما يرام، ولم يكن هناك اعتراض من أي عضو فيها على اختيار "برانت"، وقامت أمانة اللجنة بإبلاغه، ورد عليها بقبوله، وجاء إلى نيويورك فعلا، ونزل في نفس الفندق "بلازا الأمم المتحدة" مع أعضاء لجنة الجائزة.

ثم حضر "ويلي برانت" اجتماعا للجنة "أبلغناه" فيه بقرارها وحيثياته، ولم يبق من مراسم الجائزة غير احتفالها الرسمي المقرر عقدة في قاعة اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة، والمتحدث الرئيسي فيه هو السكرتير العام للمنظمة الدولية "بيريز دي كويلار".

وفيما بين اللقاء الصباحي للجنة الجائزة والاجتماع المسائي الاحتفالي، فوجئت بـ "ويلي برانت" يطلبني على التليفون ليسألني هل يستطيع أن يجيء ويلقاني في غرفتي – والآن؟!

**

وعندما دخل "ويلي برانت" إلى غرفتي في فندق بلازا الأمم المتحدة، أحسست أن الرجل مشغول إلى درجة الهـم بشيء يثقل عليه، ولأني أعرفه منذ سنوات طويلة، تكررت خلالها لقاءاتنا وطالت أحاديثنا، خصوصا عندما كنـت ضيفا على صديقي القديم الذي كان أحد رؤساء تحرير مجلة "دير شبيجل" الألمانية ذائعة الصيت وقد قبـل الآن أن يعمل مستشاراً صحفيا وعضو مجلس وزرائه وهو "كونراد آللرز" ــ أثناء دورة الألعاب الأوليمبية في ميونيخ سنة ١٩٧٢، و"برانت" وقتها مستشار ألمانيا الغربية" ــ فقد كنت أستطيع أن أحكم على حالته بالنظر إلى ملامحه.

وجلس "ويلي برانت" على مقعد ثم بادرني بسؤال: هل تعرف ما فيه الكفاية عن "حسن أغا" وأدهشـــني السـؤال، وقلت: "إنني لم أتعرف عليه قبل هذه المرة في نيويورك، لكنني أعرف اثنين من مساعديه ""عظيم حسـين" سـفير الهند في مصر سابقاً و"ساني رامفال" سكرتير عام الكومنولث حاليا، وهما القائمان على منظمة العالم الثالث التـي جمعتنا في هذه المناسبة".

وقال "برانت": "إنني تلقيت اليوم من بون "عاصمة ألمانيا الغربية أيامها" ما يجعلني أعاود النظر في قبولي للجائزة التي أعطيتموها لي اليوم ــ ولا أعرف كيف أتصرف؟ ليس عندي شيء محدد أستند عليه وإنما عنـدي هـواجس غير محددة تخص "حسن أغا" و"بنك الاعتماد والتجارة"، وسكت قليلا ثم استطرد:

"يعلم الله أنني في حاجة إلى كل "مارك" من هذه المائة ألف دولار التي أعطيتموها إلى هذا الصباح، لكنـي الآن غير مستريح إلى قبولها ــ أنت تعرف كم أحتاجها".

....

....

[كان "ويلي برانت" في اليوم السابق قد قدم لي زوجته الشابة الجديدة والتي كانت من قبل سـكرتيرة لــه، وكـان "ويلي" ظاهر البهجة وهو يقدمها قائلاً "إنها غيرت حياته وإن سعادته لا توصف وهو يستيقظ كل صباح في كـوخ صغير في "بافاريا" يتخذانه الآن عشاً للزوجية، ثم يذهب بنفسه إلى المطبخ ويصنع طبق البيض المقلّى ويعد الشاي والخبز المقدد والعسل لإفطار الصباح له ولهيلدا.]

....

....

وحاولت أن أستوضح من "ويلي برانت" إذا كان لديه أكثر مما استثار هواجسه، ولم يكن لديه شيء محدد، لكـن الشكوك في مثل هذه الحالات تكفي لأنها تنبه إلى تناقض في الضمير بين القبول بشيء أو رفضه حتى دون تحديد للأسباب!

وقلت لــ "ويلي برانت" أنني أفهمه ولكن المشكلة الحساسة هي كيف يتصرف دون أن يسيء إلى شخص "عظـيم حسين وساني رامفال مثلاً" أو إلى جهة "الأمم المتحدة وسكرتيرها العام، واحتفال المساء هذه الليلة يجري بمشاركته في تقديم الجائزة وبحضوره العشاء بعدها وذلك تكريم خاص موجه إلى برانت شخصياً".

ولمدة نصف ساعة رحنا نقلب مختلف الاحتمالات حتى توصلنا إلى حد وسط:

"يقف "ويلي برانت" في احتفال المساء ويقبل الجائزة، ويتسلم الشيك بقيمتها، ثم يعلن أن يتبرع به إلى أحد الصناديق الاجتماعية للأمم المتحدة، ويكون ذلك حل الإشكال".

بمعنى أنه يقبل الجائزة معنويا ويعتذر عن قيمتها ماديا، وهو بذلك يتسق مع شعوره ولا يحرج "بيريز دي كويلار" السكرتير العام للأمم المتحدة، وفي نفس الوقت لا يجرح أحدا من القائمين على منظمة العالم الثالث وجائزته، ولا يسيء ــ بدون سبب واضح ــ إلى حسن أغا العابدي.

....

وفيما بعد "عندما قارب "الجهاد" في أفغانستان مرحلته الأولى"، وارتفع درع الحماية عن "حسن آغا" مؤسس بنك الاعتماد والتجارة ــ لجأ الرجل إلى باكستان، ثم بان إلى أي مدى كان البنك غارقاً في أموال تجارة الأفيون وفي تحويل مسار جزء كبير منها إلى عمليات الجهاد الإسلامي في أفغانستان.

وفي التحقيقات التي أعقبت افلاس البنك مع بداية التسعينات، تبين أن عمليات الاحتيال والاختلاس التي جرت في البنك جاوزت خسائرها أكثر من عشرين بليون دولار!

وأثناء التحقيقات والمحاكمات الخاصة بإفلاس البنك ــ ومن المفارقات أن بعضها جرى في الولايات المتحدة "بعد انتهاء مرحلة الجهاد الأولى" ــ تعرض عدد كبير من المشاركين في إدارة بنك الاعتماد والتجارة ــ وربما كانوا أبرياء ــ إلى المساءلة، واستدعوا للتحقيق معهم، ومنع بعضهم من دخول الولايات المتحدة "وكان من بينهم السيد "كمال أدهم" الذي اضطر الى توقيع تسوية دفع بمقتضاها ٨٠ مليون دولار ليسوى مسئوليته كعضو في مجلس إدارة بالبنك!".

الورقة السابعة:

ماكيافيللي في أفغانستان!

لكن حروب العقائد تحتاج إلى الإيمان قبل أن تحتاج إلى المال، وترضى بالتضحية ولا تنتظر الثروة، والمجاهدون في سبيل الله لا يحرصون على المال؛ لأنه إذا كان ذلك ــ فهو الحرص على الحياة، وإلا لما كانت للمال فائدة. فإذا كان الحرص على المال هو المقصود إذن فالتعرض للخطر غير وارد وإيثار السلامة يصبح "القاعدة الذهبية" لسلوك المجاهدين.

وعندما أصبح أمراء الحرب الأفغانية طلاب ثروة تجري حولهم أنهار، سواء من صندوق "الجهاد الإسلامي" المشترك بين الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية "في جنيف"، أو من فوائض زراعة وتجارة الأفيون، أو من رسوم السماح بمروره عند حواجز الطرق بين أمراء الحرب ــ فإن جماعات "الجهاد الإسلامي" تحولت إلى "قوات مرتزقة".

والحقيقة أن "جون كولي" مؤلف كتاب "حروب غير مقدسة" كان موفقا إلى أبعد حد في اختياره للقول المأثور الذي استعاره من قائله الأصلي ليصدر به كتابه، فقد اختار "كولي" لتصدير كتابه فقرة كاملة من كتاب "الأمير" الذي ألفه "ماكيافيللي" "على شكل رسالة إلى "لورنزو العظيم" أمير فلورنسا، وقد تحول هذا الكتاب إلى عمل تأسيسي في بناء علوم وفنون السياسة". وفي تلك الفقرة التي اختارها "جون كولي" من كتاب "الأمير " يقول ماكيافيللي:

"إن الجنود المرتزقة بلا فائدة "للأمير" وهم خطر عليه".

لأن الجنود المرتزقة دائما منقسمون فيما بينهم، عطشى للقوة، وغير منضبطين برباط أي نوع من الولاء، وهم شجعان فيما بينهم لأنهم يتنازعون على الغنائم، جبناء أمام العدو لأنهم لا يريدون الموت، وليست لديهم خشية من الله، ولا عهد مع الناس، وهم يحاذرون الهزيمة؛ لأنها تفسد وظيفتهم ولهذا يتجنبون القتال أساسا. وقادة المرتزقة نوعان: إما رجال يتقنون الحرب أو لا يتقنونها. وفي الحالة الأولى فإن الأمير لا يستطيع أن يثق بهم لأن إتقانهم للحرب يغريهم بقوتهم، فيأخذون في ابتزاز أسيادهم، أما إذا كانوا لا يتقنون الحرب فإنهم يصبحون سببا للخسارة والهزيمة بينما تقع المسئولية على أسيادهم!

وقد أظهرت التجربة أن الممالك والجمهوريات لا بد أن تكون لها جيوشها النظامية، تدافع عن أمنها ومصالحها، باعتباره الخير المشترك للجميع في توفير الأمن والمصلحة، وهنا فإن الجنود المرتزقة وضباطهم لا مكان لهم ولا عمل".

وكان ذلك تماما حال زعماء الجهاد في مناطق أفغانستان المختلفة ومن عصبياتها القبلية المتصارعة ما بين "البشتون" و"الطاجيك" والأوزبك" و"الهازارا" ـ شمال أفغانستان وجنوبها ـ شرقها وغربها!

**

وربما أنه من القسوة وتصنيف كل من خرجوا للجهاد من زعماء القبائل والمناطق في أفغانستان على أنهم مليشيات من المرتزقة، لكن الجميع ـ وبغير استثناء ـ أدركوا حقيقة بالغة الأهمية، مؤداها أن مستقبل أفغانستان لن يتضح شكله ولن تتقرر صورته إلا بعد أن يخرج الجيش السوفيتي من بلادهم "ولم يكن لديهم شك وقد بلغت الأمور ما بلغته على أرض المعركة أن الاتحاد السوفيتي سوف يخرج من أفغانستان كيدا ـ سواء كان خروجه بهم أو بغيرهم ـ وهنا فإن الشعور الذي ساد بينهم وأصبح معيارا لتصرفاتهم هو "أن كل طرف سوف يتحدد مستقبله بمقدار ما ادخر لنفسه من الإمكانيات المتاحة له الآن كي يجاهد، وليس بكمية ما بذل من هذه الإمكانيات حتى يبلغ الجهاد غايته وتجيء ساعة الحقيقة".

وهكذا أصبحت استراتيجية جماعات الجهاد بغير استثناء هي: الانتظار والاحتفاظ بالقوة حتى تكون هذه القوة أداة للسلطة عندما تنتهي الحرب.

وعندما كانت ضرورات الحصول على الدعم المادي والعسكري تقتضي قدراً من العمل يزكي أصحابه ويرفع بالتالي مخصصاتهم من المال والسلاح والمؤن، فإن بعضهم كان "يجاهد" بالقدر الضروري ـ وليس أكثر ـ ولمجرد حفظ الحق في المستقبل عندما يجيء حسابه! وفي الواقع وعلى الأرض فإن القدر الأكبر والأصعب من

"الجهاد" كان من نصيب المتطوعين الباكستانيين من جنود الجيش "خصوصا من مناطق البشتون في ولاية الشمال الغربي من باكستان ــ وعاصمتها "بيشاور"ــ وهي ملاصقة لإقليم "قندهار" وامتداد بشرى لأهلها". وكذلك من نصيب المتطوعين العرب الذي أرسلوا تكليفاً أو قصدوا تطوعاً إلى مقر قيادة الجهاد في السعودية، وكانوا في ذلك الوقت ثلاث جماعات:

○ جماعة من أفضل الرماة المسرحين من الجيش الباكستاني والجيش المصري وغيرهما من الجيوش الإسلامية والعربية، وقد جرى تجنيدهم عندما وصلوا إلى نهاية خدمتهم، وعرضت عليهم مرتبات لم يكن في مقدورهم رفضها "ما بين ٥٠٠ ــ ٧٠٠ دولار في الشهر".

○ جماعة من المنتمين إلى تنظيمات إسلامية قصدوا إلى أفغانستان إثر ضربات أمنية وجهت إلى تنظيماتهم؛ لأن هذه التنظيمات مارست بالعنف أشكالاً من الأعمال الإرهابية في أوطانها.

○ ثم جماعة من المتطوعين الإسلاميين حلت لهم فكرة الجهاد في سبيل الإسلام، وقد زينها لهم إعلام كثيف أثار حميتهم أو أثار طموحهم إلى "ذكر جهادي" ينالهم ثوابه!

وعلى طول سنوات "الجهاد ضد الإلحاد" وصل عدد المتطوعين العرب من الجماعات الثلاثة إلى بضع عشرات من الألوف، ضمنهم ما بين خمسة إلى سبعة آلاف شاب مصري حملتهم مقادير مختلفة إلى جبال أفغانستان!

....

....

[وفي وقت من الأوقات ما بين سنة ١٩٨٤ ــ ١٩٨٧ أدى وجود هذه الجماعات من الشباب المصري وغيرهم من السعوديين والجزائريين والسوريين والسودانيين والفلسطينيين إلى تزايد واضح في عمليات الهجوم وترتيب الكمائن وبث الألغام ضد القوات السوفيتية، لكن جزءا من هذه العمليات لم يكن جهاداً خالصا "لثوابه"، والشاهد واقعة شديدة الأهمية جرت في ذلك الوقت، فقد حدث أن نجاح بعض العمليات ضد السوفييت دعا عناصر من الجهاد إلى طلبات تقدموا بها إلى قادتهم، وفيها ما يتعلق بمستقبلهم بعد انتهاء مهمتهم في أفغانستان، وعندما تأخر الرد عليهم قاموا بنوع من الإضراب "توقفوا فيه عن الجهاد"، حتى حضر إليهم ممثل رسمي للمخابرات المركزية الأمريكية، وعقد اجتماعاً مع بعض قادة الفصائل، وأعلن أمامهم باسم حكومته أن هناك ٢٠٠٠ موافقة على منح الجنسية الأمريكية "بكل امتيازاتها" لأكفأ العناصر في تأدية مهام الجهاد، وبالفعل فإن مندوب الوكالة في هذه المناسبة أعلن عن قرب تسليم أول دفعة من البطاقات الخضراء Green Card ــ وهي البطاقة التي تمهد للمواطنة الأمريكية الكاملة ــ للأكثر استحقاقاً بين المجاهدين. ومن المفارقات أن واحداً من الذين حصلوا على البطاقة الخضراء في هذه المناسبة كان الشيخ "عمر عبد الرحمن" مفتي جماعات الجهاد المصرية، الذي تكررت زياراته لبيشاور وعلا صوته فيها كثيراً يحث ويحرض على الجهاد ــ وذلك الشيخ الضرير الآن سجين نيويورك إلى الأبد بطريقة مجافية لروح ونص القانون الأمريكي، والغريب أن التهم الموجهة للشيخ لم تعلن بالكامل على الملأ، لكن

السلطات الأمريكية تستبقي الشيخ في زنزانته وهو فيما يظهر سجن إلى الأبد في محبسين: فقدان البصر وفقدان الحرية].

....

**

وفي كل الأحوال وبصرف النظر عما قام به المتطوعون العرب في ساحات الجهاد ـ فإن زعماء القبائل والعشائر وقادة المليشيات من أمراء الحرب كانوا على ثقة أن ساعة الحقيقة قادمة؛ لأن الاتحاد السوفيتي جرى بالفعل استنزافه في حرب لم تقتنع بها قياداته لا في موسكو حيث القيادة العليا للجيوش السوفيتية، ولا على الأرض الأفغانية التي دخلت إليها القوات متورطة.

كان البلد قاسياً ـ على عكس بلدان أوربا الشرقية مثل بولندا والمجر ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا الشرقية ـ فقد كانت القوات السوفيتية التي تخدم في أوربا الشرقية تعيش أحوال عز ورفاهية نسبية، بينما كانت الظروف في أفغانستان قاسية ما بين طبيعة موحشة، ومجتمع فقير ومغلق ـ وإغارات تعترض خطوط المواصلات وتحصر القوات السوفيتية في مواقعها، كأن هذه المواقع تحولت أقفاصاً حديدية لجنودها!

وكان اعتماد القيادة السوفيتية كالعادة في مثل تلك الظروف على الطيران، ولكن الطبيعة الجبلية لأفغانستان تجعل الضرب الجوي عقيماً، إذا لم يكن على الأرض حليف محلى يعتمد عليه.

ولم يكن الجيش السوفيتي مطمئناً للاعتماد على حكومة أفغانية؛ لأن النظام الشيوعي ـ كما هي العادة! ـ نجح في شرذمة قواته وبعثرتها فرقاً وجماعات متناحرة داخل البلد.

وكانت ساعة الحقيقة تقترب وعندما جاءت فإنها فرضت نفسها، بما اضطر الجيش السوفيتي إلى الإنسحاب من أفغانستان، تاركاً مقاليد السلطة فيها لحكومة شيوعية يرأسها "نجيب الله". وكان التقدير السوفيتي أن حكومة "نجيب الله" لن تستطيع البقاء طويلاً في "كابول"، وقصارى المطلوب منها أن تكون فاصلاً زمنياً بين الخروج السوفيتي من أفغانستان وسقوط الحكم الشيوعي في هذا البلد، وبذلك تبتعد وصمة الهزيمة عن الجيش السوفيتي وتلحق بشيوعيين أفغان وصلوا بالانقلاب إلى السلطة، وساعدهم الاتحاد السوفيتي بقوته وسقطوا بعجزهم الذاتي عن الاحتفاظ بما عندهم!

الورقة الثامنة:

أمريكا تحتكر غنائم الجهاد وتتهرب من ضرائبه!

في السنوات الثلاثة ما بين انسحاب الجيش السوفيتي ١٩٨٩، وعبور دباباته فوق "جسر الصداقة" الذي يربط ضفتي "نهر خورس" عائدة من أفغانستان إلى جمهورية أوزبكستان السوفيتية "في ذلك الوقت"، وحتى سقطت الحكومة الشيوعية التي تركها الجيش السوفيتي وراءه في "كابول" ولجوء رئيسها "١٩٩٢" إلى مقر الأمم المتحدة

طالباً حمايته ــ كانت السياسة الأمريكية قد حققت انتصارها كاملاً في الحرب الباردة وكان الاتحاد السوفيتي قــد خسر معركة "الأفكار" رغم أوهام ساورته بأن النصر فيها حتمية تاريخية من نصيبه.

....

....

[لكن الحتميات التاريخية ليست صواباً في معظم الأحيان، لأن ثقتها الزائدة في مقولاتها المُعلَّبة تعزلها عن حركة التغيير ثم تترسخ هذه العزلة حين تتولى المسئولية عنها بيروقراطيات دولة تزعم أن الــزمن معهــا، وأن الحقيقــة ملكها ــ باستنادها كما تحسب إلى عقيدة في التطور تزعم لنفسها قوة القانون الطبيعي!]

....

....

ثم حدث بعد النصر أن الولايات المتحدة تصرفت إزاء "الجهاد الإسلامي" في أفغانستان بسرعة متناهية وإذا هــي تهجر الساحة الأفغانية وكأنها لم تكن هناك:

○ ولعل الولايات المتحدة تصرفت بفهم الطبيعة العقائد حين يقع استخدامها لأهداف سياسية ــ بينما المنطق يعلم أصحابه أن عوامل السياسة متحولة والعقائد ثابتة. ومعنى ذلك أن هناك تناقضاً قادماً بالضــرورة بــين المتحــول والثابت.

○ أو أنها تصرفت عن حس استراتيجي يدرك متى بداية الأشياء ومتى نهايتها. أي بحساب الواقعية: يقدّر أن قيمة الأشياء تنتهي حين تنتهي الحاجة إلى استعمالها! ــ وأيا كان السبب فإن الولايات المتحدة:

ــ سارعت فور سقوط الاتحاد السوفيتي بالانسحاب من إدارة الجهاد ضد الإلحاد في أفغانستان ــ وأوقفت دورها في التمويل، خصوصا أن قضية تجارة المخدارت تفجرت كواحدة من أظهر القضايا في مرحلة مــا بعــد انتهــاء الحرب الباردة ــ كما سحبت كل أثر لوجودها على أرض الصراع، إلى درجــة أن مكتــب وكالــة المخــابرات المركزية الأمريكية في "بيشاور" جمع أوراقه في ليلة واحدة وطلع الفجر وإذا مقره مبني خال من أي مسئول.

ومن وجهة نظر "الإستراتيجية الأمريكية" فإن الأهداف كانت تحققت:

ــ ما رسمه "أيزنهاور" و"دالاس" "إطلاق الأفكار قبل إطلاق النار بما في ذلك "الجهاد ضد الإلحاد"" ــ وقع تنفيذه وبلغ مطلبه بالتزام إدارات جمهورية وديمقراطية واصلت نفس المطالب الاستراتيجية أربعين سنة.

ــ وفضلاً عن تحقيق الهدف فإن الولايات المتحدة أدركت بحس الإمبراطورية أن البقاء في أي موقع بعيد ــ مثل أفغانستان ــ بعد تحقيق الهدف، يحمل مسئوليات قد يطول أمرها مثل إقامة نظام حكم أو يحمل أعباء مثــل إعــادة التعمير، وكله مما لا تريد الولايات المتحدة أن تتحمله.

○ وفي الواقع فإن السياسة الأمريكية قدرت حجم المشكلات التي تنتظر أفغانستان "بعد التحريــر"، واختــارت أن تبتعد بمنطق أنه ليس لديها وقت تضيعه مع أمراء الحرب وشيوخ القبائل والعشائر وقادة المليشيات وزراع وتجــار الأفيون، خصوصا أن الشعب الأفغاني العادي راح يتطلع بعد انتهاء الحرب إلى عهد من السلام والرخاء يعوضــه عما قاسى منه، والسياسة الأمريكية أول من يقدر أنه الأمل المستحيل.

وكذلك فإن القرار الأمريكي ترك "المعمعان" لأهلة وخرج من أفغانستان بجوائز النصر دون الانتظار حتى تستحق ضرائبه!

ثم كان بعد الخروج الأمريكي من أفغانستان أن معظم الحشد الذي جمعته الولايات المتحدة للجهاد ضد الإلحاد انفضّ سامره وتفرق جمعه.

"ويستحق الملاحظة هنا أن دولا عربية أرادت أن تخرج من المغامرة الأفغانية وتقطع كل صلة بها، لكن الحقائق التي نشأت ونمت في أفغانستان راحت تطارد هذه الدول، ذلك أن العناصر التي جرى شحنها وتعبئتها وتحريضها على الجهاد ضد الإلحاد جنحت إلى ظن أنه لم يعد أمامها الآن غير أن تعود "كي تجاهد في أوطانها" ــ وكانت لهذه الظنون نتائج مأساوية بالذات في أوطان مثل الجزائر ومصر"!

**

لكنه بقي على الساحة الأفغانية ــ عدد من أمراء الحرب يتابعون ما انتظروه بعد خروج السوفييت وبعد نجاح الجهاد في هزيمة الإلحاد، وكان وراء هؤلاء الأمراء بلدان ليس في مقدور أيهما أن ينسحب وينسى:

- أولهما، بسبب الجوار الجغرافي وتبعاته: أي باكستان.
- وثانيهما، بسبب عمق وتشعب التزاماته: أي المملكة العربية السعودية.

وهكذا فإن في الفترة التي أعقبت الخروج السوفيتي من أفغانستان والسقوط الشيوعي في "كابول"، وهي الفترة ما بين ١٩٩٢ إلى عام ١٩٩٤ ــ لم يكن أمام البلدين المربوطين بـ "العمل الإسلامي" في أفغانستان "باكستان والسعودية" ــ غير الوقوف وراء خليط من أمراء الجهاد الأفغان ينتظرون الغنائم بالقرب منهم بقايا من تنظيمات الجهاد وشراذم شبابه الذين وجدوا أنفسهم بلا غطاء!

وخلال تلك الفترة من ١٩٩٢ إلى ١٩٩٤ أصبحت أفغانستان أرضا موحشة لنوع مخيف من الفوضى الدموية حركته نزعات الكراهية القديمة، وغرائز الأنتقام المستجدة ــ والطمع في بقايا الذهب على قاع صناديق الجهاد ــ وقبل ذلك السباق المحموم إلى زراعة وتجارة الأفيون.

وربما أن شخصية رجل مثل الجنرال "عبد الرشيد دوستم" "نائب وزير الدفاع الأفغاني اليوم" ــ وكما صوّر ملامحها "أحمد رشيد" في كتابه عن "طالبان" ــ ترسم لوحة لمحنة أفغانستان من خلال شخصية رجلها القوى "الأوزبكي" في تلك اللحظة!

ويروى "أحمد رشيد" في كتابه "طالبان" أنه وصل إلى لقاء مع الجنرال "دوستم" في عاصمته مزار شريف عام ١٩٩٣، ثم دخل إلى ساحة قلعة "كالاي جانجي" ــ وهي مقر القيادة ــ في انتظار دعوته لمقابلة "دوستم"، ولفت نظره أن حائط أحد الجدران ملطخ بدم تصوّره دم ذبيحة "عنْزة" أعدت طعاما للمقاتلين، لكن عميد الصحفيين الباكستاني لاحظ إلى جوار الدماء بقايا عظام، دعته إلى سؤال مرافقه، وكان الرد الذي تلقاه:

"إن جنديا اتهم بعصيان الأوامر، وحكم عليه الجنرال "دوستم" بالإعدام "هرْسا".

وكان "أحمد رشيد" قد سمع عن الإعدام شنقا، وعن الإعدام رميا بالرصاص، وعن الإعدام على الكرسي على الكهربائي "في أمريكا"، لكنه لم يسمع من قبل عن الإعدام "هرسا" واستوضح، وجاءه الشرح:

"وضعناه أمام دبابة تمر فوقه جيئة وذهابا وعدة مرات حتى نتأكد أن جسمه أصبح لحما مفروما لا يصلح إلا لعمل "كفتة" إذا كان هناك من يأكلها!".

وكان الجنرال "دوستم" في تلك الفترة "وهو الآن مرة أخرى" صاحب أقوى جيش في تحالف شمال أفغانستان، وكانت قاعدته "وهي الآن مرة أخرى" "مزار شريف" عاصمة الشمال الأوزبكي، وحين علا نجم الجنرال "دوستم"، فقد ظهر مواليا للشيوعية وحليفاً للجيش السوفيتي وسنداً لحكومة "نجيب الله" وظل كذلك طوال الثمانينات، وفجأة انقلب على الأصدقاء والحلفاء وانضم إلى تحالف الشمال، ثم انشقّ على تحالف الشمال ووصل الانشقاق إلى صدام بالدبابات خسر فيه "دوستم" وخرج من أفغانستان – لكنه عاد إليها بعد سنوات من الغيبة ليعقد صلحا من جديد مع تحالف الشمال، وكان بين أطراف هذا الحلف عندما بدأ الضرب الأمريكي الجوي الكثيف في شهر أكتوبر الأخير، وفي حمي الضرب الكثيف تقدم "دوستم" وسبق الجميع إلى احتلال "مزار شريف" ثم دفع جيوشه "حوالي ٤٠٠٠٠ مقاتل ومعهم ٣٠٠ دبابة و١٥ طائرة" حتى وصلت طلائعها إلى (قندهار) وهناك طلبت إليه القيادة الأمريكية أن يلتزم باتفاقه ويتراجع بقواته حتى لا يثير حرباً أهلية بين "الأوزبك" و"البشتون" في "قندهار" – ليس هذا مكانها ولا زمانها.

وكان الجنرال "دوستم" بطل مذابح رهيبة قدرت جريدة "الإندبندنت" البريطانية ضحاياها "في حدود مائة ألف قتيل وبضع مئات ألوف من الجرحى"!

ولسنوات ممتدة كان الجنرال وضابطه كلما سنحت لهم الفرص – "وقد عادت الفرص وسنحت لهم" – من أكبر القوى المسيطرة على زراعة وتجارة المخدرات، وقد تحول الجنرال "دوستم" ورجاله بالجريمة إلى أكبر ملاك للأراضي والعقارات، وكانوا هم الخاطفون والمغتصبون للزوجات والبنات والصبيان في "المناطق المحررة"، وأخيراً كان "دوستم" صانع مذبحة قلعة "كالاي جانجي" حيث جرى قتل مئات الأسرى من جنود طالبان بعد أن حصلوا على عهد أمان عندما اقتربت قوات "دوستم" من "قندهار" لبضعة أيام أواخر شهر نوفمبر الماضي. وخلافا لعهد الأمان أمر "دوستم" بقتل ستمائة أسير وهم مقيدون بالحبال من أرجلهم وأيديهم، وبعضهم بالرصاص، وبعضهم بالسكاكين وبعضهم هرساً. "وكانت القوات الجوية الأمريكية تحمي من الجو وتغطي، وهذه مذبحة سوف تكون يوما من الأيام موضع تحقيق؛ بوصفها جريمة حرب بكل المعايير!"

ويبقى أن "دوستم" مجرد نموذج لقادة سياسيين وعسكريين حولتهم القوى وحروبها – خارجية وداخلية – تحريرية وجهادية – إلى تجار في الأرواح والدماء والسلاح والأفيون. وكان هؤلاء هم أبطال الكابوس الذي عاشته أفغانستان ما بين ١٩٧٩ وحتى ١٩٩٢.

الورقة التاسعة:

طالبان: خروج من التاريخ واستغناء عن الذاكرة!

كانت الولايات المتحدة تملك أن تبتعد عن الساحة الأفغانية وتترك كابوسها لأهله ـ وكذلك كان في وسع دول أخرى عربية وغير عربية أن تلملم حوائجها وتخرج ـ أو تحاول، لكن باكستان والسعودية كان مكتوباً عليهما البقاء في أفغانستان؛ لأن كلتيهما لها فيها استثمارات وأرصدة سياسية لا تستطيع الاستغناء عنها، وكذلك ديون لا تستطيع بجرّة قلم أن تشطبها من الدفاتر وتنساها.

وكان مشروع "المدارس الشرعية" أهم الاستثمارات المشتركة بين بلدين حاول كلاهما لأسبابه ودواعيه أن يتخذ لنفسه نوعا من "الشخصية الإسلامية" تقدم سياساته الدولية والإقليمية والمحلية وتخدمها.

وفي الظروف المستجدة بعد الخروج السوفيتي من أفغانستان، كان مشروع "المدارس الشرعية" ملتقى السعودية وباكستان ولكل من البلدين دوافعه:

كانت دوافع باكستان في المشروع المشترك "للمدارس الشرعية" ترجع إلى جذور تاريخية ودينية معظمها من القرن التاسع عشر مع يقظة مسلمي الهند، وقد توافق المشروع مع بروز السلفية الإسلامية "الوهابية والمهدية والسنوسية" أوائل ذلك القرن، وكلها تدعو المسلمين بأسلوب أو آخر إلى عودة لأصول العقيدة تطهر نفسها من البدع الطارئة، باعتبار أن ذلك في نظر أئمة السلفية "خصوصاً محمد بن عبد الوهاب" طريق النهوض "وكانت دعوة ابن عبد الوهاب رد فعل طبيعياً على تحركات في الخليج العربي أمام شواطئ شبه الجزيرة العربية تومئ إلى سباق إمبراطوري عنيف تشارك فيه بريطانيا وإسبانيا والبرتغال وفرنسا، وتحاول كلها أن تعزز مواقعها في آسيا".

وعلى هذا السياق ظهرت في شبه القارة الهندية تيارات ودعوات جياشة وجماعات منظمة وفاعلة، والمهم ـ في هذا الحديث ـ أنه مع قيام دولة باكستان، ومع الدور الخاص فيها للجيش الباكستاني ـ نشطت الدعوة إلى إنشاء مدارس شرعية تساعد في المحافظة على رباط الإسلام بين المسلمين الذين بقوا في الهند "وهم وقتها ٦٠ مليوناً والآن أكثر من ضعف هذا العدد"، وبين باكستان دولة الإسلام البازغة في غرب الهند وشرقها وفيها أعظم أقاليمه: "البنغال" وقتها و"بالبنجاب" و"السند" ومقاطعات الشمال الغربي "الأسطورة على مداخل جبال الهملايا".

وكانت المدارس الشرعية أقرب إلى نوع من الكتاتيب يدخلها الصبيان من سن الخامسة حتى سن الخامسة عشرة، وفيها يتعلمون "القرآن" "وهم لا يعرفون لغته"، ويدرسون الشريعة "وقد تأثرت برواسب ثقافية مما ترسخ في شبه القارة الهندية"، ويعبئون بحمية الجهاد "لأنهم يعيشون داخل أو قرب مجتمعات جهل وجاهلية تعبد الأصنام وتقدس الحيوانات"!

وفي الواقع فإن أكثر انتشار المدارس الشرعية وأوسع نشاطها جرى في مناطق تكدس اللاجئين بعد تقسيم الهند وعقب موجات الهجرة الإسلامية التي تحركت نحو باكستان دون إعداد وبغير استعداد!

ونتيجة لذلك فإن "تلاميذ هذه المدارس" أصبحوا نموذجا من "جند الله" "كما أطلق عليهم" غريبا كما هو فريد: فهم شباب بلا جذور في أرض، ولديهم تعليم ديني وشرعي بالتقليد لأن لغة الدين والشرع غائبة، ثم إنهم حشد مقطوع الصلة بالتاريخ، مستغن عن الذاكرة، ورباطهم وولاؤهم هو السمع والطاعة بالبيعة لمعلم لم يخرج طول عمره من قريته أو من معسكر اللاجئين الذي وجد نفسه فيه، إلى جانب أن حياتهم متقشفة خشنة بواقع الفقر وبأساس التربية، وفي الحالتين فكلهم "منذور" لله وللدعوة والجهاد عندما يرتفع صوت المؤذن يدعو جند الله إلى ساحته.

وكان دخول المملكة العربية السعودية شريكا في مشروع "المدارس الشرعية" "الذي ساعد على وصول عددها زيادة على ٢٨ ألف مدرسة" خطوة لها مقدمات مهدت لها وأوصلت إليها:

١ــ إن ثورة أسعار النفط "في بداية السبعينات" أحدثت زلزالاً اجتماعيا في المملكة، فقد نزل عليها غنى أيقظ لدى أهلها أملا في درجة من التنمية ودرجة من المشاركة في الثروة والسلطة ــ ولكن ذلك لسبب أو آخر لم يتحقق على النحو الذي تمناه الناس.

٢ــ وأنه مع ثروة "زائدة" ومع توزيع لهذه الثروة مشوه، فقد ظهرت أشكال وألوان من الاستهلاك والترف أثارت ردة فعل أخلاقية ودينية في بلد يسود فيه الخطاب الأصولي، وهكذا فإن المعارضة ضد هذه الأوضاع ــ انتقلت إلى عناصر متشددة في فكرها، صارمة في تعبيرها.

٣ــ وبما أن الدولة السعودية كانت شركة بين الفقيه "الإمام محمد بن عبد الوهاب" وبين الأمير "الشيخ سعود الكبير"، فإن الخلاف راح يظهر بين "الوهابية" التطهرية في الدعوة وبين "السعودية" المهيمنة على الحكم.

٤ــ وعندما هبت رياح الثورة الإسلامية في إيران "طوال سنة ١٩٧٨ وسنة ١٩٧٩" ــ فقد حركت مشاعر المواطنين الشيعة في المنطقة الشرقية، وجرت مظاهرات تأييد لها في "القطيف" ــ لفتت النظر إلى أن الجبهة الداخلية للمملكة مكشوفة.

٥ــ وفي تلك الأجواء قام شاب من غلاة "المتطهرين" ومعه جماعة من الأنصار، باحتلال الحرم الشريف في مكة المكرمة "نوفمبر ١٩٧٩"، ودعواهم أن النظام ليس مؤهلا لحماية البيت الحرام، وكان زعيم هذه الجماعة وهو "محمد جهيمان العتيبي" ينتمي ــ كما هو ظاهر من اسمه ــ إلى قبائل "عتيبة" بمكانتها في شرق الجزيرة العربية "موطن الوهابيين".

"ويروى جون كولي في كتابه "حروب غير مقدسة" أن الحكومة السعودية التي فوجئت باحتلال الكعبة ــ وظلت عاجزة لأيام عن تخليصها، ثم لم تجد في النهاية بداً من استئجار فرقة "كوماندوز فرنسية" جاءت دون إعلان واقتحمت الكعبة وخلصت ورحلت بهدوء بعد تحصيل أتعابها، لكن تحرير الكعبة بهذه الطريقة ترك في حلوق المؤمنين مرارة شديدة!"

٦ـ ومع ذلك كله وفي أعقابه ـ بمنطلق الدفاع أيضا ـ فإن المملكة زادت نشاطها الإسلامي وفتحت خزانتها تمول وتساعد باكستان، في كافة المجالات سياسية وعسكرية واقتصادية ـ والأهداف إسلامية: أمنية وجهادية في نفس الوقت!

ولم يكن مشروع المدارس مجرد تطوع ـ بل كان كذلك منفعة مباشرة، والسبب أن هذه المدارس ونشاطها فتح أمام الرياض بأكثر مما حسبت مجالا ومتنفسا لعناصر إسلامية متشددة أو متطهرة أو مجاهدة ظهرت داخل المملكة، وكان الأسلم للمملكة تسهيل خروج هذه العناصر إلى بعيد حيث تمارس كل ما تشاء من تشدد وتطهر وجهاد.

وهكذا فإن الإسلام الذي تعرض لمحاولة توظيف ضد الإلحاد "في أواخر السبعينات"، تعرض "أوائل التسعينات" مرة أخرى لمحاولة التوظيف مع اختلاف الظروف، في المرة الأولى خطفه الأمريكان كما تخطف الطائرات، واستعملوه ضد الاتحاد السوفيتي، وقضوا غرضهم فيه ثم تركوه ورحلوا. والآن جاء الدور على قوى محلية "باكستان والسعودية" وكلتاهما ظهرت لها الآن أغراض مستجدة.

ـ الجيش الباكستاني "الذي تابع ما فعله الجهاد بالسوفييت" يحلم ويخطط حتى يتحول شباب المدارس الشرعية إلى مجاهدين في كشمير ضد الهند.

ـ والنظام السعودي "الذي يريد تأمين المملكة من الداخل" يجدها فرصة مفتوحة لتصدير المجاهدين، يبشرون ويعلمون في المدارس الشرعية ويدرسون ويحرضون كما يحلو لهم، شريطة أن يكون جهادهم وثوابهم بعيداً عن المملكة!

وكذلك ظهرت على الساحة حركة "طالبان": بمعنى الدرس وبمعنى الطلب!

جيش من التلاميذ على استعداد للجهاد في سبيل الإسلام، ومعرفتهم بالدين هي ما تلقوه في المدارس الشرعية التي التحقوا بها في قرى باكستان وفي معسكرات اللاجئين قرب مدنها، وفي مدارس" قندهار" الموصولة جغرافيا وتاريخيا بالمقاطعة الشمالية الغربية لباكستان وعاصمتها "بيشاور".

**

وهكذا فإنه عندما تصارع أمراء الجهاد الأفغاني ضد الإلحاد وأوقعوا أفغانستان في كابوسها الرهيب بعد الانسحاب السوفيتي عام ١٩٩٢ ـ كان الوطن الأفغاني في حاجة إلى خلاص وكان الخلاص الجاهز المهيأ قرب الساحة هو: "طالبان" التي أصبحت جيشا جرارا من "جند الله" "ما بين خمسين إلى ستين ألفا غير عشرات ألوف أخر جاهزون لمطالب حفظ الأمن وحراسة الطرق وعدد من الأعمال الإدارية" تحت قيادة مدرس شرعي سابق هو "الملا محمد عمر" وهو رجل عرف الجهاد وأخلص فيه وضحى حتىفقد عينا وقدما، ومع الملا عمر جمع أحاط به من "رفاقه" وكلهم متشدد متطهر مجاهد بايعه شبابه على السمع والطاعة حتى الموت.

وبالطبع فإن التوجه السياسي وراء "جند الله" كان بحكم الحقائق على بلدين كُتب عليهما البقاء في أفغانستان بعد أن تفرّق الحشد الكبير الذي تداعى للجهاد ضد الإلحاد "على طريقة برجينسكي" وهما: باكستان والمملكة العربية السعودية.

وهنا فإن كلا من البلدين عهد إلى مسئول فيه أن يتولى باسمه التوجيه السياسي:

ـ الجنرال حميد غول رئيس المخابرات العسكرية الباكستانية ممثلا لبلده.

ـ والأمير تركي بن فيصل رئيس المخابرات السعودية ممثلا لبلده.

وتحركت "طالبان" ولديها مهمتان:

ـ إزالة الشر من أفغانستان تجسده جماعات الجهاد الإسلامي ضد الإلحاد، وقد ضلّت طريقها بعد ما انتهى خيرها وتفاقم شرها.

ـ ثم إنقاذ سمعة الجهاد الإسلامي بين شعوب الأرض التي كانت تتابع ـ مستغربة! كيف تحوّل الجهاد في سبيل الله إلى فساد في الأرض؟

الورقة العاشرة:

أمير المؤمنين في أفغانستان!

وخطوة بعد خطوة بدأت قوات طالبان تتقدم في أفغانستان، ولأن أجواء "طالبان" كانت "بشتونية" فإن دخولها وتمركزها في إقليم "قندهار" جرى سهلاً، كما أن انضباطها بعد انحلال جماعات الجهاد السابقة حمل سمعة طالبان التطهرية إلى بعيد، ومن ثم انفتحت أمامها ولايات الوسط "الهازارا"، وولايات الشمال "الأوزبك والطاجيك" ومع أن دخول هذه الولايات جميعا وتوطيد أركان السلطة فيها "بحد السيف" لم يكن سهلا ـ إلا أن المشكلات الحقيقية بدأت على الفور وكلها مما كان منتظرا إذا استطاع النظر أن يمد رؤيته إلى ما هو أبعد من موقع قدميه:

ـ ذلك ان المدارس الشرعية لا تؤهل تلاميذها لشأن دنيوي، خصوصا إذا وضعت الظروف بين أيديهم مسئولية شعب ودولة وسلطة.

ـ ثم إن تلاميذ المدارس الشرعية لا يعرفون وطنا ينتمون إليه، فمعظمهم من معسكرات لاجئين ترسخت هويتهم فيما تلقوه عن شيوخ مدارسهم، وفي غيبة انتماء وهوية فإن فكرة الوطن أصبحت بلا حدود كما أن صورة العالم كانت بلا شكل.

ـ وتلاميذ المدارس الشرعية ذكور لم يختلطوا في حياتهم بالجنس الآخر، فقد عاشوا بلا أم ولا زوجة ولا أخت ولا صديقة، فإذا ظهرت إمرأة فهي "شبه جارية" مملوكة لسيدها "محجوبة عن غيره" ثم إن لها في الحياة وظيفة واحدة!

ـ وأخيراً وبمنطق أن البشر في هذه الدنيا للعبادة في انتظار الثواب في الآخرة، فإن فكرة صنع مستقبل من نوع ما، لم تكن تضغط على قيادات طالبان.

وكذلك راحت شئون الدولة ومسئوليات الحكم وطموحات المستقبل تسيّر نفسها على نحو لا يتناسب مع العصر وربما مع كل العصور. ويورد "أحمد رشيد" في كتابه "طالبان" ملحقاً يضم بعض الوثائق بينها الإعلان الأول الذي صدر عن حركة طالبان عندما "يسر الله عليها بفتح كابول"!

ونص الإعلان كما يلي:

إعلان صادر عن رئاسة الأمر بالمعروف ــ كابول "ديسمبر ١٩٩٦":

١ــ لصيانة النساء من الغواية فلا بد لهن أن يرتدين الحجاب، كما أنه لا يسمح لأي سائق عربة أو سيارة بنقل امرأة ترتدي الحجاب الإيراني؛ لأنه لا يكفي للتغطية الشرعية، وفي حالة المخالفة فإن السائق سوف يحكم عليه بالسجن، كما أنه إذا صادف البوليس الشرعي امرأة تمشي في الطرقات بالبرقع الإيراني وحده، فسوف يقبض عليها، وإذا تواجدت امرأة في طريق دون رجل من أهلها فسوف يتم القبض عليها.

٢ــ تمنع الموسيقى وقد يحظر إذاعتها من أي وسيلة إعلامية عامة. كذلك يحظر على المحلات والفنادق والسيارات والعربات أن تستعمل أجهزة تسجيل الغناء وإعادتها لأن ذلك ممنوع، وهذا الأمر لا بد أن يطبق خلال خمسة أيام، وإذا وجدت أي أدوات موسيقية في محل، فإن صاحب المحل سوف يسجن والمحل سوف يغلق. ويفتح المحل فقط في حالة تقدم خمسة أفراد لضمان أن صاحب المحل لن يعود إلى ارتكاب المخالفة مرة أخرى، وإذا وجدت شرائط موسيقية في سيارة فإن السيارة سوف تصادر والسائق سوف يسجن ويمكن الإفراج عن الاثنين في حالة تقدم خمسة أفراد بضمانات بعدم تكرار المخالفة.

٣ــ يمنع حلق اللحى أو قصها وفي ظرف شهر ونصف شهر من الآن، فإن أي رجل يضبط حالقاً ذقنه أو قاصا شعرها، سوف يقبض عليه ويسجن حتى تكبر لحيته إلى حدها الشرعي.

٤ــ يمنع منعا الاحتفاظ بأبراج الحمام واللعب بالطيور وخلال عشرة أيام، فإن هذه العادة أو الهواية لا بد أن توقف وبعد عشرة أيام سوف يجري تفتيش يضمن تنفيذ هذا البند، وإذا ظهرت مخالفة له فإن المسئول يقتل.

٥ــ يمنع منعا باتاً اللعب بالطائرات الورقية وكل محلات بيع مثل هذه الطائرات الورقية يجب إغلاقها.

٦ــ لمنع الشرك بالله فإن كل صور أو رسومات في حجرات البيوت أو في المحلات أو في الفنادق أو في أي مكان آخر، لا بد أن ترفع، وسوف يكلف المسئولون بالتفتيش للتأكد من تنفيذ ذلك الأمر في أي مكان.

٧ــ يمنع القمار منعا باتا، ويطلب من كل من يعرف بمكان يجرى فيه اللعب أو بإفراد يشاركون فيه، أن يبلغ عن ذلك وسوف يجري سجن كل اللاعبين والمتواطئين على السكوت وإغلاق المكان.

٨ــ يمنع الإدمان والمدمن يوضع في السجن ويحقق معه حتى يعترف بالمكان الذي حصل منه على المادة التي يستعملها لكي يتسنى عقاب صاحبه وسجنه.

٩ــ لمنع تصفيف الشعر على الطريقة الإنجليزية أو الأمريكية فإن من يضبط متلبساً بتصفيف شعره على هذا النحو سوف يتولى البوليس الشرعي حلق شعره وتغريمه أجر الحلاق!

١٠ـ لمنع الفوائد على القروض وعلى تغيير العملة فإن هناك لوائح سوف تصدر للتطبيق في هذا المجال وسوف يسجن كل مخالف لها لمدد طويلة.

١١ـ يمنع غسيل الملابس في المجاري العامة للمياه في المدينة بواسطة الشابات من النساء، وكل شابة تضبط متلبسة بهذا الفعل سوف يقبض عليها وتعاد إلى بيتها ويعاقب زوجها بالحبس.

١٢ـ تمنع الموسيقى والرقص في حفلات الزواج، وفي حالة المخالفة ذلك، فإن رئيس العائلة سوف يقبض عليه ويعاقب.

١٣ـ يمنع منعا باتا استعمال الطبول، وإذا ضبط أحد متلبسا بمخالفة ذلك، فسوف يوقع عليه العقاب المناسب.

١٤ـ يمنع منعا باتا أخذ مقاييس جسد أي امرأة بغرض تفصيل ملابس لها حتى ولو كان القائم بالعمل امرأة أخرى.

١٥ـ يمنع ممارسة أعمال السحر بقصد الإضرار بالآخرين وكتب السحر جميعا سوف تصادر وتحرق، كما أن كل من يشيع عنه استعمال ألعاب الحواة سوف يوضع في السجن.

١٦ـ توقف كل وسائل المواصلات وقت أداء الصلاة وأي شخص يوجد في شارع أو في محل في هذا الوقت يقبض عليه فورا.

الورقة الحادية عشرة:

طالبان: البداية والنهاية!

بهذا الإعلان للحقوق والواجبات ـ وغيره على مثاله ـ بدأ عهد "طالبان" في أفغانستان ـ وسط عالم يعبر نهاية القرن العشرين إلى فاتحة القرن الحادي والعشرين، ثم مضت "دولة المتطهرين" تنشيء دولتها بعد أن أعلنت مواثيقها وأقامت سلطتها وتمكنت من إزاحة بقايا مليشيات المجاهدين إلى ركن في شمال أفغانستان باندفاع لا تفسير له غير أن تلك المليشيات تآكلت وتحللت من الداخل بالكامل!

وكانت عملية تنظيم دولة طالبان بسيطة: إعلان أفغانستان إمارة إسلامية ـ ومبايعة "الملا محمد عمر" أميرا للمؤمنين له وحده السمع والطاعة ـ وإنشاء مجلس الشورى إلى جانب أمير المؤمنين له حق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ وتولى بعض أعضاء مجلس الشورى على رأس وزارات الدولة، أو ما بقي منها "خصوصا وزارة للخارجية لأنه كان لا بد منها حلقة اتصال بين عالم طالبان وعالم بقية الدول".

على أن الصلات مع العالم كانت تحتاج إلى نصح، وذلك دور تفردت تقريبا به: المخابرات العسكرية الباكستانية، أو انفرد به بعض ضباطها بصفة شخصية؛ لأن ارتباطهم بالحركة كان وثيقا، ولأن طالبان كانت "سلاحا مأمولا فيه" لمرحلة تالية عندما يحين وقت تنشيط العمل العسكري ضد الهند في كشمير.

ولم يكن للمملكة العربية السعودية اختصاص واسع في تلك الأحوال؛ لأن دورها انحسر في تقديم المساعدات المالية، خصوصا بعد أن أثبتت أفغانستان فائدتها مرة أخرى مجالا لـ: "نفايات سياسية" خطرة على الأرض السعودية، في حين أن أراضي أفغانستان وأحوالها ومناخها ـ مجال واسع أمامها يستوعب الجهاد، وما يصاحبه من شحن ديني ـ جهادي ـ قد يفلت عياره!

**

○ ومنذ بداية زمانها تلقت طالبان من أصدقائها في المخابرات العسكرية الباكستانية ما طمأنها إلى مواقف إسلام آباد حيالها مهما تغيرت هناك الحكومات. والشاهد أنه عندما حققت طالبان سيطرتها على أفغانستان كانت رئاسة الحكومة في إسلام آباد في عهدة السيدة "بناظير بوتو"، وفجأة وقع انقلاب دستوري في باكستان، وضع رئاسة الحكومة في عهدة السيد "نواز شريف"، وفجأة ـ مرة أخرى ـ وقع انقلاب عسكري، لكن الجيش احتفظ لنفسه برئاسة الدولة وأسندها للجنرال "برفيز مشرف". وبرغم هذه الانقلابات، فإن طالبان بصلتها بالمخابرات العسكرية الباكستانية، وبدور المخابرات العسكرية الباكستانية في إدارة الصراع مع الهند ـ ضمنت لنفسها وضعا جعلها "حالة خاصة" تحظى بدعم متواصل بسبب علاقتها مع مؤسسة الأمن القومي في باكستان.

....

....

[ولعل المخابرات العسكرية الباكستانية ساعدت دون قصد على سقوط دولة "طالبان"، فعندما وجهت الولايات المتحدة إنذارها إلى "الملا عمر" بتسليم "بن لادن" وإلا ... وبعث الجنرال "برفيز مشرف" إلى "مزار شريف" بوفد عسكري باكستاني يتولى إقناع "الملا عمر" ومجلس شوراه بجدية التهديد الأمريكي ـ فقد تبين فيما بعد أن الوفد العسكري الباكستاني حرّض "الملا عمر" على الرفض بدلا من إقناعه بالقبول، وكان رئيس المخابرات العسكرية الباكستانية الذي رأس الوفد يرى أن التهديد الأمريكي ليس جديا، وأن قبوله هو التهديد لطالبان؛ لأنه يفقدها احترامها بين المسلمين! وربما أن عناصر في المخابرات العسكرية الباكستانية وأصدقاءها من المجاهدين القدامى والجدد كرهوا إلى حد الموت طرفا دوليا استعملهم ثم تركهم في العراء عندما لم تعد له فيهم مصلحة، وهو الآن يوشك أن ينزع منهم سلاحاً أعدوه لإزعاج الهند في كشمير!]

....

....

وكانت المملكة العربية السعودية تواصل مساعداتها المالية، لكن العبء راح يزيد، وأسعار البترول تتراجع والمملكة تتأخر مدفوعاتها، وجاءت نجدة المقادير لدولة المتطهرين، حين أقبلت بعض شركات البترول الأمريكية المعنية بموارد وسط آسيا الغنية "وهي المنطقة المرشحة لأن تكون إضافة مهمة توازن نفط الخليج العربي" ـ تبحث مع حكومة طالبان مشروع خطوط أنابيب ينقل النفط وسط الجبال والوديان التي تسيطر عليها دولة المتطهرين.

لكن العقود مع شركات البترول الأمريكية طالت، ومدفوعات السعودية تعثرت، وكان على "طالبان" أن تبحث لنفسها عن مصادر إضافية للتمويل لا تجعلها رهينة لطرف، خصوصا أن أصدقاء لها من المتطهرين والوهابيين لم يكفوا عن نصح إمارة المؤمنين الجديدة بألا تترك نفسها رهينة لعطايا المملكة وحدها أو شركات النفط الأمريكية معها.

وكذلك مضت "طالبان" تبحث لنفسها عن موارد جديدة، تكون بديلاً لما يغنيها إذا دعا الأمر، خصوصا أنها كانت ــ أيضاً ــ في حاجة إلى فتح مزيد من المدارس سنداً ومدداً لا ينقطع من "جند الله"، وبالإضافة إلى ذلك فقد كان هناك نوع من الاتفاق الضروري لإصلاح الطرق وتجديد وسائط النقل، وإنشاء شبكة اتصال تربط مواقع السيطرة في الإمارة مع بعضها "لأن دولة المتطهرين تحتاج صلابة في رقابتها على الأمور توازي الصلابة في صدق الإيمان".

وأمام الاحتياج إلى المال يضغط كل يوم، فقد اكتشفت "طالبان" ما توصل إليه غيرها من حكام أفغانستان قبلها أي "الأفيون".

وهنا أصدر أمير المؤمنين فتوى من أغرب ما صدر عن المجتهدين في التاريخ مؤداها أن:

"زراعة الأفيون وتجارته مباحة شرعاً، وأما زراعة الحشيش وتجارته فهي محرمة شرعا". والداعي أن الأفيون تقع زراعته وصناعته بهدف التصدير ولذلك ينزل ضرره على غير المؤمنين، وأما الحشيش فإنه يستهلك محلياً ولذلك ينزل ضرره على المؤمنين!

**

وعلى هذه الأرضية استجد عاملان:

ــ العامل الأول: إن "أسامة بن لادن" وجد في إمارة أفغانستان الإسلامية قاعدة لدور تصوره لنفسه وكان ((أسامة بن لادن)) من الأصل شابا من أسرة سعودية عملت في مجال المقاولات وحققت غنى فادحا حين أوكل إليها مشروع توسعة الحرم الشريف في مكة بتكلفة قدرها خمسون بليون دولار "وهو مشروع يستحق تقدير كل مسلم ولكن تمويله وملابسات هذا التمويل أثارت وما زالت تثير جدلاً واسعا في السعودية".

وكان "أسامة بن لادن" قد اتصل بعمليات المجاهدين الأولى في أفغانستان حين وقع استخدام مكتب المقاولات الذي كان مسئولا عنه في "كابول" ــ واجهة من واجهات تمويل النشاط الجهادي، وتفويت الأموال اللازمة لهذا النشاط من مصادرها الأصلية إلى طلابها في الميدان.

وفيما يظهر فإن "إسامة بن لادن" كان في تلك الأوقات صديقاً مقرباً من الأمير "تركي بن فيصل" رئيس المخابرات السعودية، وكان حلقة وصل بينه وبين جماعات جهادية مختلفة في أفغانستان وخارجها!

لكن "أجواء الجهاد" أخذت "أسامة بن لادن" فاندمج فيها، ولم يعد مجرد واجهة أو وسيط أو ممول، وإنما تحول بدوره إلى فاعل قائم بذاته وصاحب أمر ونهي. وتلك ليست أول مرة في التاريخ يصبح فيها الوكيل أصيلا أو التابع مستقلا!

وفي النصف الأول من تسعينات القرن العشرين، وكانت مرحلة الجهاد الأولى قد انتهت، ومرحلة طالبان لم تبدأ بعد — طاف "أسامة بن لادن" على بلدان عديدة من الصومال إلى السودان إلى اليمن، وظهر له ظل على مواقع عمليات دموية تلاحقت في القرن الأفريقي أو بالقرب منه — على وجه التحديد.

وكذلك بدأت مطاردة "أسامة بن لادن"، وتبدي له — وهو معقول — أن إمارة المؤمنين في أفغانستان أنسب ملاذ يحتمي به، وكانت الإمارة من جانبها مستعدة. وبالفعل فإن "إسامة بن لادن" خلال سنوات إقامته في ظل أمير المؤمنين أصبح مرافقاً للملا محمد عمر ومفتيا وكذلك ممولاً للإمارة، قدم لها ما يزيد على مائة مليون دولار! وكانت الإمارة تشعر بجميله، "وإن كان رد الجميل في النهاية قد كلف طالبان دولتها"!

— وأما العامل الثاني: الذي استجد فهو أن إمارة أفغانستان الإسلامية، ووجود "بن لادن" فيها، أصبحت عنصر جذب ينادي جماعات إسلامية أصولية مطاردة في أوطانها — ومنها جماعة الجهاد المصرية. كي تقصد إلى دولة المتطهرين الإسلاميين، والظن أنهم هناك في أمان ولو بعزلة المكان وصعوبة تضاريسه وأجوائه الجهادية المواتية، وأنهم من هناك يقدرون ويملكون فرصة إعداد وتنفيذ مشروعات وخطط جهادية "مطلوبة"!

....

....

[ومن الإنصاف للحقيقة القول هنا أنه لم يكن صعبا في هذه الظروف سواء على "بن لادن" ولا على "الملا عمر" التقدم في نقلة واحدة من الجهاد ضد "الإلحاد" إلى الجهاد ضد "الكفر" — أو ما يتصورونه كذلك — وكان ذلك لعبا بالنار، لأنها أصبحت حربا على العالم كله بما فيه الإسلام وغالبية أهله لا يعترفون بتفسير "طالبان" لروحه وشريعته ونصوصه.]

....

....

**

ومع بداية القرن الحادي والعشرين أصبحت إمارة أفغانستان الإسلامية كتلة حرجة بذلك الخليط الذي تحول إلى عجينة "شبه نووية"، وكانت هذه الكتلة الحرجة تتمدد داخل إمارة المؤمنين الطالبانية وتهدر فيها — ثم إن بلوغ درجة الانفجار زاد قرباً بوجود "بن لادن" وما يتحرك حوله — وجماعة الجهاد المصرية وما وراءها!

وكانت الولايات المتحدة الأمريكية ترصد وتتابع وترتب.

كانت قد استغلت الأفكار والعقائد والأديان، وأولها الإسلام في عصر مضى لمحاربة الاتحاد السوفيتي، بدعوى الجهاد ضد الإلحاد. والآن فذلك ميدان فات زمانه، لأن الصراع الجديد لم يعد حربا بالأفكار. وإنما هو زمان الأسواق وليس زمان العقائد.

....

....

[ولست متأكدا — حتى الآن — أن طالبان أو تنظيم "بن لادن" "القاعدة" أو أن جماعة الجهاد المصرية كانوا وراء صواعق النار فوق نيويورك وواشنطن يوم ١١ سبتمبر الماضي، ولعلهم كانوا هناك مع آخرين لم يظهر أثرهم

بعد، لكن هؤلاء الإسلاميين وضعوا أنفسهم "أو وضعتهم الظروف والقوى وضمنها الولايات المتحدة الأمريكية بنفسها" موضع الشبهة ورأس قائمة المطلوبين ــ وكذلك كان].

....

....

[وقد سألني سفير أوربي مرموق في القاهرة: لماذا تظهر فيما تكتب شكوك تستبعد أن تقوم جماعات إسلامية وعربية ــ بتخطيط وتنفيذ عمليات ١١ سبتمبر ٢٠٠١؟ ثم استطرد السائل: أليس ذلك ــ في جزء منه ــ نزعا للثقة في كفاءة أطراف إسلامية وعربية، وقدرتها في القيام بعمل على هذا المستوى المدهش من ناحية التخطيط والإدارة والتكنولوجيا، بصرف النظر عن مقاصد الفعل ونتائجه المأساوية؟

وكان ردى: إنني لا أنزع قدرة شباب مسلم وعربي على أعمال مدهشة تخطيطا وإدارة وتكنولوجيا ــ لكني كنت وما زلت أتكلم بالتحديد عن تلك العناصر التي نسبت إليها المسئولية فعلا عما جرى في نيويورك وواشنطن. وما زال تقديري ــ وقد عرضته على الناس نقلاً عن مصادر في بروكسل ــ وزاد عليه فيما بعد تقرير صادر عن مركز دراسات إستراتيجية معتمد في موسكو أشارت أليه صحف بريطانية كبرى، وملخصه أن عناصر بلقانية كانت ضالعة في تلك العمليات المدهشة "يمكن أيضاً مراجعة تصريح لنائب الرئيس الأمريكي ديك تشيني قال فيه بعد ساعات من صواعق النار فوق نيويورك وواشنطن : إن ما جرى يحمل توقيع جهاز دولة"

أضفت أيضا: إن مستوى العناصر العربية والإسلامية التي نسبت إليها المسئولية عن حوادث ١١ سبتمبر كانت لها من قبل سوابق فعل في مواقع أكثر سهولة من نيويورك وواشنطن. وهنا في مصر فقد رأينا امتحانا لمستواها في مجزرة السياح في الأقصر قبل سنوات قليلة ــ وإذا كان ذلك هو المستوى، ثم وضعنا معه أساليب الإدارة السياسية والعسكرية في الدفاع عن دولة طالبان في أفغانستان ذاتها ــ إذن فنحن أمام تأكيد جديدة يؤكد مرة أخرى أن مجزرة السياح في الأقصر هي المستوى.

....

[ولسوء الحظ فإن الإسلام أسيء إليه مرة ثانية، كما أسيء إليه مرة أولى:

- وكانت المرة الأولى باستدعائه للجهاد بواسطة المخابرات المركزية الأمريكية.
- وكانت المرة الثانية بالطيران الأمريكي يضرب "جند الله" ضرباً بلا هوادة، حتى بدا وكأنه عقاب للمسلمين جميعاً حتى أولئك الذين لم يشاركوا في الجهاد الإسلامي "على طريقة برجينسكي"!

وكان الموضوع من أوله إلى آخره كارثة أصابت العرب في أنفسهم وقضاياهم ومستقبلهم، ثم إن الشظايا طالت أطرافا عربية وإسلامية بادرت وتطوعت للخدمة، وسمحت بأن يكون الجهاد الإسلامي مركبة مجانية للسيطرة الأمريكية، ثم تصورت خطا أن ما تطوعت به يوفر لها حصانات وحقوقا، وذلك نسيان ــ لا يستحق الغفران ــ لطبائع القوى أو طبائع الإمبراطوريات!]

....

وكان الرئيس "داويت أيزنهاور" هو الذي لخص تجربته في الخطاب الأخير من رئاسته قائلاً: سس "إن السياسات الطيبة ليست ضماناً أكيداً للنجاح ولكن السياسات السيئة ضمان محقق للفشل".

وذلك صحيح!

على أنه مما يستحق التأمل أن "أيزنهاور" في نفس هذا الخطاب الأخير استشهد أيضاً بحكمة إغريقية بليغة تقول:

"إن الآلهة لا تعاقب البشر حين تغضب عليهم وإنما هي تسلط عليهم أنفسهم وكفى"!

وذلك ما جرى!!